الثاني: خلق الإنسان أولا من ماء دافق كما في قوله﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [79/36].

الثالث: مجموع قوله ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي إنزال المطر وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها فناسب أن يكون الإقسام على تحقق البعث

وأكد هذا ما جاء بعده من الوعيد بالإمهال رويدا وقد سمي يوم القيامة بيوم الفصل كما في قوله﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [77/12–15].

وذكر الويل في هذه الآية للمكذبين يعادل الإمهال في هذه السورة للكافرين وإذا ربطنا بين القسم والمقسم عليه لكان أظهر وأوضح لأن رجع الماء بعد فنائه بتلقيح السحاب من جديد يعادل رجع الإنسان بعد فنائه في الأرض وتشقق الأرض عن النبات يناسب تشققها يوم البعث عن الخلائق والله تعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ [الطارق: 16].

نسبة هذا الفعل له تعالى قالوا إنه من باب المقابلة كقوله ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [3/54]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ مستهزءون اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [2/14–15]، وهو في اللغة كقول القائل لما سئل عن أي الطعام يريد وهو عار يريد كسوة

قالوا اختر طعاما نجد لك طبخة. . . قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

وقد اتفق السلف أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق ولا يجوز أن يشتق له منه اسم وإنما يطلق في مقابل فعل العباد لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله تعالى وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة والكيد أصله المعاجلة للشيء قبل.

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة والعرب قد تطلق الكيد على المكر والعرب قد يسمون المكر كيدا قال الله تعالى ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً﴾ [52/42]، وعليه فالكيد هنا لم يبين فإذا كان بمعنى المكر فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا

وعليه بيان شيء منه عند قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [54/3]، بأن مكرهم محاولتهم قتل عيسى ومكر الله إلقاء الشبه أي شبه عيسى على غير عيسى

وتقدم قوله تعالى ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [26/16]، وهذا في قصة النمرود فكان مكرهم بنيان الصرح ليصعد إلى السماء فكان مكر الله بهم أن تركهم حتى تصاعدوا بالبناء فأتى الله بنيانهم من القواعد فهدمه عليهم.

وهكذا الكيد هنا إنهم يكيدون للإسلام والمسلمين يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم والله يكيد لهم بالاستدراج حتى يأتي موعد إهلاكهم وقد وقع تحقيقه في بدر إذ خرجوا محادة لله ولرسوله وفي خيلائهم ومفاخرتهم وكيد الله لهم أن قلل المؤمنين في أعينهم حتى طمعوا في القتال وأمطر أرض المعركة وهم في أرض سبخة والمسلمون في أرض رملية فكان زلقا عليهم وثباتا للمؤمنين ثم أنزل ملائكته لقتالهم والله تعالى أعلم

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: 17].

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب، ما نصه: هذا الإمهال المذكور هنا ينافيه قوله تعالى ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [9/5].

والجواب: أن الإمهال منسوخ بآيات السيف ا هـ

وهذا ما يفيده كلام الطبري وإن لم يصرح به وهو منصوص القرطبي ولعل في نفس الآية ما يدل على ذلك وهو قوله ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ ، لأن ﴿ رُوَيْدًا﴾ بمعنى قليلا، فقد قيد الإمهال بالقلة مما يشعر بمجيء النسخ وأنه ليس نهائيا والله تعالى أعلم.

(497/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعلى

قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] .

تقدم معنى التسبيح وهو التنزيه عن كل ما لا يليق والأمر بالتسبيح هنا منصب على اسم ربك، وفي آيات أخر جاء الأمر بتسبيح الله تعالى كقوله﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [26/76] .

ومثل: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [17/30] .

وتسبيح الرب سبحانه كقوله﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [180/37]، فاختلف في هذه الآية هل المراد تسبيح الله سبحانه أو المراد تسبيح اسمه تعالى كما هو هنا ؟

ثم اختلف في المراد بتسبيح اسم الله تعالى وجاءت مسألة الاسم والمسمى

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة"الواقعة"، عند قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [96/56]، قوله إن الباء هناك داخلة على المفعول كدخولها عليه في قوله﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [25/19]، وأحال على متقدم في ذلك وحكى كلام القرطبي أن الاسم بمعنى المسمى واستشهد له من كلام العرب بقول لبيد

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقال لا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم لأن أسماء الله ألحد فيها قوم ونزهها آخرون ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن لاشتمالها على صفاته الكريمة كما في قوله﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [180/7] .

وقوله تعالى ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [110/17] .

ثم قال ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى هل الاسم هو المسمى أو لا لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية اهـ.

فتضمن كلامه رحمة الله تعالى علينا وعليه احتمال كون المراد تنزيه اسم الله عما ألحد فيه الملحدون كاحتمال تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله كما تضمن عدم لزوم كون الاسم هنا بمعنى المسمى ولعلنا نورد مجمل بيان تلك النقاط إن شاء الله.

أما تنزيه أسماء الله فهو على عدة معان.

منها تنزيهها عن إطلاقها على الأصنام كاللات والعزى واسم الآلهة

ومنها تنزيهها عن اللهو بها واللعب كالتلفظ بها في حلقة تنافي الخشوع والإجلال كمن يعبث بها ويلهو ونظيره من يلهو ويسهو عن صلاته ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [4/107-5] أو وضعها في غير مواضعها كنقش الثوب أو الفراش الممتهن.

ومنها تنزيهها عن المواطن غير الطاهرة وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لما في من نقش محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنه صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال صونا لاسم الله

وعلى هذا تكون هذه الآية موضحة لآية "الواقعة" ، وأن اسم ربك واقع موقع المفعول به وهو المراد بالتسبيح وعلى أن المراد تسبيح الله تعالى فقالوا إن الاسم هو المسمى كما قال القرطبي وغيره وقالوا الاسم صلة كما في بيت لبيد المتقدم.

أما مسألة الاسم هل هو عين المسمى أم لا فقد أشار إليها الفخر الرازي وقال إنه وصف ركيك.

أما قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ولا يلزم في نظري كون الاسم بمعنى المسمى هنا فإنه بلازم إلى بسط قليل ليظهر صحة ما قاله.

وقد ناقشها الرازي بعد مقدمة قال فيها من الناس من تمسك بهذه الآية في أن الاسم نفس المسمى

فأقول إن الخوض في الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل النزاع فلا بد ها هنا من بيان أن الاسم ما هو والمسمى ما هو.

فنقول: إن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ وبالمسمى تلك الذات فالعاقل لا يمكن أن يقول الاسم هو المسمى وإن كان المراد من الاسم هو تلك الذات وبالمسمى أيضا تلك الذات كان قولنا الاسم نفس المسمى هو أن تلك الذات هي تلك الذات وهذا لا يمكن أن ينازع فيه عاقل فعلمنا أن هذه المسألة في وصفها ركيكة وذكر الاشتباه على المتأخرين بسبب لفظ الاسم الذي هو قسيم الفعل والحرف إذ هو مراد المتقدمين في إطلاقه وإرادة مسماه.

ومن هنا تعلم: لماذا أعرض الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن بيانها ؟ وقد أوردنا هذا للبيان المجمل لنطلع القارىء إليه وعلى كل تقدير عند المتقدمين أو المتأخرين فإنه إن وقع الاحتمال في الذوات الأخرى فلا يقع في ذات الله وأسمائه لأن لأسماء الله أحكاما لا لأسماء الآخرين ولأسمائه سبحانه حق التسبيح والتنزيه والدعاء بها كما تقدم.

وهنا وجهة نظر لم أر من صرح بها ولكن قد تفهم من كلام بعض المفسرين وتشير إليها السنة وهي أن يكون التسبيح هنا بمعنى الذكر والتعبد كالتحميد والتهليل والتكبير

وقد جاء في كلام الرازي قوله ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه ونحوه في بعض نقول الطبري

أما إشارة السنة إلى ذلك فقد روى الطبري وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأها "سبحان ربي الأعلى"

وكذلك ما روي أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [74/56]، قال: "اجعلوها في ركوعكم" ولما نزلت هذه قال: "اجعلوها في سجودكم"

وساق القرطبي أثرا طويلا في فضلها في الصلاة وخارج الصلاة لكنه ليس بصحيح

وجاء الحديث الصحيح "تسبحون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتكبرون ثلاثا وثلاثين وتحمدون المائة بلا إله إلا الله"

وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [1/110]، إلا يقول: " سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" وقالت: يتأول القرآن.

وقالت أم سلمة إنه كان يقولها في قيامه وقعوده ومجيئه وذهابه صلى الله عليه وسلم فيكون﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ : أي اذكر ربك.

وهذا ما دلت عليه الآية الأخرى في هذه السورة نفسها في قوله تعالى﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [14/87–15]، فصرح بذكر اسم ربك كما جاء﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ فوضع الذكر موضع التسبيح وهو ما أشرنا إليه وبالله تعالى التوفيق.

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: 2] .

أطلق الخلق ليعم كل مخلوق كما تقدم في "السجدة"، ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [7/32]، والتسوية التقويم والتعديل وقد خلق الله كل مخلوق مستو على أحسن ما يتناسب لخلقته وما خلق له فخلق السماوات فسواها في أقوى بناء وأعلى سمك وأشد تماسك لا ترى فيها من تشقق ولا فطور وزينها بالنجوم وخلق الأرض ودحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها وجعلها فراشا ومهادا وخلق الأشجار فسواها على ما تصلح له من ذوات الثمار ووقود النار وغير ذلك

وهذه الحيوانات في خلقتها وتسويتها آية ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [17/88–20] .

أما الإنسان فهو في أحسن تقويم كل ذلك مما يستوجب حقا له سبحانه أن يسبح

اسمه في ذاته وجميع صفاته حيث جمع بين الخلق والتسوية فلكمال القدرة والتنزيه عن كل نقص

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الانسان: 3] .

أطلق هنا التقدير ليعم كل مقدور وهو عائد على كل مخلوق لأن من لوازم الخلق التقدير كما قال تعالى﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [49/54]، وقوله: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [3/65]، وهذه الآية ومثيلاتها من أعظم آيات القدرة وقد جمعها تعالى عند التعريف التام لله تعالى لما سأل فرعون نبي الله موسى عن ربه قال ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [20/49–50] .

وقد تقدم بيان عموم قوله تعالى﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [2/87]، وهنا قدر كل ما خلق وهدى كل مخلوق إلى ما قدره له ففي العالم العلوي قدر مقادير الأمور وهدى الملائكة لتنفيذها وقدر سير الأفلاك وهداها إلى ما قدر لها ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [33/21] .

وفي الأشجار والنباتات قدر لها أزمنة معينة في إيتائها وهدايتها إلى ما قدر لها فالجذر ينزل إلى أسفل والنبتة تنمو إلى أعلى وهكذا الحيوانات في تلقيحها ونتاجها وإرضاعها كل قد هداه إلى ما خلق له وهكذا الإنسان .

وقد قال الفخر الرازي إن العالم كله داخل تحت منطوق هذه الآية

أما معناها بالتفصيل فتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [50/20] .

قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: 7]

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى﴿ نُقْرِئُكَ ﴾ في سورة "طه" في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [114/20], وبينه بآية "القيامة" ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [16/75] .

وقوله ﴿ فَلا تَنْسَى ﴾ بحثه رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب مع ما ينسخ من الآيات فينساه وسيطبع إن شاء الله تعالى مع هذه لتتمة تتمة للفائدة.

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى: 9].

هل ﴿ إن ﴾ هنا بمعنى إذ أو أنها شرطية؟ وهل للشرط مفهوم مخالفة أم لا؟ كل ذلك بحثه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بتوسع في دفع إيهام الاضطراب ورجح أنها شرطية وقسم المدعو إلى ثلاثة أقسام مقطوع بنفعه ومقطوع بعدم نفعه ومحتمل وقال: محل التذكير ما لم يكن مقطوعا بعدم نفعه كمن بين له مرارا فأعرض كأبي لهب وقد أخبر الله عنه بماله فلا نفع في تذكيره

قوله تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ [الأعلى: 10].

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الحكمة من الذكرى.

ومنها تذكير المؤمنين وذلك في الكلام على قوله تعالى﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [55/51]، في سورة "الذاريات".

قوله تعالى: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: 12] أي بسبب شقائهم السابق أزلا كما قال تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [106/11].

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: 13]. نفي عنه الضدين لأن الإنسان بالذات إما حي وإما ميت ولا واسطة بينهما ولكن في يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير وهذا أبلغ في التعذيب إذ لو مات لاستراح ومع أنه يتلقى من العذاب ما لا حياة معه كما في قوله تعالى﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [36/35].

وقوله ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [17/14].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ذلك في سورة "طه" عند الكلام

على قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ [74/20]

قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 15].

أسند الفلاح هنا إلى ﴿ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ، وفي غير هذه الآية أسند التزكية لمشيئة الله في قوله ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [21/24]، وفي آية أخرى، نهى عن تزكية النفس.

وقد تقدم للشيخ بيان ذلك في سورة النور عند الكلام على قوله تعالى﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ على أن ﴿ زَكَى ﴾ بمعنى تطهر من الشكر والمعاصي لا على أنه أخرج الزكاة والذي يظهر أن آية النجم إنما نهى فيها عن تزكية النفس لما فيه من امتداحها وقد لا يكون صحيحا كما في سورة الحجرات ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [14/49] والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 19].

قرئ: ﴿ تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاء وبالياء راجعا إلى﴿ الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [87/11-12]، وعلى أنها بالتاء للخطاب أعم وحيث إن هذا الأمر عام في الأمم الماضية ويذكر في الصحف الأولى كلها عامة وفي صحف إبراهيم وموسى مما يدل على خطورته وأنه أمر غالب على الناس

وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك منها الجهل وعدم العلم بالحقائق كما في قوله تعالى﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [29/63]، أي الحياة الدائمة.

وقد روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى ؟

ومن أسباب ذلك أن الدنيا زينت للناس وعجلت لهم كما في قوله ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ

حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [14/3].

ثم قال: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [14/3]

وبين تعالى هذا المآب الحسن وهو في وصفه يقابل﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ، فقال ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [15/3].

تأمل هذا البديل ففي الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث وقد قابل ذلك كله بالجنة فعمت وشملت ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة كما تقدم في﴿أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ ، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [19/56]، وغير ذلك مما ينص على الخيرية في الآخرة

ولا شك أن من آثر الآخرة غالب على من آثر الدنيا وظاهر عليه كما صرح تعالى بذلك في قوله﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [212/2].

فمن هذا يظهر أن أسباب إيثار الناس للحياة الدنيا هو تزيينها وزخرفتها في أعينهم بالمال والبنين والخيل والأنعام ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [46/18].

وقد سيق هذا لا على سبيل الإخبار بالواقع فحسب بل إن من ورائه ما يسمى لازم الفائدة وهو ذم من كان هذا حاله فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة.

وإذا ذهبنا نتطلب العلاج فإننا في الواقع نواجه أخطر موضوع على الإنسان، لأنه يشمل حياته الدنيا وماله في الآخرة ويتحكم في سعادته وفوزه أو شقاوته وحرمانه وإن أقرب ماخذ لنا لهو هذا الموطن بالذات من هذه

السورة وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [87/10–12]، وبعدها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [87/14–

(505/8)

15]

فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة إلى قسمين

أما التذكير والإنذار إذ قال تعالى﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [87/9]، فهذا موقف النبي صلى الله عليه وسلم وجاء تقسيم الأمة إلى القسمين الآيتين﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ : فينتفع بالذكرى وتنفعه﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ ، فلا تنفعه ولا ينتفع بها ثم جاء الحكم بالفلاح﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ، أي من يخشى ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ولم يغفل عن ذكر الله تعالى وهذا الموقف بنفسه هو المفصل في سورة الحديد وفي معرض التوجيه لنا والتوبيخ للأمم الماضية أيضا﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [57/16]

فقسوة القلب وطول الأمد والتسويف هي العوامل الأساسية للغفلة وإيثار الدنيا والخشية والذكر هي العوامل الأساسية لإيثار الآخرة ثم عرض الدنيا في حقيقتها بقوله﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [57/20–21] .

فوصف الداء والدواء معا في هذا السياق فالداء هو الغرور والدواء هو المسابقة إلى مغفرة من الله ورضوانه وقوله ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ، قيل اسم الإشارة راجع إلى السورة كلها لتضمنها معنى التوحيد والمعاد والذكر والعبادات والصحف الأولى هي﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ على أنها بدل من الأولى.

وجاء عند القرطبي أن صحف إبراهيم كانت أمثالا وصحف موسى كانت مواعظ وذكر نماذج لها

وعند الفخر الرازي من رواية أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم أنزل الله من

كتاب ؟ فقال "مائة وأربعة كتب على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان".

(506/8)

وفي هذا نص على أن في القرآن مما في الصحف الأولى وقد جاء ما يدل أن معان أخرى كذلك في صحف إبراهيم وموسى كما في سورة النجم في قوله ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [53/36-40] .

وهذا يؤيد أنها أكثرها أمثالا ومواعظ، كما يؤكد ترابط الكتب السماوية

(507/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الغاشية

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: 1-7] . الكلام في ﴿ هَلْ ﴾ هنا، كالكلام في ﴿ هَلْ ﴾ التي في أول سورة "الإنسان" أنها استفهامية أو أنها بمعنى قد ؟

ورجح أبو السعود وغيره أنها استفهامية للفت النظر وشدة التعجب والتنويه بشأن هذا الحديث وهو مروي عن ابن عباس قال رضي الله عنه لم يكن أتاه فأخبره به وحديث الغاشية هو خبرها الذي يتحدث عنها والغاشية قال أبو حيان أصلها في اللغة الداهية تغشى الناس واختلف في المراد بها هنا فقيل يوم القيامة وقيل النار واستدل كل قائل بنصوص فمن الأول قوله ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ [29/55] .

قال الفخر الرازي وإنما سميت القيامة بهذا الاسم لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له والقيامة كذلك من وجوه:

الأول: أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [107/12].

والثاني: أنها تغشى الناس جميعا من الأولين والآخرين

والثالث: أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد.

(508/8)

ومن استدلالهم على أنها النار قوله تعالى﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [50/14].

وقيل: الغاشية أهل النار يغشونها أي يدخلونها فالغاشية كالدافة في حديث الأضاحي

وقال الطبري والراجح عندي أن الله تعالى أطلق ليعم فيجب أن تطلق ليعم أيضا

والذي يظهر رجحانه والله تعالى أعلم أنها في عموم القيامة وليس في خصوص النار فالنار من أهوال ولهي القيامة وهو ما يشهد له القرآن في هذا السياق من عدة وجوه

ومنها أنه جاء بعدها قوله﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ [2/88]، ويوم أنسب للقيامة منه للنار.

ومنها التصريح بعد ذلك بأن من كانت تلك صفاتهم﴿ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ مما يدل على أن الغاشية شيء آخر سوى النار الحامية.

ومنها أن التعميم ليوم القيامة يشمل جميع الخلائق وهو الأنسب بالموقف ثم ينجي الله الذين اتقوا

وقد بين تعالى قسيم هذا الصنف مما يدل على أن الحديث المراد إلغاؤه إنما هو عن حالة عموم الموقف﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ اتفقوا على أن ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ، يعني يوم القيامة.

وقال أبو حيان والتنوين فيه تنوين عوض وهو تنوين عوض عن جملة ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضا

عنها ولكن لما تقدم لفظ الغاشية.

وأل موصولة باسم الفاعل، فتنحل للتي غشيت أي للداهية التي غشيت فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها، وإلى الموصول الذي هو التي، وهذا مما يرجح ويؤيد ما قدمناه من أن الغاشية هي القيامة.

(509/8)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، بمعنى ذليلة

قال أبو السعود هذا وما بعده وقع جوابا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقي المتقدم كأنه قيل من جانبه صلى الله عليه وسلم "ما أتاني حديثها" فأخبره الله تعالى فقال "وجوه" إلخ.

قال: ولا بأس بتنكيرها لأنها في موقع التنويع أي سوغ الابتداء بالنكرة كونها في موقع التنويع وجوه كذا ووجوه كذا.

وخاشعة: خبر المبتدأ أي وما بعده من صلتهم.

وقوله ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ العمل معروف والنصب التعب وقد اختلف في زمن العمل والنصب هذين هل هو كان منها في الدنيا أم هو واقع منهم فعلا في الآخرة وما هو على كلا التقديرين فالذين قالوا هو كان منهم في الدنيا منهم من قال عمل ونصب في العبادات الفاسدة كعمل الرهبان والقسيسين والمبتدعة الضالين فلم ينفعهم يوم القيامة أي كما في قوله ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [23/25].

ومنهم من قال عمل ونصب والتذ فيما لا يرضى الله فعامله الله بنقيض قصده في الآخرة، ولكن هذا الوجه ضعفه ظاهر، لأن من هذه حالهم لا يعدون في عمل ونصب بل في متعة ولذة

والذين قالوا: سيقع منهم بالفعل يوم القيامة اتفقوا على أنه عمل ونصب في النار من جر السلاسل، عياذا بالله، وصعودهم وهبوطهم الوهاد والوديان، أي كما في قوله ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [17/74]. وقوله

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [17/72].

وقد ذكر الفخر الرازي تقسيما ثلاثيا فقال إما أن يكون ذلك كله في الدنيا أو كله في الآخرة أو بعضه في الدنيا وبعضه في الآخرة ولم يرجح قسما منها إلا أن وجه القول أنها في الدنيا وهي في القسيسين ونحوهم، فقال لما نصبوا في عبادة إله وصفوه بما ليس متصفا به، وإنما تخيلوه تخيلا أي بقولهم﴿ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [73/5] وقولهم ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [30/9]، فكانت عبادتهم لتلك الذات المتخيلة لا لحقيقة الإله سبحانه

(510/8)

ولا يبعد أن يقال على هذا الوجه إن من كان ممن لا ينطق بالشهادتين ويعمل على جهالة فيما لا يعذر بجهله أن يخشى عليه من هذه الآية كما يخشى على من يعمل على علم ولكن في بدعة وضلالة

ومما يشهد للأول حديث المسيء صلاته ولأثر حذيفة رأى رجلا يصلي فطفق فقال له منذ كم تصلي هذه الصلاة قال منذ أربعين سنة قال له ما صليت منذ أربعين سنة ولو مت على ذلك مت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم.

والأحاديث الواردة في ذلك على سبيل العمومات مثل قوله صلى الله عليه وسلم"من عمل عملا ليس عليه أمري فهو رد" أي مردود

وحديث الحوض "فيذاد أقوام عن حوضي فأقول أمتي أمتي فيقال إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك إنهم غيروا وبدلوا" .

ونحو ذلك مما يوجب الانتباه إلى صحة العمل وموافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم

وكذلك القسم الثاني كما في قوله﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ "الكهف" [104–103/18].

أما الراجح من القولين في زمن ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أهو في الدنيا أم في الآخرة فإنه القول بيوم القيامة وهو مروي

عن ابن عباس وجماعة والأدلة على ذلك من نفس السياق

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام جيد جدا في هذا الترجيح ولم أقف على قول لغيره أقوى منه نسوق مجمله للفائدة:

قال في المجموع في تفسير هذه السورة بعد حكاية القولين الحق هو الثاني لوجوه وساق سبعة وجوه

الأول: أنه على القول الثاني يتعلق الظرف بما يليه أي وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية

أما على القول الأول فلا يتعلق إلا بقوله: ﴿ تَصْلَى ﴾ ويكون قوله: ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ صفة للوجوه، قد فصل بينها وبين الموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى. والتقدير: وجوه

(511/8)

خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارا حامية والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، والتقديم والتأخير إنما يكون مع قرينة

والثاني: أن الله ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة بعد ذلك ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [88/8–10]، أي في ذلك اليوم، وهو يوم الآخرة، فالواجب تناظر القسمين أي في الظرف.

الثالث: أن نظير هذين القسمين ما ذكر في موضع آخر في قوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [75/22–25]، وفي موضع آخر في قوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [80/38–42]، وهذا كله وصف للوجوه في الآخرة

الرابع: أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب في القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [48/29]، وقوله ﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [47–30]، وهذا الوجه لم تتضح دلالته على

المقصود .

الخامس: أن قوله ﴿ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ ، لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإن هذا إلى المدح أقرب، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص، لقيل: خاشعة للأوثان مثلا عاملة لغير الله، ناصبة في طاعة الشيطان، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقا ولا وعيد عليه فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن وهذا الوجه من أقواها في المعنى وأوضحها دلالة

وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام المغرورون بغيرهم ويندمون غاية الندم يوم القيامة على اتباعهم إياهم كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [29/41] .

السادس: وهو مهم أيضا أنه لو جعل لهم في الدنيا لكان خاصا ببعض الكفار دون

بعض وكان مختصا بالعباد منهم مع أن غير العباد منهم يكونون أسوأ عملا ويستوجبون أشد عقوبة.

السابع: أن هذا الخطاب لو جعل لهم في الدنيا لكان مثله ينفر من أصل العبادة والتنسك ابتداء أي وقد جاءت السنة بترك أصحاب الصوامع والمتنسكين دون التعرض لهم بقتل ولا قتال كما أنها أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم مما يشعر باحترام أصل التعبد لعموم الجنس كما أشار .

وقد أوردنا مجمل كلامه رحمه الله لئلا تتخذ الآية على غير ما هو الراجح فيها أو يحمل السياق على غير ما سيق له وقد ختم كلامه بتوجيه لطيف بقوله ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة وليس في الخطاب تقييد كان هذا سعيا في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه هـ .

ومن الذي يعطي نفسه حق إصلاح الخطاب في كلام رب العالمين إنها لفتة إلى ضرورة ومدى أهمية تفسير القرآن

بالقرآن الذي نهجه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن

وقد بدا لي وجه آخر وهو لو جعل هذا العمل الكفار والمبتدعة لكان منطوقه أن العذاب وقع عليهم مجازاة على عملهم ونصبهم في عبادتهم تلك، والحال أن عذاب الكفار عموما إنما هو على ترك العمل لله وحده، وعقاب المبتدعة فيما ابتدعوه من ضلال فإذا كان ما ابتدعوه لا علاقة له بأركان الإسلام ولا بالعقيدة، وإنما هو في فروع من العبادات ابتدعوها لم تكن في السنة، فإنهم وإن عملوا ونصبوا فلا أجر لهم فيها، ولا يقال إنهم يعذبون عليها بطل ذلك المذكور مع سلامة العقيدة في التوحيد، والقيام بالواجب في أركان الإسلام إذ العذاب المذكور ليس مقابلا بالعمل والنصيب المذكور والله تعالى أعلم ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: 5].

قيل: حاضرة، وقيل: شديدة الحرارة، وهذا الأخير هو ما يشهد له القرآن في قوله تعالى ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ ومعلوم أن الحميم شديد الحرارة كما أن حملها على معنى حاضرة لم يكن فيه بيان معنى ما في تلك العين من أنواع الشراب

(513/8)

المعد والمحضر لهم، وفي المعجم ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ : قد انتهى حره والفعل أنى الماء المسخن يأتي بكسر النون

قال عباس:

علانية والخيل يغشى متونها . . . حميم وآن من دم الجوف ناقع

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: 6].

تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الجمع بينه وبين قوله تعالى ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ ،[69/35-36]، وبين الصحيح من معنى الضريع ما هو، وأنه نبت معروف للعرب وهو على الحقيقة لا المجاز .

وقد أورد الفخر الرازي سؤالا والجواب عليه وهو كيف ينبت الضريع في النار ؟ فأجاب بالإحالة على تصور

كيف يبقى جسم الكفار حيا في النار، وكذلك الحيات والعقارب في النار

وهذا وإن كان وجيها من حيث منطق القدرة ولكن القرآن قد صرح بأن النار فيها شجرة الزقوأنها فتنة للظالمين في قوله: ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [37/62-66]، فأثبت شجرة تخرج في أصل الجحيم وأثبت لها لازمها وهو طلعها في تلك الصورة البشعة وأثبت لازم اللازم وهو أكلهم منها حتى ملء البطون.

والحق أن هذا السؤال وجوابه قد أثاره المبطلون ولكن غاية ما في الأمر سلب خاصية الإحراق في الناعن النبات وليس هذا ببعيد على قدرة من خلق النار وجعل لها الخاصية

وقد وجد نظيره في الدنيا فتلك نار النمروذ كانت تحرق الطير في الجو إذا اقترب منها وعجزوا عن الدنو إليها ليلقوا فيها إبراهيم ووضعوه في المنجنيق ورموه من بعيد ومع ذلك حفظه الله منها بقوله تعالى ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [21/69]، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً

(514/8)

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: 16].

وهذا هو قسيم القسم الأول في بيان حال أهل الجنة ولم يعطف بالواو إيذانا بكمال تباين مضمونيهما و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ : هو يوم الغاشية المتقدم وهذا يقتضي أن الغاشية عامة في الفريقين وإن اختلفت أحوالها مع مختلف الناس وعليه فمنهم من تغشاه بهولها ومنهم من تغشاه بنعيمها وهي بالنسبة لكل منهما متناهية فيما تغشاهم به وهي صادقة على الفريقين.

ومعلوم أن الغاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر بمعنى الشمول والإحاطة التامة ومن إطلاقها على

الخير ما جاء في الحديث: "ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده" أخرجه مسلم.

وبيان ذلك وتحقيقه في حق كلا القسمين كالآتي:

أما الأول منهما وهو الغاشية في حق أهل النار فقد غشيهم العذاب حسا ومعنى ظاهرا وباطنا لأن خشوع في ذلة وهي ناحية نفسية وهي أثقل أحيانا من الناحية المادية فقد يختار بعض الناس الموت عنها ثم مع الذلة العمل والنصب حسا وبدنا ومع النصب الشديد ﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ ، وكان يكفي تصلى نارا ولكن إتباعها بوصفها حامية فهو زيادة في إبراز عذابهم وزيادة في غشيان العذاب لهم ثم يسقون ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ متناهية في الحرارة فيكونون بين نار حامية من الخارج وحميم من الداخل تصهر منه البطون فهو أتم في الشمول للغاشية لهم من جميع الوجوه وفي حق القسم المقابل تعميم كامل وسرور شامل كالآتي وجوه ناعمة مكتملة النعمة عرف في وجوههم نضرة النعيم

وهذا في شموله من الناحية المعنوية كمقابلة في القسم الأول بدلا من خاشعة في ذلة ناعمة في نضر ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ الذي سعته في الدنيا، والذي تسعى لتحصيله أو ثوابه ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ بدلا من عمل ونصب.

﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ : منزلة أدبية رفيعة حيث لا تسمع فيها كلمة لغو ولا يليق بها فهو إكرام لهم حتى في الكلمة التي يسمعونها كما في قوله ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا

لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ [56/25-26].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ : ومعلوم أنها عيون وأنهار تجري كقوله ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [15/45]، ومن لوازم العيون والأنهار هو كمال النعيم فأشجار ورياحين فروح وريحان وجنة نعيم وهذا في التعميم يقابل العين الآنية في الحميم للقسم الأول.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ وهم عليها متكون بدل من عمل الآخرين في نصب وشقاء ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ متكا ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ مفروشة في كل مكان فاكتمل النعيم من كل جانب حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره.

في كون بذلك قد غشيتهم النعمة كما غشيت أولئك النقمة وتكون الغاشية بمعنى الشاملة وعلى عمومها للفريقين وهي صالحة لغة وشرعا للمعذبين بالعذاب وللمنعمين بالنعيم وبالله تعالى التوفيق

تنبيه

مجيء ﴿فِيهَا﴾ مرتين ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ، ﴿فيها فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ . للدلالة على قسمي نعيم الجنة، الأول: عيون ونزهة، والثاني: سرر وسكن.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21].

توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة وعلى البعث وثم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه

أما الإبل فلعلها أقرب المعلومات للعرب وألصقها بحياتهم في مطعمهم من لحمها ومشربهم من ألبانها وملبسهم من أوبارها وجلودها وفي حلهم وترحالهم بالحمل عليها مما لا يوجد في غيرها في العالم كله لا في الخيل ولا في الفيلة ولا في أي حيوان آخر وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها في معرض امتنانه تعالى عليهم في قوله﴿ أَوَلَمْ

يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [36/71–73].

وكذلك في خصوصها في قوله ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [16/5-7].

إنها نعم متعددة ومنافع بالغة لم توجد في سواها ألبتة وكل منها دليل على القدرة بذاته أما الجبال فهي مما يملأ عيونهم في كل وقت ويشغل تفكيرهم في كل حين لقربها من حياتهم في الأمطار والمرعى في سهولها والمقيل في كهوفها وظلها والرهبة والعظمة في تطاولها وثباتها في مكانها وقد وجه الأنظار إليها أيضا في موطن آخر في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [78/6-7]، ثوابت كما بين تعالى أنها رواسي للأرض أن تميد بكم والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم، فهي مرتبطة بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا .

أما السماء ورفعها، أي: ورفعتها في خلقها وبدون عمد ترونها وبدون قطور أو تشقق على تطاول زمنها، فهي أيضا محط أنظارهم وملتقى طلباتهم في سقيا أنعامهم

ومعلوم أن خلق السماء والأرض من آيات الله الدالة على البعث كما تقدم مرارا

وتقدم للشيخ عند قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية [164/2]، بيان كونها آية، أما الأرض وكيف سطحت، فإن الآية فيها مع عمومها كما في قوله ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [57/40].

وقوله ﴿ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [20/88] آية ثابتة لأن جرمها مع إجماع المفسرين على تكويرها فإنها ترى مسطحة أي من النقطة التي هي في امتداد البصر وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها، لأن الجرم المتكور إذا بلغ من الكبر والضخامة حدا بعيدا يكاد سطحه يرى مسطحا من نقطة النظر إليه، وفي كل ذلك آيات متعددات للدلالة على قدرته تعالى على بعث الخلائق وعلى إيقاع ما يغشاهم على مختلف أحوالهم

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبيه على هذا المعنى عند الكلام على

قوله تعالى ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [101/10] الآيةمن سورة"يونس" .

تنبيه

التوجيه هنا بالنظر إلى الكيفية في خلق الإبل ونصب الجبال ورفع السماء وتسطيح الأرض مع أن الكيف للحالة والله تعالى لم يشهد أحدا على شيء من ذلك كله﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [51/18] . فكيف يوجه السؤال إليهم للنظر إلى الكيفية وهي شيء لم يشهدوه .

والجواب والله تعالى أعلم، هو أنه بالتأمل في نتائج خلق الإبل ونصب الجبال إلخ وإن لم يعلموا الكيف، بل ويعجزون عن كنهه وتحقيقه، فهو أبلغ في إقامة الدليل عليهم كمن يقف أمام صنعة بديعة يجهل سر صنعتها، فيتساءل كيف تم صنعها، وقد وقع مثل ذلك وهو الإحالة على الأثر بدلا من كشف الكنه والكيف، وذلك في سؤال الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه، أن يريه كيف يحيي الموتى فكان الجواب أن أراه الطيور تطير بعد أن ذبحها بيده وقطعها وجعل على كل جبل منها جزءا فلم يشاهد كيفية وكنه وحقيقة الإحياء وهو دبيب الروح فيها وعودة الحياة إليها لأن ذلك ليس في استطاعته ولكن شاهد الآثار المترتبة على ذلك، وهي تحركها وطيرانها وعودتها إلى ما كانت عليه قبل ذبحها مع أنه كان للعزير موقف مماثل وإن كان أوضح في البيان حيث شاهد العظام وهو سبحانه ينشرها ثم يكسوها لحما والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى بعد ذلك ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ، فإن مجيء هذا الأمر بالفاء في هذا الموطن فإنه يشعر بأن النظر الدقيق والفكر الدارس مما قد يؤدي بصاحبه إلى الاستدلال على وجود الله وعلى قدرته كما نطق مؤمن الجاهلية قس بن ساعدة في خطبته المشهورة ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجراة

فقد ذكر السماء والجبال والأرض.

وكقول زيد بن عمرو بن نفيل مؤمن الجاهلية المعروف

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدها . . . سواء وأرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له المزن تحمل عذبا زلالا

إذا هي سيقت إلى بلدة . . . أطاعت فصبت عليها سجالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له الريح تصرف حالا فحالا

فكان على هؤلاء العقلاء أن ينظروا بدقة وتأمل فيما يحيط بهم عامة وفي تلك الآيات الكبار خاصة فيجدون فيها ما يكفيهم

كما قيل كما قيل:

وفي كل شيء له آية . . . تدل على أنه واحد

فإذا لم يهدهم تفكيرهم ولم تتجه أنظارهم فذكرهم إنما أنت مذكر وهذا عام أي سواء بالدلالة على القدرة من تلك المصنوعات أو بالتلاوة من آيات الوحي والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 26].

فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع

قال عبيد:

وكل ذي غيبة يؤوب . . . وغائب الموت لا يؤوب

كما في قوله ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [48/5]، وهو على الحقيقة كما في صريح منطوق قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [55/3].

وقوله ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [164/6]

وقوله ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [26/88] الإتيان بثم للإشعار ما بين إيابهم وبدء حسابهم ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [47/22].

وقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ ، بتقدم حرف التأكيد وإسناد ذلك لله تعالى وبحرف على مما يؤكد ذلك لا لمجرد أنه

بأدق ما يكون وعلى الصغيرة والكبيرة كما في قوله﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [284/2].

(519/8)

ومن الواضح مجيء ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ، بعد قوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ، تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا ثم إن الحساب في اليوم الآخر ليس خاصا بهؤلاء بل وعام بجميع الخلائق ولكن إسناده لله تعالى مما يدل على المعاني المتقدمة

نسأل الله العفو والسلامة.

(520/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفجر

قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: 1–4] اختلف في المراد بالفجر فقيل انفجار النهار من ظلمة الليل

وقيل: صلاة الفجر.

وكلا القولين له شاهد من القرآن أما انفجار النهار فكما في قوله تعالى﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [18/81].

وأما صلاة الفجر فكما في قوله﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [78/17]، ولكن في السياق ما يقرب القول الأول إذ هو في الأيام والليالي﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ وكلها آيات زمنية

مكتبة أم محمد

أنسب لها انفجار النهار.

بقي بعد ذلك اختلافهم في أي الفجر عنى هنا فقيل بالعموم في كل يوم وقيل بالخصوص والأول قول ابن عباس وابن الزبير وعلي رضي الله عنهم

وعلى الثاني فقيل خصوص الفجر يوم النحر وقيل أول يوم المحرم وليس هناك نص يعول عليه إلا أن فجر يوم النحر أقرب إلى الليالي العشر إن قلنا هي عشر ذي الحجة على ما يأتي إن شاء الله

أما الليالي العشر فأقوال المفسرين محصورة في عشر ذي الحجة وعشر المحرم والعشر الأواخر من رمضان والأول جاء عن مسروق أنها العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [142/7]، وكلها الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس وليس في القرآن نص بعينها

وفي السنة بيان فضيلة عشر ذي الحجة وعشر رمضان كما هو معلوم فإن جعل الفجر خاصا بيوم النحر كان عشر ذي الحجة أقرب للسياق والله تعالى أعلم

(521/8)

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ : ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولا ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلا أما جملة فقالوا إنما الوتر هو لله للحديث: "إن الله وتر يحب الوتر" وما سواه شفع كما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [49/51]، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق كما في عموم ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [39-38/69].

أما التفصيل فقالوا المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجا والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء وهكذا ذكروا لكل شيء مقابله ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة

والواقع أن أقرب الأقوال عندي والله أعلم أنه هو الأول لأنه ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة.

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات والذرة لها نواة ومحيط وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر حتى في أدق عالم الصناعة كالكهرباء فإنها من سالب وموجب وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أي جهاز كان حتى الماء الذي كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين أكسجين وهدروجين ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أي الغليان ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء وهكذا

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب فلم يبق في الكون شيء قط فردا وتوبذاته إلا ما نص عليه الحديث "إن الله وتر يحب الوتر" ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغني بذاته عن غيره والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت إلخ بخلاف المخلوق وقلنا المستغني بذاته عن غيره لأن كل مخلوق شفعا فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثاني ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك ولهذا كان القول الأول وهو أن الوتر هو الله والشفع هو المخلوقات جميعها هو القول الراجح وهو الأعم في المعنى.

قوله ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، اتفق المفسرون على المعنى وهو سريان الليل، ولكن

(522/8)

الخلاف في التعيين هل المراد به عموم الليالي في كل ليلة أم ليلة معينة وما هي ؟

فقيل بالعموم كقوله ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [17/81] .

وقيل: بالخصوص في ليلة مزدلفة أو ليلة القدر.

وأيضا يقال: إذا كان الفجر فجر النحر والعشر عشر ذي الحجة فيكون ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، ليلة الجمع والله تعالى أعلم.

وقد رجح القرطبي وغيره عموم الليل وقد جمع في هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلا فشملت الخالق

والمخلوق والشفع والوتر إجمالا وتفصيلا في انفجار الفجر وانتشار الخلق وسريان الليل وسكونه والكون والعبادات في الليالي العشر.

فكان من أعظم ما أقسم الله به قوله تعالى﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [5/89]، أي عقل والحجر كل مادته تدور على الإحكام والقوة فالحجر لقوته والحجرة لإحكام ما فيها والعقل سمي حجرا بكسر الحاء لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق والمحجور عليه لمنعه من تصرفه وإحكام أمره وحجر المرأة لطفلها فهذه المقسم بها الخمسة هل فيها قسم كاف لذي عقل والجواب بلى وهذا ما يقوي هذا القسم بلا شك

ثم اختلف في جواب هذا القسم حيث لم يصرح تعالى به كما صرح به في نظيره وهو قوله﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [56/75–76].

ثم صرح بالمقسم عليه﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ الآية[56/77]. وهنا لم يصرح به مع عظم القسم فوقع الخلاف في تعيينه.

فقيل: هو مقدر تقديره ليعذبن يدل له قوله﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إلى قوله ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [89/6–13].

وقيل: موجود وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [89/14]، قاله القرطبي.

وهذا من حيث الصناعة في اللغة وأساليب التفسير وجيه ولكن يوجد في نظري والله تعالى أعلم ارتباط بين القسم وجوابه وبينما يجيء في آخر السورة من قوله

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [89/21] إلى آخر السورة.

كما أنه يظهر ارتباط كبير بينه وبين آخر السورة التي قبلها إذ جاء فيها﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [88/21–24]، ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ إلى

قوله ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [1/89–5]، لأن ما فيه من الوعيد بالعذاب الأكبر والقصر في إيابهم إلى الله وحده وحسابهم عليه فحسب يتناسب معه هذا القسم العظيم.

أما ارتباطه بما في آخر السورة فهو أن المقسم به هنا خمس مسميات ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [1/89–4] والذي في آخر السورة أيضا خمس مسميات ﴿ دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [21/89–23].

صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول النفخ في الصور ودك الأرض إلى نهاية الحساب وتذكر كل إنسان ماله وما عليه تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدم من أمور الدنيا.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: 11].

لم يبين هنا ماذا ولا كيف فعل بمن ذكروا وهم عاد وثمود وفرعون

وقد تقدم ذكر ثلاثتهم في سورة "الحاقة" عند قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [5/69–10].

والجديد هنا، هو وصف كل من عاد من أنها ذات العماد ولم يخلق مثلها في البلاد وثمود أنهم جابوا الصخر بالواد وفرعون أنه ذو أوتاد.

وقد اختلف في المعنى بهذه الصفات كلها.

أما عاد، فقيل: العماد عماد بيوت الشعر، والمراد بها القبيلة وطول عماد

بيوتها كناية عن طول أحسامهم كما قيل في صخر

رفيع العماد طويل النجاد

وطول الأجسام يدل على قوة أصحابها.

وقيل: إرم كانت مدينة رفيعة البنيان وذكروا في أخبارها قصصا تفوق الخيال وأنها في الربع الخالي كذلك حيث

لم تثبت أخبارها بسند يعول عليه ولم يصدقه الواقع فقال قوم قد خسف بها ولم تعد موجودة

أما ثمود فقد جابوا أي نحتوا الصخر بالواد بواد القرى في مدائن صالح وهي بيوتهم موجودة حتى الآن

وأما فرعون ذو الأوتاد فقيل هي أوتاد الخيام كان يتدها لمن يعذبهم

وقيل هي كناية عن الجنود يثبت بها ملكه

وقيل هي أكمات وأسوار مرتفعات يلعب له في مرابعها

قال ابن جرير ما نصه حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ ، ذكر لنا

أنها كانت مطال، وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وجبال

والذي يظهر والله تعالى أعلم، أن هذا القول هو الصحيح، وأنها مرتفعة، وأنها هي المعروفة الآن بالأهرام

بمصر، ويرجح ذلك عدة أمور:

منها أنها تشبه الأوتاد في منظرها طرفه إلى أعلا، إذ القمة شبه الوتد، مدببة بالنسبة لضخامتها، فهي بشكل

مثلث، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا.

ومنها ذكره مع ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، بجامع مظاهر القوة، فأولئك نحتوا الصخر بيوتا فارهين، وهؤلاء

قطعوا الصخر الكبير من موطن لا جبال حوله، مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد والحال أنها قطع كبار

صخرات عظام ففي اقتطاعها وفي نقلها إلى محل بنائها، وفي نفس البلاغ كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت،

وتسخير العباد في ذلك.

ومنها: أن حملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة في كل زمان ولكل جيل،

أوقع في العظة والاعتبار بأن من أهلك تلك الأمم قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم صدق الله العظيم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [14/89].

وقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا ﴾ [الفجر: 16].

بين تعالى أنه يعطي ويمسك ابتلاء للعبد

وقوله تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ ، وهي كلمة زجر وردع وبيان أن المعنى لا كما قلتم فيه تعديل لمفاهيم الكفار بأن العطاء والمنع لا عن إكرام ولا لإهانة ولكنه ابتلاء كما في قوله تعالى﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [35/21].

وقوله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [28/8].

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: 20] بعد ما بين سبحانه صحة المفاهيم في العطاء والمنع جاء في هذه الآيات وبين حقيقة فتنة المال إيجابا وسلبا جمعا وبذلا فبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك من عدم إكرام اليتيم مهيض الجناح مكسور الخاطر والتقاعس عن إطعام المسكين خالي اليد جائع البطن ساكن الحركة وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المال وهم يمسكون عنها وقد بين تعالى أن هذا الجانب هو اقتحام العقبة عند الشدة في قوله تعالى في سورة البلد ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [11/90–16].

ومن الجانب الآخر ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴾ أي الميراث فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية، أحوج إلى مال مورثهن وتحبون المال حبا حتى استعبدكم وألهاكم التكاثر فيه

وهنا لفت نظر للفريقين فمن أعطي منهم لا ينبغي له أن يغفل طرق البذل الهامة ومن منع لا ينبغي له أن

يستشرف إلى ما لا ينبغي له وبالله تعالى التوفيق

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]

(526/8)

تقدم في سورة الحاقة أيضا هذا السياق نفسه بعد ذكر ثمود وعاد وفرعون في قوله﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ إلى قوله ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ الآية [69/13-17] . مما يبين معنى ﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، أي على أرجائها صفا بعد صف.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الإحالة على ما يفسرها في سورة الرحمن على قوله تعالى﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [55/33]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [89/22]، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ من آيات الصفات.

مواضع البحث والنظر

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مرارا في الأضواء في عدة محلات وليعلم أنها والاستواء وحديث النزول والإتيان المذكور في قوله تعالى﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [2/210] .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث آيات الصفات كاملة في محاضرة أسماها أيات الصفات وطبعت مستقلة.

كما تقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأعراف عند قوله تعالى﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [7/54] ، وإن كان لم يتعرض لصفة المجيء بذاتها إلا أنه قال إن جميع الصفات من باب واحد أي أنها ثابتة لله تعالى على مبدأ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [42/11]، على غير مثال للمخلوق فثبت استواء يليق بجلاله على غير مثال للمخلوق

وكذلك هنا كما ثبت استواء ثبت مجيء وكما ثبت مجيء ثبت نزول

والكل من باب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي على ما قال الشافعي رحمه الله نحن كلفنا بالإيمان، فعلينا أن نؤمن بصفات الله على ما يليق بالله على مراد الله، وليس علينا أن نكيف إذ الكيف ممنوع على الله سبحانه

(527/8)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: 23].

قد بين تعالى موضوع تذكر الإنسان وهو قوله ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [24/89].

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة "الفرقان" عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ الآيات [27/25].

(528/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البلد

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 1].

تقدم الكلام على هذه اللام وهل هي لنفي القسم أو لتأكيده وذلك عند قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [1/75]، إلا أنها هنا ليست للنفي لأن الله تعالى قد أقسم بهذا البلد في موضع آخر وهو في قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [1/95–3] لأن هذا البلد مراد به مكة إجماعا لقوله تعالى بعده ﴿وَأَنْتَ﴾ أي الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿حِلٌّ﴾ أي حال أو حلال ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [2/90]، أي مكة، على ما سيأتي إن شاء الله

وقد ذكر القرطبي وغيره نظائرها من القرآن والشعر العربي مما لا يدل على نفي كقوله تعالى﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [12/7]، مع أن المراد ما منعك من السجود وكقول الشاعز

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكاد صميم القلب لا يتقطع

أي وكاد صميم القلب يتقطع

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثا مطولا في دفع إيهام الاضطراب

وقوله تعالى ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 2] .

﴿ حِلٌّ﴾ : بمعنى حال، والفعل المضعف يأتي مضارعه من باب نصر وضرب، فإن كان متعديا كان من باب نصر

تقول: حل العقدة يحلها بالضم، وتقول: حل بالمكان يحل بالكسر إذا أقام فيه، والإحلال دون الإحرام

(529/8)

وقد اختلف في المراد بحل هل هو من الإحلال بالمكان أو هو من التحلل ضد الإحرام؟

فأكثر المفسرين أنه من الإحلال ضد الإحرام واختلفوا في المراد بالإحلال هذا.

فقيل هو إحلال مكة له في عام الفتح ولم تحل لأحد قبله ولا بعده

وقيل: ﴿ حِلٌّ﴾ : أي حلال له ما يفعل بمكة غير آثم بينما هم آثمون بفعلهم

وقيل: ﴿ حِلٌّ﴾ : أي أن المشركين معظمون هذا البلد وحرمته في نفوسهم ولكنهم مستحلون إيذاءك وإخراجك.

وذكر أبو حيان أنه من الحلول والبقاء والسكن أي وأنت حال بها ا هـ

وعلى الأول يكون إخبارا عن المستقبل ووعدا بالفتح وأنها تحل له بعد أن كانت حراما فيقاتل أهلها وينتصر عليهم أو أنه تسلية له وأن الله عالم بما يفعلون به وسينصره عليهم

وعلى الثاني يكون تأكيدا لشرف مكة إذ هي أولا فيها بيت الله وهو شرف عظيم ثم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حال فيها بين أهلها.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا الثاني هو الراجح وإن كان أقل قائلا وذلك لقرائن من نفس السورة ومن غيرها من القرآن الكريم.

منها أن حلوله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد له شأن عظيم فعلا وأهمه أن الله رافع عنهم العذاب لوجوده فيهم كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [33/8]، فكأنه تعالى يقول وهذا البلد الأمين من العذاب وهؤلاء الآمنون من العذاب بفضل وجودك فيهم

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم بحلوله فيها بين أظهرهم يلاقي من المشاق ويصبر عليها

وفيه أروع المثل للصبر على المشاق في الدعوة فقد آذوه كل الإيذاء حتى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلي عند الكعبة وهو يصبر عليهم وآذوه في عودته من الطائف وجاءه ملك الجبال نصرة فأبى وصبر ودعا لهم ومنعوه الدخول إلى

(530/8)

بلده مسقط رأسه فصبر ولم يدع عليهم ورضى الدخول في جوار رجل مشرك وهذا هو المناسب لقوله بعده ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [4/90]، وهذا من أعظمه.

فإذا كان كل إنسان يكابد في حياته أيا كان هو ولأي غرض كان فمكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام حتى يقسم بها والله تعالى أعلم.

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: 3] .

قيل: الوالد هو آدم ﴿ وَمَا وَلَدَ﴾ قيل ما نافية وقيل: مصدرية.

فعلى أنها نافية، أي: وكل عظيم لم يولد له.

وعلى المصدرية أي بمعنى الولادة من تخليص نفس من نفس وما يسبق ذلك من تلقيح وحمل ونمو الجنين وتفصيله وتخليقه وتسهيل ولادته

وقيل: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ كل والد مولود من حيوان وإنسان

وقد رجح بعض العلماء أن الوالد هو آدم وما ولد ذريته بأنه المناسب مع هذا البلد لأنها أم القرى وهو أبو البشر فكأنه أقسم بأصول الموجودات وفروعها.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4] .

تقدم بيانه عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ [6/84] .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: 6-7] .

لم يبين أيراه أحد ومن الذي يراه ؟

ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه ولكن جاء الجواب مقرونا بالدليل والإحصاء في قوله تعالى بعد﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [8/90-10]، لأن من جعل للإنسان عينين يبصر بهما ويعلم منه خائنة الأعين ولسانا ينطق به ويحصى عليه﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [18/50]، وهداه الطريق طريق البذل وطريق الإمساك وإذا كان الأمر كذلك فلن ينفق درهما إلا وهو سبحانه يعلمه ويراه.

(531/8)

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]

النجد: الطريق، وهو كما تقدم في سورة "الإنسان" بعد تفصيل خلق الإنسان﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [2/76-3]، أي الطريق على كلا الأمرين بدليل ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [3/76] .

وتقدم المعنى هناك ويأتي في السورة بعدها عند قوله تعالى﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [8/91]، زيادة إيضاح له، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد : 11] .

وقد بين المراد بالعقبة فيما بعد بقوله﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [12/90]، ثم ذكر تفصيلها.

وقد ذكر أن كل ما جاء بصيغة﴿ وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ، فقد جاء تفصيله بعده كقوله تعالى﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [1/101–4]، وما بعدها.

وتقدم عند قوله تعالى﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [1/69–2] .

وفي تفسير العقبة بالمذكورات فك الرقبة وإطعام اليتيم والمسكين توجيه إلى ضرورة الإنفاق حقا لا ما يدعيه الإنسان بدون حقيقة في قوله﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ [6/90] .

أما فك الرقبة: فإنه الإسهام في عتق الرقيق والاستقلال في عتقها يعبر عنه بفك النسمة

وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية حيث قدم في سلم الاقتحام لتلك العقبة

وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق الرقيق أو فك النسمة يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بعضو وفيه نصوص عديدة ساقها ابن كثير وفي هذا إشعار بحقيقة موقف الإسلام من الرق ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرقاب.

(532/8)

فها هو هنا يجعل عتق الرقبة سلم اقتحام العقبة وجعله عتقا للمعتق من النار كل عضو بعضو ومعلوم أن ك مسلم يسعى لذلك وجعله كفارة لكل يمين وللظهار بين الزوجين وكفارة القتل الخطأ كل ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفك الرقاب في الوقت الذي لم يفتح للاسترقاق إلا باب واحد هو الأسر في القتال مع المشركين لا غير وهما مما سبق تنبيها عليه ردا على المستشرقين ومن تأثر بهم في إدعائهم على الإسلام أنه متعطش لاسترقاق

الأحرار.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على قوله تعالى﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [9/17] في سورة "الإسراء".

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [14/90]، أي شدة وجوع والساغب الجائع قال القرطبي وأنشد أبو عبيدة

فلو كنت جارا يا ابن قيس لعاصم. . . لما بت شبعانا وجارك ساغبا

أي لو كانت جارا بحق تعني بحق الجار لما حدث لجارك هذا.

وهذا القيد لحال الإطعام دليل على قوة الإيمان بالجزاء وتقديم ما عند الله على ما في قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [8/76]، على ما تقدم من أن الضمير في حبه أنه للطعام وهذا غالب في حالات الشدة والمسغبة.

وقوله ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [9/59]، فهي أعلى منازل الفضيلة في الإطعام.

وقوله ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: 15].

فاليتيم من حرم أبويه أو أحدهما وقد خصوا في اللغة يتيم الحيوان من فقد الأم وفي الطيور من فقد الأبوين وفي الإنسان من فقد الأب.

و ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ : أي قرابة وخص به، لأن الإطعام في حقه أفضل وأولى من غيره وفيه الحديث: "أن الصدقة على الغريب صدقة وصلة وعلى البعيد صدقة فقط".

(533/8)

والأحاديث في الإحسان إلى اليتيم متضافرة ويكفي قوله صلى الله عليه وسلم"أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذين" أي السبابة والتي تليها.

قوله تعالى: ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد: 16].

قيل: المسكين من السكون وقلة الحركة، والمتربة اللصوق بالتراب.

وقد اختلف في التفريق بين المسكين والفقير أيهما أشد احتياجا وما حد كل منهما فاتفقوا أولا على أنه إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا وإذا ذكر أحدهما فقط فيشمل الثاني معه يكون الحكم جامعا لهما كما هو هنا، فالإطعام يشمل الإثنين معا، وإذا اجتمعا فرق بينهما بالتعريف

فالمسكين كما تقدم والفقير قالوا ماخوذ من الفقرة وهي الحفرة تحفر للنخلة ونحوها للغرس فكأنه نزل إلى حفرة لم يخرج منها.

وقيل: من فقار الظهر وإذا أخذت فقار منها عجز عن الحركة فقيل على هذا الفقير أشد حاجة ويرجحه ما جاء في قوله تعالى ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ [79/18] فسماهم مساكين مع وجود سفينة لهم يتسببون عليها للمعيشة ولقوله صلى الله عليه وسلم "اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا" الحديث مع قوله صلى الله عليه وسلم "اللهم إني أعوذ بك من الفقر" وهذا الذي عليه الجمهور خلافا لمالك

وقد قالوا في تعريف كل منهما: المسكين من يجد أقل ما يكفيه، والفقير: من لا يجد شيئا والله تعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البلد: 17].

هذا قيد في اقتحام العقبة بتلك الأعمال من عتق أو إطعام لأن عمل غير المؤمن لا يجعله يقتحم العقبة يوم القيامة لإحباط عمله ولاستيفائه إياه في الدنيا و﴿ ثُمَّ ﴾ هنا للترتيب الذكري لا الزمني لأن الإيمان مشروط وجوده عند العمل.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شروط قبول العمل وصحته في سورة الإسراء عند قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [112/20]، وكقوله ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [19/17]، وقوله: ﴿ مَنْ

عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [97/16]، لأن الإيمان هو العمل الأساسي في حمل العبد على عمل الخير يبتغي به الثواب وخاصة الإنفاق في سبيل الله لأنه بذل بدون عوض عاجل

وقد بحث العلماء موضوع عمل الكافر الذي عمله حالة كفره ثم أسلم هل ينتفع به بعد إسلامه أم لا ؟

والراجح أنه ينتفع به كما ذكر القرطبي أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال يا رسول الله إنا كنا نتحنث بأعمال في الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام"أسلمت على ما أسلفت من الخير" . وحديث عائشة قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العاني ويعتق الرقاب ويحمل على إبله لله فهل ينفعه ذلك شيئا قال "لا، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" .

ومفهومه أنه لو قالها أي لو أسلم فقالها كان ينفعه والله تعالى أعلم

وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: 17] .

تتمة لصفاتهم، والصبر عام على الطاعة وعن المعصية والمرحمة زيادة في الرحمة والحديث"الراحمون يرحمهم الرحمن" .

وذكر المرحمة هنا يتناسب مع العطف على الرقيق والمسكين واليتيم والله تعالى أعلم

(535/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشمس

قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 1–10] .

في تلك الآيات العشر يقسم الله تعالى سبع مرات بسبع آيات كونية هي الشمس، والقمر والليل، والنهار،

والسماء، والأرض، والنفس البشرية، مع حالة لكل مقسم به، وذلك على شيء واحد، وهو فلاح من زكى تلك النفس وخيبة من دساها، ومع كل آية جاء القسم بها توجيها إلى أثرها العظيم المشاهد الملموس، الدال على القدرة الباهرة.

وذلك كالآتي أولا: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ فالشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل تقدير وهي على الزمان بدون انتقاص فهي في ذاتها آية.

ثم جاء وصف أثرها وهو: ﴿ ضُحَاهَا ﴾ ، وهو انتشار ضوئها ضحوة النهار وهذا وحده آية لأنه نتيجة لحركتها وحركتها آية من آيات الله كما قال تعالى﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [36/37/38]، وهي الآية التي حاج بها إبراهيم عليه السلام نمروذ في قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [2/258] .

ففي هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية﴿ وَضُحَاهَا ﴾ : نتيجة لهذا السير، ثم﴿ ضُحَاهَا ﴾ نعم جزيلة على الكون كله، من انتشار في الأرض وانتفاع بضوئها وأشعتها

وقد قالوا لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشيء لأنها تحرق باقترابها ويتجمد العالم من بعدها ذلك تقدير العزيز العليم

(536/8)

فالضحى وحده آية وهو حرها كقوله ﴿ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ [20/119]، أي بحر الشمس وقد أقسم تعالى بالضحى وحده في قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [93/1-2] .

وقوله ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ ، فهو كذلك القمر وحده آية وكذلك تلوه للشمس ونظام مسيره بهذه الدقة وهذا النظام فلا يسبقها ولا تفوته﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [36/40] .

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا تَلَاهَا﴾ ، أي تلا الشمس دلالة على سير الجميع وأنها سابقته وهو تاليها

فقيل: تاليها عند أول الشهر تغرب ويظهر من مكان غروبها.

وقد قال بعض أهل الهيأة تاليها في منزلة الحجم، أي كبرى وهو كبير بعدها في الحجم، وفيه نظر

ولا يخفي ما في القمر من فوائد للخلائق من تخفيف ظلمة الليل، وكذلك بعض الخصائص على الزرع، وأهم

خصائصه بيان الشهور بتقسيم السنة ومعرفة العبادات من صوم، وحج، وزكاة، وعدد النساء، وكفارات

بصوم، وحلول الديون، وشروط المعاملات، وكل ما له صلة بالحساب في عبادة أو معاملة

وقد جاء القسم بالقمر في المدثر في قوله ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [74/32-33] .

وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [84/18] مما يدل على عظم آيته ودقة دلالته

وقوله ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ ، ﴿وَالنَّهَارِ﴾ هو أثر من آثار ضوء الشمس.

و ﴿جَلَّاهَا﴾ قيل: الضمير فيه راجع للشمس كما في الذي قبله، ولكن اختار ابن كثير أن يكون راجعا

للأرض أي كشفها وأوضح كل ما فيها ليتيسر طلب المعاش والسعي كقوله﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ

لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [67/10]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ

النَّهَارَ نُشُوراً﴾ [47/25] .

(537/8)

وقد أقسم تعالى بالنهار إذا تجلى أي ظهر ووضح بدون ضمير إلى غيره في قوله تعالى﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [92/1-2]، أي: في مقابلة غشاوة الليل يكون بتجلي النهار.

وقد بين تعالى عظم آية النهار وعظم آية الليل وأنه لا يقدر على الإتيان بهما إلا الله كما في قوله﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ

جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [28/71-

.[72

وقوله ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ، قالوا يغشى الشمس فيحجب ضياؤها والكلام على الليل كالكلام على النهار من حيث الآية والدلالة على قدرته تعالى

وتقدمت النصوص الكافية وسيأتي الإقسام بالليل في قوله﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [1/92]، أي يغشى الكون كله كما في قوله ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [17/84]، أي جمع واشتمل بظلامه.

والضمير في ﴿ يغشاها ﴾ : راجع إلى الشمس وعليه قيل: إن الإقسام في هذه الأربعة راجع كله إلى الشمس في حالات مختلفة في ضحاها ثم تجليها ثم تلو القمر لها ثم يغشيان الليل إياها وهنا سؤال كيف يغشى الليل الشمس مع أن الليل وهو الظلمة نتيجة لغوب الشمس عن الجهة التي فيها الليل ؟

فقيل: إن الليل يغطي ضوء الشمس فتتكون الظلمة والواقع خلاف ذلك وهو أن الشمس ظاهرة وضوؤها منتشر ولكن في قسم الأرض المقابل للظلمة الموجودة كما أن الظلمة تكون في القسم المقابل للنهار وهكذا ولذا قال ابن كثير إن الضمير في﴿ يغشاها ﴾ و ﴿ جَلَّاهَا ﴾ راجع إلى الأرض إلا أن فيه مغايرة في مرجع الضمير والله تعالى أعلم.

وقوله ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ، قيل: ﴿ ما ﴾ ، بمعنى الذي وجيء بها بدلا عن من التي لأولى العلم لإشعارها معنى الوصفية أي﴿ وَالسَّمَاءِ ﴾ والقادر الذي ﴿ بَنَاهَا ﴾ وكذلك ما بعدها في: ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ﴾ ، والحكيم العليم

(538/8)

﴿ الَّذِي سَوَّاهَا ﴾ ، وما مشترك بين العالم وغيره كقوله ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [3/109]، ومثله ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [3/4] .

وتقدم مرارا أحوال السماء في بنائها ورفعها وجعلها سبعا طباقا وقد بين في تلك النصوص كيفية بنائها وأنه

سبحانه وتعالى بناها بقوة

كما في قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [47/51]، أي بقوة وقوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [6/91]، مثل ﴿ دَحَاهَا ﴾ [30/79] .

وقالوا : إبدال الدال طاء مشهور، وطحا تأتي بمعنى خلق وبمعنى ذهب في كل شيء فمن الأول

وما تدري جذيمة من طحاها . . . ولا من ساكن العرش الرفيع

ومن الثاني قول علقمة

طحا بك قلب في الحسان طروب. . . يعيد الشباب عصر حان مشيب

ولا منافاة في ذلك بأنه تعالى خلقها ومدها وذهب بأطرافها كل مذهب أي في مدها

تنبيه

قالوا ذكر السماء وما بناها للدلالة على حدوثها وبالتالي على حدوث الشمس والقمر وأن تدبيرهما لله وقوله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [7/91–8]، قالوا النفس تحمل كامل خلقة الإنسان بجسمه وروحه وقواه الإنسانية من تفكير وسلوك. . . . . إلخ.

وقيل: النفس هنا بمعنى القوى المفكرة المدركة مناط الرغبة والاختيار، وعليه فذكر النفس بالمعنى الأول، تكون تسويتها في استواء خلقتها وتركيب أعضائها وهي غاية في الدلالة على القدرة والكمال والعلم كما في قوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [4/95]، وقال ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [21/51]، أي من أعضاء وأجزاء وتراكيب وعدة أجهزة تبهر العقول في السمع وفي البصر وفي الشم وفي الذوق وفي الحس ومن داخل الجسم ما هو أعظم فحق أن يقسم بها.

(539/8)

﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ : أي بالقدرة الباهرة والعلم الشامل وذكرها بالمعنى الثاني فإنه في نظري أعظم من المعنى الأول وذلك أن القوى المدركة والمفكرة والمقدرة للأمور التي لها الاختيار ومنها القبول والرفض والرضى والسخط والأخذ والمنع فإنها عالم مستقل

وإنها كما قلنا أعظم مما تقدم لأن الجانب الخلقي قال تعالى فيه﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [57/40]، ولكن في هذا الجانب قال﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [72/33] .

ومعلوم أن بعض أفراد الإنسان حملها بصدق وأداها بوفاء ونال رضى الله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه فهذه النفس في تسويتها لتلقى معاني الخير والشر واستقبال الإلهام الإلهي للفجور والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التي لا تبدي ولا تعيد والتي لا تملك سلبا ولا إيجابا

وهنا مثال بسيط فيما استحدث من آلات حفظ وحساب كالآلة الحاسبة والعقل الألكتروني فإنها لا تخطىء كما يقولون وقد بهرت العقول في صفتها ولكن بنظرة بسيطة نجدها أمام النفس الإنسانية كقطرة من بحر.

فنقول إنها أولا من صنع هذه النفس ذات الإدراك النامي والاستنتاج الباهر

ثانيا: هي لا تخطىء لأنها لا تقدر أن تخطىء لأن الخطأ ناشيء عن اجتهاد فكري وهي لا اجتهاد لها إنما تشير وفق ما رسم لها كالمادة المسجلة في شريط فإن المسجل عدقة حفظة لها فإنه لا يقدر أن يزيد ولا ينقص حرفا واحدا .

أما الإنسان فإنه يغير ويبدل وعندما يبدل كلمة مكان كلمة فلقدرته على إيجاد الكلمة الأخرى أو لاختياره ترك الكلمة الأولى.

وهكذا هنا فالله تعالى هنا خلق تلك النفس أولا ثم سواها على حالة تقبل تلقي الإلهام بقسيمة الفجور والتقوى ثم تسلك أحد الطريقين فكأن مجيء القسم بها بعد

تلك المسميات دلالة على عظم ذاتها وقوة دلالتها على قدرة خالقها وما سواها مستعدة قابلة لتلقي إلهام الله إياها .

تنبيه

وفي مجيئها بعد الآيات الكونية من شمس وقمر وليل ونهار وسماء وأرض لفت إلى وجوب التأمل في تلك المخلوقات يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها والاستدلال على تغير الأزمان وحركة الأفلاك وإحداث السماء بالبناء أنه لا بد لهذا العالم من صانع ولا بد للمحدث المتجدد من فناء وعدم

كما عرض إبراهيم عليه السلام على النمروذ نماذج الاستدلال على الربوبية والألوهية فأشار إلى الشمس أولا ثم إلى القمر ثم انتقل به إلى الله سبحانه

وقوله ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إن كان ﴿ أَلْهَمَهَا ﴾ بمعنى هداها وبين لها فهو كما في قوله﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [10/90]، وقوله ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [3/76]، وهذا على الهداية العامة التي بمعنى الدلالة والبيان.

وإن كان بمعنى التيسير والإلزام ففيه إشكال القدر في الخير الاختيار

وقد بحث هذا المعنى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب بحثا وافيا

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ . هذا هو جواب القسم فيما تقدم فالواو قد حذفت منه اللام لطول ما بين المقسم به والمقسم عليه

وقد نوه عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [64/38]، من سورة "ص"، وأنهم استدلوا لهذه الآية عليه

والأصل: لقد أفلح فحذفت اللام لطول الفصل و﴿ زَكَّاهَا ﴾ بمعنى طهرها وأول ما يطهرها منه دنس الشرك ورجسه كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [28/9]، وتطهيرها منه بالإيمان ثم من المعاصي بالتقوى كما في قوله تعالى ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [32/53]، ثم بعمل الطاعات: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [87/14–15].

واختلف في مرجع الضمير في ﴿ زَكَّاهَا ﴾ و ﴿ دَسَّاهَا ﴾ وهو يرجع إلى اختلافهم في ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فهل يعود إلى الله تعالى كما في ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ، أم يعود على العبد.

ويمكن أن يستدل لكل قول ببعض النصوص فمما يستدل به للقول الأول قوله تعالى﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [4/49]، وقوله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [24/21]، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول عند هذه الآية"اللهم أنت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها وأنت وليها ومولاها" .

ومما استدل به للقول الثاني قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [87/14–15]، وقوله ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [35/18]، وقوله ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [79/18–19] وقوله ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [80/3]، وكلها كما ترى محتملة والإشكال فيها كالإشكال فيما قبلها.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الجمع بين تلك النصوص كالجمع في التي قبلها وأن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل في طاعة وترك لمعصية فإنه بفضل من الله كما في قوله تعالى المصرح بذلك﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [24/21].

وكل النصوص التي فيها عود الضمير أو إسناد التزكية إلى العبد فإنها بفضل من الله ورحمة كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للإيمان فهو الذي يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح وترك المعاصي كما في قولك"لا حول ولا قوة إلا بالله" وقوله ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [53/32] وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [4/49]، إنما هو بمعنى المدح والثناء كما في قوله تعالى﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [49/14]، بل إن في قوله تعالى﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [4/49]، الجمع بين الأمرين القدري والشرعي﴿ بَلِ اللَّهُ

(542/8)

يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بفضله ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ بعدلة والله تعالى أعلم.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس: 14].

﴿ ثَمُودُ ﴾ اسم للقبيلة أسند إليها التكذيب أي بنبي الله صالح و﴿ أَشْقَاهَا ﴾ هو عاقر الناقة أسند الانبعاث له وحده بين ما جاء بعده ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ ، فأسند العقر لهم.

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الجمع بين ذلك في سورة الزخرف ومضمونة أنهم متواطؤون معه كما في قوله ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [29/54]، فكانوا شركاء له في عقرها، كما قال الشاعز

والسامع الذم شريك لقائه. . . ومطعم الماكول شريك للآكل

وفي قصة أبي طلحة في صيد الحمار الوحشي سألهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم محرمون للعمرة "هل دله عليه منكم أحد ؟" قالوا لا قال "هل عاونه عليه منكم أحد ؟" قالوا لا قال "فكلوا إذا" لأن مفهومه لو عاونوا أو دلوا لكانوا شركاء في صيده فيحرم عليهم لقوله تعالى ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ [95/5]، وبعدم اشتراكهم حل لهم فلو عاونوا أو شاركوا لحرم عليهم وهنا لما كان راضين وناداوه وتعاطى سواء عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فعقرها وحده كان هذا باسم الجميع فكانت العقوبة باسم الجميع ويؤخذ من هذا قتل الجماعة بالواحد وعقوبة الربيئة مع الجاني والله تعالى أعلم

(543/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الليل

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: 2] .

يقسم الله تعالى بالليل والنهار وأثرهما على الكون على أنهما آيتان عظيمتان

وتقدم الكلام عليهما في السورة قبلها عند قوله﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [3/91–4] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هاتين الآيتين، عند قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [12/17] في سورة بني إسرائيل وذكر كل النصوص في هذا المعنى وأثر الليل والنهار في حياة الناس ومعرفة الحساب ونحوه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: 3] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث هذه المسألة وإيراد كل النصوص في عدة مواضع أشار إليها كلها في سورة "النجم" عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [45/53–46]، وقد قرئت بعدة قراآت منها ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ، ومنها ﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ .

وذكرها ابن كثير مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري ومسلم وعلى القراءة المشهورة ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ، اختلف في لفظة ﴿ ما ﴾ فقيل إنها مصدرية أي وخلق الذكر والأنثى وقيل بمعنى من أي والذي خلق الذكر والأنثى، فعلى الأول يكون القسم

(544/8)

بصفة من صفات الله وهي صفة الخلق ويكون خص الذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله وقوة قدرته سبحانه على ما يأتي.

وعلى قراءة ﴿ والذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ . يكون القسم بالمخلوق كالليل والنهار لما في الخلق من قدرة الخالق أيضا وعلى أنها بمعنى الذي يكون القسم بالخالق سبحانه وتكون ما هنا مثل ما في قوله﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [5/91]، وغاية ما فيه استعمالها وهي في الأصل لغير أولي العلم إلا أنها لوحظ فيها معنى الصفة وهي صفة

الخلق أو على ما تستعمله العرب عند القرينة كقوله تعالى﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ [22/4]، وقوله ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [3/4]، لما لوحظ فيه معنى الصفة وهو الاستمتاع ساغ استعمال ما بدلا عن من.

وفي اختصاص خلق الذكر والأنثى في هذا المقام لفت نظر إلى هذه الصفة لما فيها من إعجاز البشر عنها كما في الليل والنهار من الإعجاز للبشر من أن يقدروا على شيء في خصوصه كما قدمنا في السورة قبلها

وذلك أن أصل التذكير والتأنيث أمر فوق إدراك وقوى البشر وهي الآتي أولا في الحيوانات الثديية وهي ذوات الرحم تحمل وتلد فإنها تنتج عن طريق اتصال الذكور بالإناث

وتذكير الجنين أو تأنيثه ليس لأبويه دخل فيه إنه من نطفة أمشاج أي أخلاط من ماء الأب والأم وجعل هذا ذكرا وذاك أنثى فهو هبة من الله كما في قوله﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [42/49-50].

وقد ثبت علميا أن سبب التذكير والتأنيث من جانب الرجل أي أن ماء المرأة صالح لهذا وذاك وماء الرجل وه الذي به يكون التمييز لانقسام يقع فيه فالمرأة لا تعدو أن تكون حرثا والرجل هو الزارع ونوع الزرع يكون عن طريقه كما أشارت إليه الآية الكريمة﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [2/223]، والحرث لا يتصرف في الزرع وإنما التصرف عن طريق الحارث.

ويتم ذلك عن طريق مبدء معلوم علميا وهو أن خلية التلقيح في الأنثى دائما وأبدا

مكونة من ثمانية وأربعين جزءا وهي دائما وأبدا تنقسم إلى قسمين متساويين أربعة وعشرين فيلتحم قسم منها مع قسم خلية الذكر وخلية الذكر سبعة وأربعون وإنما أبدا تنقسم أيضا عند التلقيح إلى قسمين ولكن أحداهم أربعة وعشرون والآخر ثلاثة وعشرون فإذا أراد الله تذكير الحمل سبق القسم الذي من ثلاثة وعشرين

فيندمج مع قسيم خلية الأنثى وهو أربعة وعشرون فيكون مجموعهما سبعة وأربعين فيكون الذكر بإذن الله

وإذا أراد الله تأنيث الحمل سبق القسم الذي هو أربعة وعشرون من الرجل يندمج مع قسيم خلية المرأة أربعة

وعشرين فيكون من مجموعهما ثمانية وأربعون فتكون الأنثى بإذن الله وهكذا في جميع الحيوانات

أما النباتات فإن بعض الأشجار تتميز فيه الذكور من الإناث كالنخل والتوت مثلا وبقية الأشجار تكون

الشجرة الواحدة تحمل زهرة الذكورة وزهرة الأنوثة فتلقح الرياح بعضها من بعض

وقد حدثني عدة أشخاص عن غريبتين في ذلك

إحداهما: أن نخلة موجودة حتى الآن في بعض السنين فحلا يؤخذ منه ليؤبر النخيل وفي بعض السنين نخلة تطلع

وتثمر.

وحدثني آخر في نفس المجلس: من أنه توجد عندهم شجرة نخل يكون أحد شقيها فحلا يؤخذ منه الطلع يلقح

به النخل وشقها الآخر نخلة يتلقح من الشق الآخر لمجاورته

كما حدثني ثالث: أن والده قطع بعض فحل النخل لكثرته في النخيل وبعد قطعه نبت في أصله ومن جذعه

وجذوره نخلة تثمر وكل ذلك على خلاف العادة ولكنه دال على قدرة الله تعالى وأنه خالق الذكر والأنثى

أما عمل هذا الجهاز في الحيوانات بل وفي الحشرات الدقيقة وتكاثرها فهو فوق الحصر والحد

وقد ذكروا في عالم الحشرات ما يلقح نفسه بنفسه باحتكاك بعض فخذية ببعض وكل ذلك مما لا يعلمه ولا يقدر

على إيجاده إلا الله سبحانه وتعالى مما لو

(546/8)

تأمله العاقل لوجد فيه كما أسلفنا القدرة الباهرة أعظم مما في الليل إذا يغشى وما في النهار إذا تجلى ولاسيما إذا

صغر الكائن كالبعوضة فما دونها مما لا يكاد يرى بالعين ومع ذلك فإن فيه الذكورة والأنوثة سبحانك اللهم ما

أعظم شأنك.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: 4].

تقدم في السورة الأولى قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [91/9-10]، وكلاهما بالسعي إليه والعمل من أجله وهنا يقول ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ مهما كان ﴿لَشَتَّى﴾ أي متباعد بعض عن بعض.

والشتات: التباعد والافتراق وشتى جمع شتيت كمرضى ومريض وقتلى وقتيل ونحوه ومنه قول الشاعر:

قد يجمع الله الشتيتين بعد ما . . . يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وهذا جواب القسم وفي القسم ما يشعر بالارتباط به كبعد ما بين الليل والنهار وما بين الذكر والأنثى فهما مختلفان تماما وهكذا هما مفترقان في النتائج والوسائل كبعد ما بين فلاح من زكاها وخيبة من دساها المتقدم في السورة قبلها.

ثم فصل هذا الشتات في التفصيل الآتي ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 10].

وما أبعد ما بين العطاء والبخل والتصديق والتكذيب واليسرى والعسرى وقد أطلق ﴿أَعْطَى﴾ ليعم كل عطاء من ماله وجاهه وجهده حتى الكلمة الطيبة بل حتى طلاقة الوجه كما في الحديث "ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق".

والحسنى: قيل: الجازاة على الأعمال

وقيل: للخلف على الإنفاق

وقيل: لا إله إلا الله

وقيل: الجنة

والذي يشهد له القرآن هو الأخير لقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [10/26]، فقالوا: الحسنى هي الجنة، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم وهذا

المعنى يشمل كل المعاني لأنها أحسن خلف لكل ماينفق العبد وخير وأحسن مجازاة على أي عمل مهما كان ولا يتوصل إليها إلا بلا إله إلا الله

وقوله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ وقوله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ بعد ذكر: ﴿أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ في الأولى و ﴿بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ في الثانية

قيل هو دلالة على أن فعل الطاعة ييسر إلى طاعة أخرى، وفعل المعصية يدفع إلى معصية أخرى

قال ابن كثير مثل قوله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [110].

ثم قال: والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ومن قصد الشر بالخذلان وكل ذلك بقدر مقدر.

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة وذكر عن أبي بكر عند أحمد وعن علي عند البخاري وعبد الله بن عمر عند أحمد وعدد لكثير بروايات متعددة أشملها وأصحها حديث علي عند البخاري قال علي كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة فقال "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار" فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل "فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ إلى قوله ﴿لِلْعُسْرَى﴾ فهي من الآيات التي لها تعلق ببحث القدر.

وتقدم مرارا بحث هذه المسألة والعلم عند الله تعالى

تنبيه

قال أبو حيان جاء قوله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ على سبيل المقابلة، لأن العسرى لا تيسير فيها ا هـ

وهذا من حيث الأسلوب ممكن ولكن لا يبعد أن يكون معنى التيسير موجودا بالفعل إذ المشاهد أن من خذلهم الله عياذا بالله يوجد منهم إقبال وقبول وارتياح لما يكون أثقل وأشق ما يكون على غيرهم ويرون ما هم فيه سهلا ميسرا لا غضاضة.

عليهم فيه بل وقد يستمرؤون الحرام ويستطعمونه

كما ذكر لي شخص: أن لصا قد كف عن السرقة حياء من الناس وبعد أن كثر ماله وكبر سنه أعطى رجلا دراهم ليسرق له من زرع جاره فذهب الرجل ودار من جهة أخرى وأتاه بثمرة من زرعه هو أي زرع اللص نفسه فلما أكلها تفلها وقال: ليس فيه طعمة المسروق فمن أين أتيت به ؟ قال أتيت به من زرعك ألا تستحي من نفسك تسرق وعندك ما يغنيك فخجل وكف

وقد جاء عن عمر نقيض ذلك تماما وهو أنه لما طلب من غلامه أن يسقيه مما في شكوته من لبنه فلما طعمه استنكر طعمه فقال للغلام من أين هذا فقال مررت على إبل الصدقة فحلبوا لي منها وها هو ذا فوضع عمر إصبعه في فيه واستقاء ما شرب.

إنها حساسية الحرام استنكرها عمر وأحس بالحرام فاستقاءه وهذا وذاك بتيسير من الله تعالى وصدق صلى الله عليه وسلم "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"

ونحن نشاهد في الأمور العادية أصحاب المهن والحرف كل واحد راض بعمله وميسر له وهكذا نظام الكون كله والذي يهم هنا أن كلا من الطاعة أو المعصية له أثره على ما بعده

تنبيه

قيل إن هذه المقارنة بين ﴿ مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ، و ﴿ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ ، واقعة بين أبي بكر رضي الله عنه وبين غيره من المشركين

ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ فهي عامة في كل من﴿ أَعْطَى وَاتَّقَى أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ﴾ أو ﴿ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ﴾ . والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: 11] .

رد على ﴿ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ و ﴿ ما ﴾ هنا يمكن أن تكون نافية أي لا يغني عنه شيء، كما في قوله ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [28/69] وقوله ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ

وَلَا بَنُونَ﴾ [88/26]. ويمكن أن تكون استفهامية، وقوله﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ ، أي في النار عياذا بالله أو تردى في أعماله فماله إلى النار بسبب بخله في الدنيا كما يشهد له قوله تعالى﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [180/3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: 12].

فيه للعلماء أوجه منها إن طريق الهدى دال وموصل علينا بخلاف الضلال

ومنها التزام الله للخلق عليه لهم الهدى وهذا الوجه محل إشكال إذ إن بعض الخلق لم يهدهم الله

وقد بحث هذا الأمر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الإضطراب من أن الجواب عليه من حيث إن الهدى عام وخاص والله تعالى أعلم

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: 13].

أي بكمال التصرف والأمر وقد بينه تعالى في سورة الفاتحة﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [2/1]، أي المتصرف في الدنيا ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [4/1]، أي المتصرف في الآخره وحده﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [16/40].

وهذا كدليل على تيسيره لعباده إلى ما يشاء في الدنيا ومجازاتهم بما شاء في الآخرة. ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: 14].

أي تتلظى، واللظى اللهب الخالص وفي وصف النار هنا بناظى مع أن لها صفات عديدة منها السعير وسقر والجحيم والهاوية وغير ذلك.

وذكر هنا صنفا خاصا وهو من﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [16/92]، كما تقدم في موضع آخر في وصفه أيضا بلظى في قوله تعالى﴿ إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ [15/70–16] ثم بين أهلها بقوله﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [17/70–18].

وهو كما هو هنا ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [92/14–16] وهو المعنى في قوله قبله ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ [92/8–9]، مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل كل منزلة تختص بصنف من الناس فاختصت لظى بهذا الصنف واختصت سقر بمن لم يكن من المصلين ولخاضوا يخوضون مع الخائضين ونحو ذلك ويشهد له قوله ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [4/145]، كما أن الجنة منازل ودرجات حسب أعمال المؤمنين، والله تعالى أعلم

﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ [الشمس: 18] هذه الآية من مواضع الإيهام ولم يتعرض لها في دفع إيهام الاضطراب وهو أنها تنص وعلى سبيل الحصر أنه لا يصلى النار إلا الأشقى مع مجيء قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [19/71] مما يدل على ورود الجميع.

والجواب من وجهين الأول كما قال الزمخشري إن الآية بين حالي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين.

فقيل: الأشقى وجعل مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له وقال الأتقى وجعل مختصا بالجنة وكأن الجنة لم تخلق إلا له وقيل عنهما هما أبو جهل أو أمية بن خلف المشركين وأبو بكر الصديق رضي الله عنه حكاه أبو حيان عن الزمخشري.

والوجه الثاني: هو أن الصلى الدخول والشي وأن يكون وقود النار على سبيل الخلود والورود والدخول المؤقت بزمن غير الصلى لقوله في آية الورود التي هي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [19/71] ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [19/72]، ويبقى الإشكال بين الذين اتقوا وبين الأتقى ويجاب عنه: بأن التقى يرد، والأتقى، لا يشعر بورودها كمن يمر عليها كالبرق الخاطف، والله تعالى أعلم

ولولا التأكيد في آية الورود بالمجيء بحرف﴿ من ﴾ و ﴿ إلا ﴾ وقوله: ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ لولا هذه المذكورات لكان يمكن أن يقال إنها مخصوصة بهذه

الآية وأن الأتقى لا يردها إلا أن وجود تلك المذكورات يمنع من القول بالتخصيص والله تعالى أعلم

وفيه تقرير مصير القسمين المتقدمين﴿ مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ﴾ و ﴿ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ﴾ ، وأن صليها بسبب التكذيب والتولي والإعراض وهو عين الشقاء ويتجنبها الأتقى الذي صدق وكان يتحقق تصديقه أنه أعطى ماله يتزكى وجعل إتيان المال نتيجة التصديق أمر بالغ الأهمية

وذلك أن العبد لا يخرج من ماله شيئًا إلا بعوض لأن الدنيا كلها معاوضة حتى الحيوان تعطيه علفا يعطيك ما يقابله من خدمة أو حليب إلخ.

فالمؤمن المصدق بالحسنى يعطي وينتظر الجزاء الأوفى الحسنة بعشر أمثالها لأنه مؤمن أنه متعامل مع الله كما في قوله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [245/2] .

أما المكذب فلم يؤمن بالجزاء آجلا فلا يخرج شيئًا لأنه لم يجد عوضا معجلا، ولا ينتظر ثوابا مؤجلا، ولذا كان الذين تبؤوا الدار والإيمان، يحبون من هاجر إليهم ويواسونهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة إيمانا بما عند الله، بينما كان المنافقون لا ينفقون إلا كرها ولا يخرجون إلا الرديء الذي لم يكونوا ليأخذوه من غيرهم إلا ليغمضوا فيه، ولك ذلك سببه التصديق بالحسنى أو التكذيب بها .

ولذا جاء في الحديث الصحيح "والصدقة برهان" أي على صحة الإيمان بما وعد الله المتقين، من الخلف المضاعفة الحسنة.

وقوله ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ ، أي يتطهر ويستزيد إذ التزكية تأتي بمعنى النماء كقوله تعالى﴿ خُذْ مِنْ

أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [103/9]، وهذا رد على قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [14/87]، وعلى عموم ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [5/92]، ولا يقال إنها زكاة المال لأن الزكاة لم تشرع إلا بالمدينة والسورة مكية عند الجمهور وقيل مدنية. والصحيح الأول.

تنبيه

(552/8)

قد قيل أيضا إن المراد بقوله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ ، إلى آخر السورة نازل في أبي بكر رضي الله عنه لما كان يعتق ضعفة المسلمين ومن يعذبون على إسلامهم في مكة فقيل له لو اشتريت فلأياء يساعدونك ويدافعون عنك فأنزل الله الآيات إلى قوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [19/92-20]، وابتغاء وجه رب هو بعينه وصدق بالحسنى أي لوجه الله يرجو الثواب من الله.

وكما تقدم فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وإن صورة السبب قطعية الدخول فهذه بشرى عظيمة للصديق رضي الله عنه، ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ في غاية من التأكيد من الله تعالى على وعده إياه صلى الله عليه وسلم وأرضاه.

وذكر ابن كثير: أن في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير" فقال أبو بكر يا رسول الله ما على من يدعي منها ضرورة فهل يدعي منها كلها أحد "نعم وأرجو أن تكون منهم" ا هـ.

وإنا لنرجو الله كذلك فضلا منه تعالى.

تنبيه

في قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [21/92]، وذكر ابن كثير إجماع المفسرين أنها في أبي بكر رضي الله

عنه أعلى منازل البشرى، لأن هذا الوصف بعينه، قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قطعا في السورة بعدها، سورة "الضحى" ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [93/4-5]، فهو وعد مشترك للصديق وللرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنه في حق الرسول صلى الله عليه وسلم أسند العطاء فيه لله تعالى بصفة الربوبية ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ كما ذكر فيه العطاء مما يدل على غيره صلى الله عليه وسلم وهو معلوم بالضرورة من أنه صلى الله عليه وسلم لعطاءات لا يشاركه فيها أحد على ما سيأتي إن شاء الله.

(553/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 1-3].

تقدم معنى الضحى في السورة المتقدمة

وقيل المراد به هنا النهار كما في قوله ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [7/97-98]، وقوله ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ قيل: أقبل، وقيل: شدة ظلامه، وقيل: غطى، وقيل: سكن.

واختار الشيخ رحمة الله علينا وعليه في إملائه معنى سكن.

واختار ابن جرير أنه سكن بأهله، وثبت بظلامه، قال كما يقال بحر ساج، إذا كان ساكنا، ومنه قول الأعشى:

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم. . . وبحرك ساج ما يواري الدعامصا

وقول الراجز:

يا حبذا القمراء والليل الساج . . . وطرق مثل ملاء النساج

وأنشدهما القرطبي وذكر قول جرير:

ولقد رميتك يوم رحن بأعين . . . ينظرن من خلل الستور سواج

أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للمقسم عليه لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون فإنه يقول له مؤانسا ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ، لا في ليل ولا في نهار، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله

وقوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ، قرىء بالتشديد من توديع المفارق. وقرى: ﴿ مَا

(554/8)

وَدَّعَكَ ﴾ بالتخفيف من الودع أي من الترك كما قال أبو الأسود

ليت شعري عن خليل ما الذي

نما له في الحب حتى ودعه

أي تركه وقول الآخر:

وثم ودعنا آل عمرو وعامر . . . فرائس أطراف المثقفة السمر

أي تركوهم فرائس السيوف

قال أبو حيان: والتوديع مبالغة في الودع، لأن من ودعك مفارقا ، فقد بالغ في تركك ا هـ.

والقراءة الأولى أشهر وأولى، لأن استعمال ودع بمعنى ترك قليل.

قال القرطبي، وقال المبرد: لا يكادون يقولون: ودع ولا وذر، لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك،

ويدل على قول المبرد سقوط الواو في المضارع، فتقول في مضارع ودع يدع كيزن ويهب ويرث، من وزن ووهب وورث، وتقول في الأمر: دع وزن، وهب، أما ذر بمعنى اترك، فلم يأتِ منه الماضي، وجاء المضارع يذرهم، والأمر: ذرهم، فترجحت قراءة الجمهور بالتشديد من ﴿ وَدَّعَكَ ﴾ من التوديع.

وقد ذكرنا هذا الترجيح لأن ودع بمعنى ترك فيها شدة وشبه جفوة وقطيعة، وهذا لا يليق بمقام المصطفي صلى الله عليه وسلم عند ربه. أما المودعة والوداع، فقد يكون مع المودة والصلة، كما يكون بين المحبين عند الافتراق، فهو وإن وادعه بجسمه فإنه لم يودعه بحبه وعطفه، والسؤال عنه وهو ما يتناسب مع قوله تعالى ﴿وَمَا قَلَى﴾ .

تنبيه

هنا ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ بصيغة الماضي، وهو كذلك للمستقبل بدليل الواقع وبدليل ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [4/93]، لأنها تدل على مواصلة عناية الله به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيرا له من الأولى فيكون ما بين ذلك كله في عناية ورعاية ربه

وقد جاء في صلح الحديبية قال لعمر "أنا عبد الله ورسوله" ، أي تحت رحمته وفي رعايته.

(555/8)

وقوله ﴿وَمَا قَلَى﴾ ، حذف كاف الخطاب لثبوتها فيما معها فدلت عليها هكذا قال المفسرون

وقال بعضهم تركت لرأس الآية والذي يظهر من لطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف، أن المودعة تشعر بالوفاء والود، فأبرزت فيها كاف الخطاب، أي لم تتأت موادعتك وأنت الحبيب، والمصطفي قريب .

أما ﴿قَلَى﴾ : ففيها معنى البغض فلم يناسب إبرازها إمعانا في إبعاد قصده صلى الله عليه وسلم بشيء من هذا المعنى كما تقول لعزيز عليك لقد أكرمتك، وما أهنت لقد قربتك، وما أبعدت كراهية، أن تنطق بإهانته وكراهيته أو تصرح بها في حقه، والقلى يمد ويقصر هو البغض، يمد إذا فتحت القاف، ويقصر إذا كسرتها، وهو واوي ويائي، وذكر القرطبي، قال أنشد ثعلب:

أيام أم الغمر لا تقلاها . . . ولو تشاء قبلت عيناها

وقال كثير عزة

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة. . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

فالأول قال: فقلاها من الواوي، والثاني قال: مقلية من الياء، وهما في اللسان شواهد.

وقد جاء في السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويثبت دوام موالاته سبحانه لحبيبه وعنايته به وحفظه له بما كان بكاؤه به عمه، وقد قال عمه في ذلك:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم. . . حتى أوسد في التراب دفينا

وذكر ابن هشام في رعاية عمه له أنه كان إذا جن الليل وأرادوا أن يناموا، تركه مع أولاده ينامون، حتى إذا أخذ كل مضجعه، عمد عمه إلى واحد من أبنائه فأقامه، وأتى بمحمد صلى الله عليه وسلم ينام موضعه، وذهب بولده ينام مكان محمد صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان هناك من يريد به سوءا فرأى مكانه في أول ليلة ثم جاء من يريده بسوء وقع السوء بابنه وسلم محمد صلى الله عليه وسلم كما فعل الصديق رضي الله عنه عند الخروج إلى الهجرة في طريقهما إلى الغار فكان رضي الله عنه تارة يمشي أمامه صلى الله عليه وسلم وتارة يمشي وراءه فسأله صلى الله عليه وسلم عن

(556/8)

ذلك فقال: أذكر الرصيد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون وراءك فقال "أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر" قال بلى فداك أبي وأمي يا رسول الله ثم قال "إن أهلك أهلك وحدي وإن تهلك تهلك معك الدعوة" فذاك عمه في جاهلية وليس على دينه صلى الله عليه وسلم، وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: 4].

﴿ خَيْرٌ﴾ تأتي مصدرا كقوله ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [180/2] أي مالا كثيرا، وتأتي أفعل تفضيل محذوفة الهمزة وهي هنا أفعل تفضيل بدليل ذكر المقابل وذكر حرف من مما يدل على أنه سبحانه أعطاه في الدني خيرات كثيرة ولكن ما يكون له في الآخرة فهو خير وأفضل مما أعطاه في الدنيا ويوهم أن الآخرة خير له صلى الله

عليه وسلم وسلم وحده من الأولى ولكن جاء النص على أنها خير للأبرار جميعا وهو قوله تعالى﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [198/3] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الخيرية للأبرار عند الله، أي يوم القيامة بما أعد لهم كما في قوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [13/82]، وقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [5/76] .

أما بيان الخيرية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فبيان الخير في الدنيا أولا ثم بيان الأفضل منه في الآخرة أما في الدنيا المدلول عليه بأفعل التفضيل أي لدلالته على اشتراك الأمرين في الوصف وزيادة أحدهما على الآخر فقد أشار إليه في هذه السورة والتي بعدها ففي هذه السورة قوله تعالى﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [6/93] ، أي منذ ولادته ونشأته ولقد تعهده الله سبحانه من صغره فصانه عن دنس الشرك وطهره وشق صدره ونقاه وكان رغم يتمه سيد شباب قريش حيث قال عمه عند خطبته خديجة لزواجه بها فقال"فتى لا يعادله فتى من قريش حلما وعقلا وخلقا إلا رجح به"

وقوله ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [7/93–8] .

على ما سيأتي بيانه كله فهي نعم يعددها تعالى عليه وهي من أعظم خيرات الدنيا

(557/8)

من صغره إلى شبابه وكبره ثم اصطفائه بالرسالة ثم حفظه من الناس ثم نصره على الأعداء وإظهار دينه وإعلاء كلمته.

ومن الناحية المعنوية ما جاء في السورة بعدها﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [1/94–4] .

أما خيرية الآخرة على الأولى فعلى حد قوله﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [5/93]، وليس بعد

الرضى مطلب وفي الجملة فإن الأولى دار عمل وتكليف وجهاد والآخرة دار جزاء وثواب وإكرام فهي لا شك أفضل من الأولى.

قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 5] .

جاء مؤكدا باللام وسوف وقال بعض العلماء يعطيه في الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة الله، والنصر على الأعداء .

والجمهور: أنه في الآخرة، وهذا وإن كان على سبيل الإجمال، إلا أنه فصل في بعض المواضع، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [79/17] .

وجاء في السنة بيان المقام المحمود وهو الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون كما في حديث الشفاعة العظمى حين يتخلى كل نبي ويقول نفسي نفسي حتى يصلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول"أنا لها أنا لها" إلخ.

ومنها الحوض المورود وما خصت به أمته غرا محجلين يردون عليه الحوض

ومنها الوسيلة وهي منزلة رفيعة عالية لا تنبغي إلا لعبد واحد كما في الحديث"إذ سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي وسلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد واحد وأرجو أن أكون أنا هو وإذا كانت لعبد واحد فمن يستقدم عليها، وإذا رجا ربه أن تكون لطلب من الأمة طلبها له فهو مما يؤكد أنها له وإلا لما طلبها ولا ترجاها، ولا أمر بطلبها له وهو بلا شك أحق بها من جميع الخلق إذ الخلق، أفضلهم الرسل وهو صلى الله عليه وسلم مقدم عليهم في الدنيا، كما في الإسراء تقدم عليهم في الصلاة في بيت المقدس

(558/8)

ومنها الشفاعة في دخول الجنة كما في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أول من تفتح له الجنة وأن رضوانا خازن الجنة يقول له أمرت ألا أفتح لأحد قبلك

ومنها الشفاعة المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته في النار كما في الحديث"لا أرضى وأحد من أمتي في النار"

أسأل الله أن يرزقنا شفاعته ويوردنا حوضه آمين.

وشفاعته الخاصة في الخاص في عمه أبي طالب فيخفف عنه بها ما كان فيه

ومنها شهادته على الرسل وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك، وهذه بلا شك عطايا من الله العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

تنبيه

اللام في ﴿ وَلَلْآخِرَةُ ﴾ وفي ﴿ وَلَسَوْفَ ﴾ للتأكيد وليست للقسم، وهي في الأول دخلت على المبتدأ وفي الثانية المبتدأ محذوف تقديره، لأنت سوف يعطيك ربك فترضى قاله أبو حيان وأبو السعود

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ [الضحى: 6] .

تقدم بيان معنى اليتيم عند قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [8/76] .

والرسول صلى الله عليه وسلم مات أبوه وهو حمل له ستة أشهر وماتت أمه وهي عائدة من المدينة بالأبواء وعمره صلى الله عليه وسلم.

وقد قيل إن يتمه لأنه لا يكون لأحد حق عليه نقله أبو حيان.

والذي يظهر أن يتمه راجع إلى قوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ، أي ليتولى الله تعالى أمره من صغره، وتقدم معنى إيواء الله له، فكان يتمه لإبراز فضله، لأن يتيم الأمس أصبح سيد الغد، وكافل اليتامى

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾ [الضحى: 7] .

الضلال يكون حسا ومعنى فالأول كمن تاه في طريق يسلكه والثاني كمن ترك الحق فلم يتبعه

فقال قوم المراد هنا هو الأول كأن قد ضل في شعب من شعاب مكة أو في طريقه إلى الشام ونحو ذلك

وقال آخرون: إنما هو عبارة عن عدم التعليم أولا ثم منحه من العلم مما لم يكن يعلم كقوله: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا

الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [52/42].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث هذه المسألة في عدة مواضع

أولا: في سورة "يوسف" عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [8/12]، وساق شواهد الضلال لغة هناك.

وثانيا: في سورة "الكهف" عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [104/18].

وثالثا: في سورة "الشعراء" عند قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [20/26].

وفي دفع إيهام الاضطراب أيضا وهذا كله يعني عن أي بحث آخر

ومن الطريف ما ذكره أبو حيان عند هذه الآية حيث قال ولقد رأيت في النوم أني أفكر في هذه الجملة فأقول على الفور ﴿وَوَجَدَكَ﴾ : أي وجد رهطك ﴿ضَالًّا﴾ فهداه بك ثم أقول على حذف مضاف نحو ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [82/12]. اهـ. وقد أورد النيسابوري هذا وجها في الآية

وبهذه المناسبة أذكر منامين كنت رأيتهما ولم أرد ذكرهما حتى رأيت هذا لأبي حيان فاستأنست به لذكرهما وهما الأول عندما وصلت إلى سورة ن عند قوله تعالى﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [4/68]، ومن منهج الأضواء تفسير القرآن بالقرآن وهذا وصف مجمل، وحديث عائشةؓ كان خلقه القرآن" فأخذت في التفكير، كيف أفصل هذا المعنى من القرآن، وأبين حكمه وصفحه وصبره وكرمه وعطفه ورحمته

(560/8)

ورأفته وجهاده وعبادته وكل ذلك مما جعلني أقف حائرا وأمكث عن الكتابة عدة أيام فرأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في النوم كأننا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وكأنه ليس في نشاطه العادي فسألته ماذا عندك اليوم فقال: عندي تفسير، فقلت: أتدرس اليوم؟ قال: لا، فقلت: وما هذا الذي بيدك لدفتر في يده فقال مذكرة تفسير أي التي كان سيفسرها وهي مخطوطة فقلت له من أين في القرآن فقال من أول ن إلى آخر

القرآن فحرصت على أخذها لأكتب منها ولم أتجرأ على طلبها صراحة ولكن قلت له إذا كنت لم تدرس اليوم فأعطنيها أبيضها وأجلدها لك وآتيك بها غدا فأعطانيها فانتبهت فرحا بذلك وبدأت في الكتابة.

والمرة الثانية في سورة "المطففين"، لما كتبت على معنى التطفيف، ثم فكرت في التوعد الشديد عليه مع ما يتأتى فيه من شيء طفيف، حتى فكرت في أن له صلة بالربا، إذا ما بيع جنس بجنسه، فحصلت مغايرة في الكيل ووقع تفاضل، ولكني لم أجد من قال به، فرأيت فيما يرى النائم، أني مع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، ولكن لم يتحدث معي في شيء من التفسير.

وبعد أن راح عني، فإذا بشخص لا أعرفه يقول وأنا أسمع دون أن يوجه الحديث إلي إن في التطفيف ربا إذا بيع الحديد بحديد، وكلمة أخرى في معناها نسيتها بعد أن انتبهت

وقد ذكرت ذلك تأسيا بأبي حيان، لما أجد فيه من إيناس، والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يهدينا سواء السبيل، وعلى ما جاء في الرؤيا من مبشرات، وبالله تعالى التوفيق

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ [الضحى: 8].

العائل: صاحب العيال، وقيل: العائل الفقير، على أنه من لازم العيال الحاجة، ولكن ليس بلازم، ومقابلة ﴿ عَائِلًا ﴾ بأغنى، تدل على أن معنى ﴿ عَائِلًا ﴾ أي فقيرا، ولذا قال الشاعر:

فما يدري الفقير متى غناه. . . وما يدري الغنى متى يعيل

وما تدري وإن ذمرت سقبا . . . لغيرك أم يكون لك الفصيل

(561/8)

وهذا مما يذكره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من تعداد النعم عليه وأنه لم يودعه وما قلاه لقد كان فقيرا من المال فأغناه الله بمال عمه.

وقد قال عمه في خطبة نكاحه بخديجة وإن كان في المال قل فما أحببتم من الصداق فعلي ثم أغناه الله بمال

خديجة حيث جعلت مالها تحت يده.

قال النيسابوري ما نصه يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهو مغموم، فقالت مالك؟ فقال: "الزمان زمان قحط، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك، فأستحي منك، وإن أنا لم أبذل أخاف أن تغدعت قريشا وفيهم الصديق، قال الصديق: فأخرجت دنانير حتى وضعتها، بلغت مبانا لم يقع بصري على من كان جالسا قدامي، ثم قالت: اشهدوا أن هذا المال ماله، إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه

فهذه القصة وإن لم يذكر سندها فليس بغريب على خديجة رضي الله عنها أن تفعل ذلك له صلى الله عليه وسلم، وقد فعلت ما هو أعظم من ذلك، حين دخلت معه الشعب فتركت مالها، واختارت مشاركته صلى الله عليه وسلم لما هو فيه من ضيق العيش، حتى أكلوا ورق الشجر، وأموالها طائلة في بيتها

ثم كانت الهجرة وكانت مواساة الأنصار، لقد قدم المدينة تاركا ماله ومال خديجة، حتى إن الصديق ليدفع ثمن المربد لبناء المسجد، وكان بعد ذلك في فيء بني النضير، وكان يقضي الهلال ثم الهلال ثم الهلال، لا يوقد في بيته صلى الله عليه وسلم نار، إنما هما الأسودان التمر والماء.

ثم جاءت غنائم حنين، فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر، ورجع بدون شيء، وجاء مال البحرين فأخذ العباس ما يطيق حمله، وأخيرا توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة في آصع من شعير

وقوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ، يشير إلى هذا الموضع لأن ﴿ أَغْنَى ﴾ تعبير بالفعل، وهو يدل على التجدد والحدوث، فقد كان صلى الله عليه وسلم من حيث المال حالا، فحالا، والواقع أن غناه صلى الله عليه وسلم كان قبل كل شيء، هو غنى النفس والاستغناء عن الناس، ويكفي أنه صلى الله عليه وسلم أجود الناس.

وكان إذا لقيه جبريل ودارسه القرآن كالريح المرسلة، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة في

الحالتين في حالي الفقر والغنى إن قل ماله صبر وإن كثر بذل وشكر.

استغن ما أغناك ربك بالغنى. . . وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ومما يدل على عظم عطاء الله له مما فاق كل عطاء قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [87/15]، ثم قال ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [88/15].

وقد اختلفوا في المقارنة بين الفقير الصابر والغنى الشاكر ولكن الله تعالى قد جمع لرسوله صلى الله عليه وسلم كلا الأمرين ليرسم القدوة المثلى في الحالتين

تنبيه

في الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من الله لإسنادها هنا لله تعالى.

ولكن في السياق لطيفة دقيقة، وهي معرض التقرير، يأتي بكاف الخطاب ألم يجدك يتيما، ألم يجدك ضالا، ألم يجدك عائلا، لتأكيد التقرير، لم يسند اليتم ولا الإضلال ولا الفقر لله، مع أن كله من الله، فهو الذي أوقع عليه اليتم، وهو سبحانه الذي منه كلما وجده عليه ذلك لما فيه من إيلام له، فما يسنده لله ظاهرا، ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب

وفي تعداد النعم: فآوى، فهدى، فأغنى، أسند كله إلى ضمير المنعم، ولم يبرز ضمير الخطاب

قال المفسرون: لمراعاة رؤوس الآي والفواصل، ولكن الذي يظهر والله تعالى أعلم، أنه لما كان فيه امتنان، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لئلا يثقل عليه المنة، بينما أبرزه في ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [1/94–2]، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [4/94]. ورفعنا لك ذكرك لأنها نعم معنوية انفرد بها صلى الله عليه وسلم والله تعالى أعلم.

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11].

مجيء الفاء هنا مشعر إما بتفريع وهذا ضعيف، وإما بإفصاح عن تعدد، وقد ذكر الجمل بتقدير مهما يكن من شيء.

وقد ساق تعالى هنا ثلاث مسائل الأولى معاملة الأيتام فقال ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ ، أي كما آواك الله فآوه، وكما أكرمك فأكرمه.

وقالوا: قهر اليتيم أخذ ماله وظلمه.

وقيل: قرىء بالكاف "تكهر" فقالوا: هو بمعنى القهر إلا أنه أشد.

وقيل: هو بمعنى عبوسة الوجه، والمعنى أعلم كما قال صلى الله عليه وسلم "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ومن العجز والكسل ومن الجبن والبخل ومن غلبة الدين وقهر الرجال فالقهر أعم من ذلك

وبالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، والتي زادت على العشرين موضعا فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها تدور حول دفع المضار عنه وجلب المصالح له في ماله وفي نفسه، فهذه أربعة، وفي الحالة الزوجية، وهي الخامسة، أما دفع المضار عنه في ماله، ففي قوله تعالى﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ جاءت مرتين في سورة "الأنعام" [152/6] والأخرى في سورة "الإسراء" [34/17]، وفي كل من السورتين ضمن الوصايا العشر المعروفة في سورة "الأنعام"، بدأت بقوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [151/6].

وذكر قتل الولد وقربان الفواحش وقتل النفس ثم مال اليتيم ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن

ويلاحظ أن النهي منصب على مجرد الاقتراب من ماله إلا بالتي هي أحسن وقد بين تعالى التي هي أحسن بقوله ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [6/4].

وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجرا فله الأقل من أحد أمرين إما نفقته في نفسه وإما أجرته على عمله أي إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال ونفقته يكفي لها خمسمائة أخذ نفقته فقط وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط حفظا لماله.

ثم بعد النهي عن اقتراب مال اليتيم ذلك فقد تتطلع بعض النفوس إلى فوارق

بسيطة من باب التحيل أو نحوه من استبدال شيء مكان شيء فيكون طريقا لاستبدال طيب بخبيث فجاء قوله تعالى ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ [2/4].

والحوب: أعظم الذنب، ففيه النهي عن استبدال طيب ماله، بخبيث مال الولي أو غيره حسدا له على ماله، كما نهى عن خلط ماله مع مال غيره كوسيلة لأكله مع مال الغير، وهذا منع للتحيل وسد للذريعة، حفظا لماله ثم يأتي الوعيد الشديد في صورة مفزعة في قوله تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [10/4].

وقد اتفق العلماء أن الآية شملت في النهي عن أكل أموال اليتامى كل ما فيه إتلاف أو تفويت سواء كان بأكل حقيقة أو باختلاس أو بإحراق أو إغراق وهو المعروف عند الأصوليين بالإلحاق بنفي الفارق إذ لا فرق في ضياع مال اليتيم عليه بين كونه بأكل أو إحراق بنار أو إغراق في ماء حتى الإهمال فيه فهو تفويت عليه وكل ذلك حفظا لماله.

وأخيرا، فإذا تم الحفاظ على ماله لم يقربه إلا بالتي هي أحسن، ولم يبدله بغيره أقل منه، ولم يخلطه بماله ليأكله عليه، ولم يعتد عليه بأي إتلاف كان محفوظا له، إلى أن يذهب يتمه ويثبت رشده فيأتي قوله تعالى﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ [6/4].

ثم أحاط دفع المال إليه بموجبات الحفظ بقوله في آخر الآية﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ [6/4]، أي حتى لا تكون مناكرة فيما بعد.

وفي الختام ينبه الله فيهم وازع مراقبة الله بقوله﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ [6/4]، وفيه إشعار بأن أمواله تدفع إليه بعد محاسبة دقيقة فيما له وعليه

ومهما يكن من دقة الحساب فالله سيحاسب عنه وكفي بالله حسيبا وهذا كله في حفظ ماله

أما جلب المصالح، فإننا نجد فيها أولا جعله مع الوالدين، والأقربين، في عدة

(565/8)

مواطن منها قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى﴾ [215/2].

ومنها قوله إيراده في أنواع البر من الإيمان بالله وإنفاق المالى ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ [177/2]، إلى آخر الآية.

ومنها ما هو أدخل في الموضوع حيث جعل له نصيبا في التركة في قوله ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [8/4]، بصرف النظر عن مباحث الآية من جهات أخرى ومرة أخرى يجعل لهم نصيبا فيما هو أعلى منزلة في قوله تعالى﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ الآية[41/8].

وكذلك في سورة الحشر في قوله تعالى ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية[7/59].

فجعلهم الله مع ذي القربي من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جعله الله في عموم وصف الأبرار وسببا للوصول إلى أعلى درجات النعيم في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [5/76].

وذكر أفعالهم التي منها أنهم﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [7/76]، ثم بعدها أنهم ﴿ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [8/76].

وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة في قوله﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [11/90–15].

ولقد وجدنا ما هو أعظم من ذلك وهو أن يسوق الله الخضر وموسى عليهما السلام ليقيما جدارا ليتيمين على كنز لهما حتى يبلغا أشدهما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [82/18].

(566/8)

هذا هو الجانب المالي من دفع المضرة عنه في حفظ ماله ومن جانب جلب النفع إليه عن طريق المال

أما الجانب النفسي فكالآتي:

أولا: عدم مساءته في نفسه فمنها قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [3-1/107].

ومنها قوله: ﴿ كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [18-17/89] فقدم إكرامه إشارة له.

ثانيا: في الإحسان إليه، منه قوله تعالى: ﴿ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ [83/2]، فيحسن إليه كما يحسن لوالديه ولذي القربى

ومنها سؤال، وجوابه من الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [220/2]، أي تعاملونهم كما تعاملون الإخوان، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف، ولذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ .

وفي تقديم ذكر المفسد على المصلح إشعار لشدة التحذير من الإفساد في معاملته ولأنه محل التحذير في موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد في قوله: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [9/4].

أي حتى في مخاطبتهم إياهم لأنهم بمنزلة أولادهم بل ربما كان لهم أولاد فيما بعد أيتاما من بعدهم فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاما من بعدهم فليحسنوا معاملة الأيتام في أيديهم وهذه غاية درجات الحق والرعاية.

تلك هي نصوص القرآن في حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه مما يفصل مجمل قوله﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [9/93].

لا بكلمة غير سديدة ولا بحرمانه من شيء يحتاجه، ولا بإتلاف ماله، ولا بالتحيل على أكله وإضاعته، ولا بشيء بالكلية، لا في نفسه ولا في ماله.

(567/8)

والأحاديث من السنة على ذلك عديدة بالغة مبلغها في حقه وكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس به وأشفقهم عليه حتى قال: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين" يشير إلى السبابة والوسطى وفرج بينهما رواه البخاري وأبو داود والترمذي

وفي رواية أبي هريرة عند مسلم ومالك "كافل اليتيم له أو لغيره" أي قريب له أو بعيد عنه

وعند أحمد والطبراني مرفوعا "من ضم يتيما من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه وجبت له الجنة" قال المنذري رواه أحمد محتج بهم إلا علي بن زيد.

وعند ابن ماجه عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه"

وجاء عند أبي داود ما هو أبعد من هذا وذلك حتى إن الأم لتعطل مصالحها من أجل أيتامها في قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة" وأومأ بيده يزيد بن زريع بفتح الزاي وإسكان الباء بالوسطى والسبابة "امرأة آمت زوجها" بألف ممدودة وميم مفتوحة وتاء "أصبحت أيما بوفاة زوجها ذات

منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا" .

وجعله الله دواء لقساوة القلب كما روى أحمد ورجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال "امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين" .

وهنا يتجلى سر لطيف في مثالية التشريع الإسلامي حيث يخاطب الله تعالى أفضل الخلق وأرحمهم وأرأفهم بعباد الله الموصوف بقوله تعالى ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [128/9]، وبقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [4/68]، ليكون مثالا مثاليا في أمة قست قلوبها وغلظت طباعها فلا يرحمون ضعيفا، ولا يؤدون حقا إلا من قوة يدينون لمبدأ "من عز بز ومن غلب استلب" يفاخرون بالظلم ويتهاجون بالأمانة كما قال شاعرهم:

قبيلة لا يحفرون بذمة . . . ولا يظلمون الناس حبة خردل

ويقول حكيمهم:

(568/8)

ويقول حكيمهم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه . . . يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

قوم يئدون بناتهم ويحرمون من الميراث نساءهم يأكلون التراث أكلا لما ويحبون المال حبا فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم فألان قلوبهم ورقق طباعهم فلانوا مع هذا الضعيف وحفظوا حقه.

وحقيقة هذا التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنا تأتي فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها مما يحقق كمال التكامل الاجتماعي بأبهى معانيه، المنوه عنه في الآية الكريمة ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [9/4]، فجعل كافل اليتيم اليوم إنما يعمل حتى فيما بعد لو ترك ذرية ضعافا وعبر هنا عن الأيتام بلازمهم وهو الضعف إبرازا لحاجتهم إلى

الإحسان، بسبب ضعفه فيكونون موضع خوفهم عليهم لضعفهم، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم

وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلا اجتماعيا في كفالة اليتيم، بل إن اليتيم نفسه، فإنه يتيم اليوم ورجل الغد، فكما تحسن إليه يحسن هو إلى أيتامك من بعدك، وكما تدين تدان، فإن كان خيرا كان الخير بالخير، والبادىء أكرم، وإن شرا كان بمثله، والبادىء أظلم

ومع هذا الحق المتبادل فإن الإسلام يحث عليه ويعني به، ورغب في الإحسان إليه، وأجزل المثوبة عليه، وحذر من الإساءة عليه، وشدد العقوبة فيه

وقد يكون فيما أوردناه إطالة ولكنه وفاء بحق اليتيم أولا، وتأثر بكثرة ما يلاقيه اليتيم ثانيا

تنبيه

ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه بل ذلك من مصلحته كما قيل

قسا ليزدجروا ومن يك حازما . . . فليقس أحيانا على من يرحم

وقوله ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ، قالوا: السائل الفقير والمحتاج، يسأل ما يسد حاجته وهو مقابل لقوله ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ، أي فكما أغناك الله وبدون سؤال،

(569/8)

فإذا أتاك سائل فلا تنهره ولو في رد الجواب بالتي هي أحسن

ومعلوم أن الجواب بلطف، قد يقوم مقام العطاء في إجابة السائل، وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يعطيه للسائل يعده وعدا حسنا لحين ميسره أخذا من قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ [28/17] .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيتين عند هذه الآية في هذا المعنى هما قول الشاعر

إن لم تكن ورق يوما أجود بها . . . للسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي. . . إما نوالي وإما حسن مردود

فليسعد النطق إن لم يسعد المال.

وقيل السائل المستفسر عن مسائل الدين والمسترشد ، وقالوا هذا مقابل قوله ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ، أي لا تنهر مستغنيا ولا مسترشدا ، كقوله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ [80/1-2] .

وقد كان صلى الله عليه وسلم رحيما شفيقا على الجاهل حتى يتعلم، كما في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد حين صاح به الصحابة فقال لهم "لا تزرموه" إلى أن قال الأعرابي: اللهم ارحمني وارحم محمدا ولا ترحم معنا أحدا أبدا" وكالآخر الذي جاء يضرب صدره وينتف شعره ويقول هلكت وأهلكت واقعت أهلي في رمضان حتى كان من أمره أن أعطاه فرقا من طعامه يكفر به عن ذنبه فقال أعلى أفقر منا يا رسول الله فقال: "قم فأطعمه أهلك"

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقف للمرأة في الطريق يصغي إليها حتى يضيق من معه وهو يصبر لها ولم ينهرها بل يجيبها على أسئلتها.

وقد حث صلى الله عليه وسلم على إكرام طالب العلم وبين أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وأن الحيتان في البحر لتستغفر له رضي بما يصنع

وقوله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ : النعمة كل ما أنعم الله به على العبد ، وهي كل ما ينعم به العبد من مال وعافية وهداية ونصرة من النعومة اللين، فقيل المراد بها

(570/8)

المذكورات والتحدث بها شكرها عليها من إيواء اليتيم كما آواه الله وإعطاء السائل كما أغناه الله وتعليم المسترشد كما علمه الله وهذا من شكر النعمة أي كما أنعم الله عليك فتنعم أنت على غيرك تأسيا بفعل الله

معك.

وقيل: التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث والنعمة هنا عامة لتنكيرها لإضافتها كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [53/16]، أي كل نعمة ولكن الذي يظهر أنها في الوحي أظهر أو هو أولى بها أو هو أعظمها لقوله تعالى﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [3/5]، فقال: ﴿ نعمتي ﴾ ، وهنا ﴿ نِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ . ولا يبعد عندي أن يكون صلى الله عليه وسلم إنما نحر مائة ناقة في حجة الوداع، لما أنزل الله عليه هذه الآية، ففعل شكرا لله على إتمام النعمة بإكمال الدين.

وقد قالوا في مناسبة هذه السورة بما قبلها: إن التي قبلها في الصديق: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [92/17–21]، وهنا في الرسول صلى الله عليه وسلم﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [93/3–5]، مع الفارق الكبير في العطاء والخطاب

والواقع أن مناسبات السور القصار أظهر من مناسبات الآي في السورة الواحدة كما بين هاتين السورتين ﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ مع ﴿ وَالضُّحَى﴾ ثم ما بين ﴿ وَالضُّحَى﴾ و ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ، إنها تتمة النعم التي يعددها الله تعالى على رسوله، وهكذا على ما ستأتي الإشارة إليه في محله إن شاء الله تعالى

أعلم علما بأن بعض العلماء لم يعتبر تلك المناسبات ولكن ما كانت المناسبة فيه واضحة فلا ينبغي إغفاله وما كانت خفية لا ينبغي التكلف له

(571/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشرح

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 1-4].

ذكر تعالى هنا ثلاث مسائل: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر.

وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام فهو استفهام تقريري لتقرير الإثبات فقوله تعالى﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمعنى شرحنا على المبدأ المعروف من أن نفي النفي إثبات وذلك لأن همزة الاستفهام وهي فيها معنى النفي دخلت على لم وهي للنفي فترافعا فبقي الفعل مثبتا قالوا ومثله قوله تعالى﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [36/39] وقوله ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ [18/26].

وعليه قول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا . . . وأندى العالمين بطون راح

فتقرر بذلك أنه تعالى يعدد عليه نعمه العظمى وقد ذكرنا سابقا ارتباط هذه السورة بالتي قبلها في تتمة نعم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم

وروى النيسابوري عن عطاء وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان هذه السورة وسورة "الضحى" سورة واحدة وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسملة الرحمان الرحيم والذي دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ كالعطف على قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً﴾ [6/93]، ورد هذا الادعاء -أي من كونهما سورة واحدة- وعلى كل فإن هذا إذا لم يجعلهما سورة واحدة فإنه يجعلهما مرتبطتين معا في المعنى كما في "الأنفال" و"التوبة".

(572/8)

واختلف في معنى شرح الصدر إلا أنه لا منافاة فيما قالوا وكلها يكمل بعضها بعضا

فقيل: هو شق الصدر سواء كان مرة أو أكثر، وغسله وملؤه إيمانا وحكمة، كما في رواية مالك بن صعصعة في

ليلة الإسراء، ورواية أبي هريرة في غيرها.

وفيه كما في رواية أحمد: أنه شق صدره وأخرج منه الغل والحسد في شيء كهيئة العلقة وأدخلت الرأفة والرحمة.

وقيل: شرح الصدر: إنما هو توسيعه للمعرفة والإيمان ومعرفة الحق، وجعل قلبه وعاء للحكمة

وفي البخاري عن ابن عباس "شرح الله صدره للإسلام"

وعند أبي كثير نورنا موجعلناه فسيحا رحيبا واسعا كقوله﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [125/6].

والذي يشهد له القرآن أن الشرح هو الانشراح والارتياح، وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة كما في قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [22/39]، فقوله ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ، بيان لشرح الصدر للإسلام

كما أن ضيق الصدر، دليل على الضلال، كما في نفس الآية﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ الآية[125/6].

وفي حاشية الشيخ زادة علي البيضاوي قال لم يشرح صدر أحد من العالمين كما شرح صدره عليه السلام حتى وسع علوم الأولين والآخرين فقال "أوتيت جوامع الكلم" ا هـ.

ومراده بعلوم الأولين والآخرين ما جاء في القرآن من أخبار الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار عاد وما بينه وبين ذلك مما علمه الله تعالى

والذي يظهر والله تعالى أعلم، أن شرح الصدر الممتن به عليه صلى الله عليه وسلم، أوسع وأعم

من ذلك حتى إنه ليشمل صبره وصفحه وعفوه عن أعدائه ومقابلته الإساءة بالإحسان حتى إنه ليسع العدو كما يسع الصديق.

كقصة عودته من ثقيف إذ آذوه سفهاؤهم حتى ضاق ملك الجبال بفعلهم وقال له جبريل إن ملك الجبال معي إن أردت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من ذلك ولكأنهم لم يسيؤوا إليه فيقول "اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله" .

وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة ولذا توجه نبي الله موسى إلى ربه يطلبه إياها لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ [20/24-31] . إلى آخر السياق

فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل بدأها بشرح الصدر ثم تيسير الأمر وهذان عاملان ذاتيان ثم الوسيلة بينه وبين فرعون وهو اللسان في الإقناع ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ ، ثم العامل المادي أخيرا في المؤازرة ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ ، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته لأنه به يقابل كل الصعاب، ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم

وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي كقوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [7/199]، وكقوله: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [3/134]، مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره.

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر، وفعلا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة، وتلقى كل ذلك بصدر رحب.

وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله أن يكون رحب الصدر هادىء النفس متجملا بالصبر

وقوله ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [2/94]، والوضع يكون للحط والتخفيف ويكون للحمل والتثقيل فإن عدي بعن كان للحط وإن عدي بعلى كان للحمل في قولهم وضعت عنك ووضعت عليك والوزر لغة الثقل.

ومنه ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: ثقلها من سلاح ونحوه.

ومنه: الوزير المتحمل ثقل أميره وشغله وشرعا الذنب كما في الحديث: "ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة" ، وقد يتعاوران في التعبير كقوله تعالى﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ [25/16]، وقوله مرة أخرى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [13/29].

وقد أفرد لفظ الوزر هنا، وأطلق، ولم يبين ما هو وما نوعه، فاختلف فيه اختلافا كثيرا

فقيل: ما كان فيه من أمر الجاهلية وحفظه من مشاركته معهم فلم يلحقه شيء منه

وقيل: ثقل تألمه مما كان عليه قومه ولم يستطع تغييره وشفقته صلى الله عليه وسلم بهم أي كقوله تعالى﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [6/18]، أي أسفا عليهم.

وقال أبو حيان: هو كناية عن عصمته صلى الله عليه وسلم من الذنوب وتطهيره من الأرجاس

وقال ابن جرير: وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها.

وقال ابن كثير: هو بمعنى ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾

فكلام أبي حيان يدل على العصمة وكلام ابن جرير يدل على شيء في الجاهلية وكلام ابن كثير مجمل

(575/8)

وفي هذا المجال مبحث عصمة الأنبياء عموما وهو مبحث أصولي يحققه كتب الأصول لسلامة الدعوة وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ

فَغَوَى﴾ [121/20]، وأورد كلام المعتزلة والشيعة والحشوية ومقياس ذلك عقلا وشرعا وفي سورة ص عند قوله تعالى ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ [24/38]، ونبه عندها على أن كل ما يقال في داود عليه السلام حول هذا المعنى كله إسرائيليات لا تليق بمقام النبوة اهـ

أما في خصوصه صلى الله عليه وسلم فإنا نورد الآتي: إنه مهما يكن من شيء فإن عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر والصغائر بعد البعثة يجب القطع بها لنص القرآن الكريم في قوله تعالى﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [21/33]، لوجوب التأسي به وامتناع أن يكون فيه شيء من ذلك قطعا

أما قبل البعثة فالعصمة من الكبائر أيضا يجب الجزم بها لأنه صلى الله عليه وسلم كان في مقام التهيؤ للنبوة من صغره وقد شق صدره في سن الرضاع وأخرج منه حظ الشيطان ثم إنه لو كان قد وقع منه شيء لأخذوه عليه حين عارضوه في دعوته ولم يذكر من ذلك ولا شيء فلم يبق إلا القول في الصغائر، فهي دائرة بين الجواز والمنع، فإن كانت جائزة ووقعت فلا تمس مقامه صلى الله عليه وسلم، لوقوعها قبل البعثة والتكليف، وأنها قد غفرت وحط عنه ثقلها، فإن لم تقع ولم تكن جائزة في حقه، فهذا المطلوب

وقد ساق الألوسي رحمه الله في تفسيره أن عمه أبا طالب قال لأخيه العباس يوما لقد ضمته إلي ولا فارقته ليلا ولا نهارا ولا ائتمنت عليه أحدا وذكر قصة بنبيه ومنامه في وسط أولاده أول الليل ثم نقله أباه محل أحد أبنائه حفاظا عليه ثم قال: ولم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون

وذكرت كتب التفسير أنه صلى الله عليه وسلم أراد مرة في صغره أن يذهب لمحل عرس ليرى ما فيه فلما دنا منه أخذه النوم ولم يصح إلا على حر الشمس فصانه الله من رؤية أو سماع شيء من ذلك

ومنه قصة مشاركته في بناء الكعبة حين تعرى ومنع منه حالا، وعلى المنع من وقوع شيء منه صلى الله عليه وسلم بقي الجواب على معنى الآية فيما والله تعالى أعلم، إنه تكريم له صلى الله عليه وسلم كما

جاء في أهل بدر قوله صلى الله عليه وسلم"لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم مع أنهم لن يفعلوا محرما بذلك ولكنه تكريم لهم ورفع لمنزلتهم

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتوب ويستغفر ويقوم الليل حتى تورمت قدماه وقال "أفلا أكون عبدا شكورا" .

فكان كل ذلك منه شكرا لله تعالى ورفعا لدرجاته صلى الله عليه وسلم

وقد جاء "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" وهو حسنة من حسناته صلى الله عليه وسلم

أو أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتد على نفسه بالتقصير ويعتبر ذنبا يستثقله ويستغفر منه كما كان إذا خرج من الخلاء قال: "غفرانك" .

ومعلوم أنه ليس من موجب للاستغفار إلا ما قيل شعوره بترك الذكر في تلك الحالة استوجب منه ذلك

وقد استحسن العلماء قول الجنيد حسنات الأبرار سيئات المقربين أو أن المراد بها ما جاء في القرآن من بعض اجتهاداته صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الدعوة فيرد اجتهاده فيعظم عليه، كقصة ابن أم مكتوم وعوتب فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ الآية [80/1-2]، ونظيرها ولو كان بعد نزول هذه السورة إلا أنه من باب واحد كقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [9/43]، وقصة أسارى بدر، وقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [3/128]، واجتهاده في إيمان عمه حتى قيل له ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [28/56]، ونحو ذلك فتحمل الآية عليه أو أن للوزر بمعناه اللغوي وهو ما كان قبل من أعباء الدعوة وتبليغ الرسالة كما ذكر ابن كثير في سورة "الإسراء" عن الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة فظعت، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلا حزينا، فمر بي أبو جهل" فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ، هل كان من شيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "نعم" وقص عليه الإسراء.

ففيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم فظع، والفظاعة ثقل وحزن، والحزن ثقل. وتوقع تكذيبهم إياه أثقل على النفس من كل شيء، والله تعالى أعلم

وقوله تعالى ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ، أي ثقله مشعر بأن للذنب ثقلا على المؤمن ينوء به ولا يخففه إلا التوبة وحطه عنده.

وقوله ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره، والرفع يكون حسيا ويكون معنويا، فاختلف في المراد به أيضا.

فقيل: هو حسي في الأذان والإقامة، وفي الخطب على المنابر وافتتاحيات الكلام في الأمور الهامة واستدلوا لذلك بالواقع فعلا، واستشهدوا بقول حسان رضي الله عنه وهي أبيات في ديوانه من قصيدة دالية أغر عليه للنبوة خاتم . . . من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه . . . إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله . . . فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن رفع الذكر معنى أي من الرفعة ذكره صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء قبله حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه.

وقد نص القرآن أن الله جعل الوحي ذكرا له ولقومه، في قوله تعالى ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [43/43–44]، ومعلوم أن ذكره قومه ذكر له كما قال الشاعز

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب . . . كما علت برسول الله عدنان

فتبين أن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم إنما هو عن طريق الوحي سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ [41/5] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [64/8]، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [1/74]، والتصريح باسمه في مقام الرسالة ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ [29/48]، أو كان في فروع التشريع كما تقدم في أذان وإقامة وتشهد وخطب وصلاة عليه صلى الله عليه وسلم والله تعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 8] .

النصب: التعب بعد الإجتهاد، كما في قوله﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [88/2-3] .

(578/8)

وقد يكون النصب للدنيا أو للآخرة، ولم يبين المراد بالنصب في أي شيء، فاختلف فيه، ولكنها أقوال متقاربة

فقيل: في الدعاء بعد الفراغ من الصلاة

وقيل: في النافلة من الفريضة والذي يشهد له القرآن، أنه توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من حظ الدنيا، كما في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [79/17]، وقوله ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [6/73]، أي لأنها وقت الفراغ من عمل النهاء وفي سكون الليل وقوله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [1/110-3]، فيكون وقته كله مشغولا، إما للدنيا وإما للدين وفي قوله ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ ، حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العالم حيث لم تترك للمسلم فراغا في وقته، لأنه إما في عمل للدنيا وإما في عمل للآخرة

وقد روي عن ابن عباس أنه مر على رجلين يتصارعان فقال لهما ما بهذا أمرنا بعد فراغنا.

وروي عن عمر أنه قال: إني لأكره لأحدكم أن يكون خاليا سبهللا، لا في عمل دنيا ولا دين ولهذا لم يشك الصدر الأول فراغا في الوقت.

ومما يشير إلى وضع الصدر الأول ما رواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال قلت لعائشة رضي الله عنها وأنا يومئذ حديث السن أرأيت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [158/2]، فما على الرجل شيء ألا يطوف بهما، فقالت عائشة

كلا لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه ألا يطوف بهما

فانظر رحمك الله وإياي فيم يفكر حديث السن، وكيف يستشكل معاني القرآن، فمثله لا يوجد عنده فراغ

(579/8)

تنبيه

ذكر الألوسي في قوله تعالى ﴿ فَانْصَبْ ﴾ قراءة شاذة بكسر الصاد وأخذها الشيعة على الفراغ من النبوة ونصب علي إماما وقال ليس الأمر متعينا بعلي فالسني يمكن أن يقول فانصب أبا بكر فإن احتج الشيعي بما كان في غدير خم احتج السني بأن وقته لم يكن وقت الفراغ من النبوة

بلى إن قوله صلى الله عليه وسلم "مروا أبا بكر فليصل بالناس" كان بعده وفي قرب فراغه صلى الله عليه وسلم من النبوة إذ كان في مرضه الذي مات فيه

فإن احتج الشيعي بالفراغ من حجة الوداع رده السني بأن الآية قبل ذلك، انتهى

وعلى كل إذا كان الشيعة يحتجون بها فيكفي لرد احتجاجهم أنها شاذة وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند علماء التفسير، وهو صرف اللفظ عن ظاهره، لا لقرينة صارفة ولا علاقة رابطة ومن اللعب في التأويل في هذه الآية ما يفعله بعض العوام رأيت رجلا عاميا عاديا، قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب صقيل وحزام جميل مما يسمونه نصبة، أي بدلة كاملة، فقال له رجل ما هذه النصبة يا فلان ؟ فقال له: لما فرغت من عملي نصبت، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ .

كما سمعت آخر يوجع لقلة ما في يده ويقول لزميله ألا تعرف لي شخصا أنصب عليه، أي آخذ قرضة منه، فقلت له: ولم تنصب عليه ؟ والنصب كذب وحرام فقال إذا لم يكن عند الإنسان شيء، ويده خالية فلا بأس، لأن الله قال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ . وهذا وأمثاله مما يتجرأ عليه العامة، لجهلهم أو أصحاب الأهواء لنحلهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 8] .

التقديم هنا مشعر بالتخصيص وهو كقوله تعالى﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [5/1]، أي لا نعبد غيرك، وهكذا هنا لا ترغب إلى غيره سبحانه، كأنه يقول: الذي أنعم عليك بكل ما تقدم، هو الذي ترغب إليه عنده لا سواه .

(580/8)

المجلد التاسع

سورة التين

. . .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التين

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ .

التين هو الثمرة المعروفة التي لا عجم لها ولا قشرة والزيتون هو كذلك الثمرة التي منها الزيت وطور سينين هو جبل الطور الذي ناجى موسى عنده ربه والبلد الأمين هو مكة المكرمة والواو للقسم

وقد اختلف في المراد بالمقسم به في الأول والثاني التين والزيتون واتفقوا عليه في الثالث والرابع على ما سيأتي

أما التين والزيتون فمن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما الثمرتان المعروفتان وهو قول عكرمة والحسن ومجاهد كلهم يقول التين تينكم الذي تأكلون والزيتون زيتونكم الذي تعصرون

وعن كعب التين مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس وكذا عن قتادة وأرادوا منابت التين والزيتون بقرينة الطور والبلد الأمين على أن منبت التين والزيتون لعيسى وطور سنيين لموسى والبلد الأمين لمحمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن حمل التين والزيتون على منابتهما لا دليل عليه فالأولى إبقاؤهما على أصلهما ويشهد لذلك الآتي

أولا التين قالوا إنه أشبه ما يكون من الثمار بثمر الجنة إذ لا عجم له ولا قشر وجاء عنه في السنة أنه صلى الله عليه وسلم أهدى له طبق فيه تين فأكل منه ثم قال لأصحابه"فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس"ذكره النيسابوري ولم يذكر من خرجه وذكره ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد قائلا ويذكر عن أبي الدرداء أهدي إلى

النبي صلى الله عليه وسلم، طبق من تين، وساق النص المتقدم، ثم قال وفي ثبوت هذا نظر.

وقد ذكر المفسرون وابن القيم وصاحب القاموس للتين خواص وقالوا إنها مما تجعله محلا للقسم به وجزم ابن القيم أنه المراد في السورة.

ومما ذكروا من خواصه قالوا إنه يجلو رمل الكلى والمثانة ويؤمن من السموم وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ويغسل الكبد والطحال وينقي الخلط البلغمي من المعدة ويغذي البدن غذاء جيدا ويابسه يغذي وينفع العصب.

وقال جالينوس وإذا أكل مع الجوز والسذاب قبل أخذ السم القاتل نفع وحفظ من الضرر وينفع السعال المزمن ويدر البول ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ولأكله على الريق منفعة عجيبة

وقال ابن القيم لما لم يكن بأرض الحجاز والمدينة لم يأت له ذكر في السنة ولكن قد أقسم الله به في كتابه لكثرة منافعه وفوائده.

والصحيح أن المقسم به هو التين المعوف اه.

وكما قال ابن القيم رحمة الله لم يذكر في السنة لعدم وجوده بالحجاز والمدينة فكذلك لم يأت ذكره في القرآن قط إلا في هذا الموضع ولم يكن من منابت الحجاز والمدينة لمنافاة جوه لجوها وهو وإن وجد أخيرا إلا أنه لا يجود فيها جودته في غيرها.

فترجح أن المراد بالتين هو هذا المأكول كما جاء عمن سمينا ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن

أما الزيتون فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في المقدمة أن من أنواع البيان إذا اختلف في المعنى المراد وكان مجيء أحد المعنيين أو المعاني المحتملة أكثر في القرآن فإنه يكون أولى بحمل اللفظ عليه.

وقد جاء ذكر الزيتون في القرآن عدة مرات مقصودا به تلك الشجرة المباركة فذكر في ضمن الأشجار خاصة في قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99]، وسماها بذاتها في قوله تعالى من سورة المؤمنين ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ

بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:20] وذكرها مع النحل والزرع في عبس في قوله تعالى ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ [عبس:27-29] وذكر من أخص خصائص الأشجار في قوله في سورة النور في المثل العظيم المضروب ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور:35]. فوصفها بالبركة ووصف زيتها بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، وأختيارها لهذا المثل العظيم يجعلها أهلا لهذا القسم العظيم هنا.

أما طور سينين فأكثرهم على أنه جبل الطور الذي ناجى الله موسى عنده كما جاء في عدة مواطن وذكر الطور فيها للتكريم وللقسم فمن ذكره للتكريم قوله تعالى ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم:52] ومن ذكره للقسم به قوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور:1-2].

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الطور قوله وقد أقسم الله بالطور في قوله تعالى﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:1-2] اهـ.

أما البلد الأمين فهو مكة لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران:97]، فالأمين بمعنى الأمن أي من الأعداء أن يحاربوا أهله أو يغزوهم كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:67] والأمين بمعنى أمن جاء في قول الشاعر:

ألم تعلمي يا اسم ويحك أنني . . . حلفت يمينا لا أخون أميني

يريد :آمني .

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

وهذا هو المقسم عليه والتقويم التعديل كما في قوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ [الكهف:1-2] وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حسا ومعنى أي شكلا وصورة وإنسانية وكلها من آيات القدرة ودلالة البعث

وروى عن علي رضي الله عنه

دواؤك منك ولا تشعر . . . ودواؤك منك ولا تبصر

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

ونزعم أنك جرم صغير . . . وفيك انطوى العالم الكبير

وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نطفة فعلقة إلى آخره في أكثر من موضع كما في قوله ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة:37-40] .

وكذلك في هذه السورة التنبيه على البعث بقوله ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ .

أما الجانب المعنوي فهو الجانب الإنساني وهو المتقدم في قوله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس:7] على ما قدمنا هناك من أن النفس البشرية هي مناط التكليف وهو الجانب الذي به كان الإنسان إنسانا وبهما كان خلقه في أحسن تقويم ونال بذلك أعلى درجات التكريم ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الاسراء:70] .

والإنسان وإن كان لفظا مفردا إلا أنه للجنس بدلالة قوله ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التين:5-6] وهذا مثل ما في سورة ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر:1-3] فباستثناء الجمع منه علم أن المراد به الجنس

والتأكيد بالقسم المتقدم على خلق الإنسان في أحسن تقويم يشعر أن المخاطب منكر لذلك مع أن هذا أمر ملموس محسوس لا ينكره إنسان .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب على ذلك بأن غير المنكر إذا ظهرت عليه علامات الإنكار عومل معاملة المنكر كقول الشاعز

جاء شقيق عارضا رمحه . . . وإن بني عمك فيهم رماح

وأمارات الإنكار على المخاطبين إنما هي عدم إيمانهم بالبعث لأن العاقل لو تأمل خلق الإنسان لعرف منه أن القادر على خلقه في هذه الصورة، قادر على بعثه

وهذه المسألة أفردها الشيخ في سورة الجاثية بتنبيه على قوله تعالى ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:4] وتكرر هذا البحث في عدة مواضع وأصرح دلالة على هذا المعنى ما جاء في آخر يس ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ

خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:78-79] .

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ .

قيل رد إلى الكبر والهرم وضعف الجسم والعقل

إن الثمانين وبلغتها . . . قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس:68] .

وذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا القول وساق معه قوله ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:54] وساق آية التين هذه ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وقال على أحد التفسيرين وقوله ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج:5] وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رواه ابن جرير.

وقيل رد إلى النار بسبب كفره وهذا مروي عن مجاهد والحسن

وقد رجح ابن جرير المعنى الأول وهو كما ترى ما يشهد للقرآن في النصوص التي قدمنا واستدل لهذا الوجه من نفس السورة وذلك لأن الله تعالى قال في آخرها﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي بعد هذه الحجج الواضحة وهي بدء خلق الإنسان وتطوره إلى أحسن أمره ثم رده إلى أحط درجات العجز أسفل سافلين وهذا هو المشاهد لهم يحتج به عليهم.

أما رده إلى النار فأمر لم يشهده ولم يؤمنوا به فلا يصلح أن يكون دليلا يقيمه عليهم لأن من شأن الدليل أن ينقل من المعلوم إلى المجهول والبعث هو موضع إنكارهم فلا يحتج عليهم لإثبات ما ينكرونه بما ينكرونه وهذا الذي ذهب إليه واضح.

ومما يشهد لهذا الوجه أن حالة الإنسان هذه في نشأته من نطفة فعلقة فطفلا فغلاما فشيخا فهرم وعجز جاء مثلها في النبات وكلاهما من دلائل البعث كما في قوله ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى قوله: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ

وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد:20].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:21].

فكذلك الإنسان لأنه كالنبات سواء كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:17-18].

ويكون الاستثناء ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنهم لا يصلون إلى حالة الخوف وأرذل العمر لأن المؤمن مهما طال عمره فهو في طاعة وفي ذكر الله فهو كامل العقل وقد تواتر عند العامة والخاصة أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته لا يصاب بالخرف ولا الهذيان.

وقد شاهدنا شيخ القراء بالمدينة المنورة للشيخ حسن الشاعر لا زال على قيد الحياة عند كتابة هذه الأسطر تجاوز المائة بكثير وهو لا يزال يقرئ تلاميذه القرآن ويعلمهم القراءات العشر وقد يسمع لأكثر من شخص يقرءون في أكثر من موضع وهو يضبط على الجميع

وقد روى الشوكاني مثله عن ابن عباس أنه قال ذلك

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أي غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم

وعلى الأول فالأجر هو الثواب إما بدوام أعمالهم لكمال عقولهم وإما بأن الله يأمر الملائكة أن تكتب لهم من الأجر ما كانوا يعلمونه في حال قوتهم من صيام وقيام وتصدق من كسبهم ونحو ذلك للأحاديث في حق المريض والمسافر فيظل ثواب أعمالهم مستمرا عليهم غير مقطوع

وعلى الثاني فيكون الأجر هو النعيم في الجنة يعطونه ولا يمن به عليهم ولا يقطع عنهم كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد:35].

تنبيه

وهنا وجهة نظر من وجهين وجه خاص وآخر عام

أما الخاص فإن كلمة ﴿ رَدَدْنَاهُ ﴾ فالرد يشعر إلى رد لأمر سابق والأمر السابق هو خلق الإنسان في أحسن تقويم وأحسن تقويم شامل لشكله ومعناه أي جسمه وإنسانيته فرده إلى أسفل سافلين يكون بعدم الإيمان كالحيوان بل هو في تلك الحالة أسفل دركا من الحيوان وأشرس نفسا من الوحش فلا إيمان يحكمه ولا إنسانية تهذبه فيكون طاغية جبارا يعيث في الأرض فسادا وعليه يكون الاستثنا ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فبإيمانهم وعملهم الصالحات يترفعون عن السفالة ويرتفعون إلى الأعلى ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

والوجهة العامة وهي الشاملة لموضوع السورة من أولها ابتداء من ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وما معه في القسم إلى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [التين:4–6] .

فإنه إن صح ما جاء في قصة آدم في قوله ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [طه:121] روى المفسرون أن آدم لما بدت له سوأته ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من الورق ليستر نفسه وكلما جاء شجرة زجرته ولم تعطه حتى مر بشجرة التين فأعطته فأخلفها الله الثمرة مرتين في السنة وكافأها بجعل ثمرتها باطنها كظاهرها لا قشر لها ولا عجم

وقد روى الشوكاني في أنها شجرة التين التي أخذ منها الورق فقال وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه قال وأخرج الفريابي وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال: كان لباس آدم وحواء كالظفر وذكر الأثر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ قال: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوأتهما.

وبهذا النقل يكون ذكر التين هنا مع خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده أسفل سافلين إلا الذين آمنوا سر

لطيف جدا وهو إشعار الإنسان الآن أن جنس الإنسان كله بالإنسان الأول أبي البشر وقد خلقه الله في أحسن حالة حسا ومعنى حتى رفعه إلى

منزلة إسجاد الملائكة له وسكناه الجنة فهي أعلى منزلة التكريم وله فيها أنه لا يجوع ولا يعرى لا يظمأ فيها ولا يضحى وظل كذلك على ذلك إلى أن أغواه الشيطان ونسي عهد ربه إليه ووقع فيما وقع فيه وكان له ما كان فدلاهما بغرور وانتقلا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين فنزل إلى الأرض يحرث ويزرع ويحصد ويطحن ويعجن ويخبز حتى يجد لقمة العيش فهذا خلق الإنسان في أحسن تقويم ورده أسفل سافلين.

وهذا شأن أهل الأرض جميعا، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ برجوعهم إلى الجنة كما رجع إليها آدم بالتوبة ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:37] ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122].

وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمنا كصورة الآمن في الجنة فإن امتثلوا وأطاعوا تعموا بهذا الأمن وإن تمردوا وعصوا فيخرجون منها ويحرمون أمنها

وهكذا تكون السورة ربطا بين الماضي والحاضر وانطلاقا من الحاضر إلى المستقبل﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:7-8] فيما فعل بآدم وفيما يفعل بأولئك حيث أنعم عليهم بالأمن والعيش الرغد وإرسالك إليهم وفيما يفعل لمن آمن أو بمن كفر اللهم بلى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾.

فالدين هو الجزاء كما في سورة الفاتحة﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4] والخطاب قيل للرسول؟ وأن ما في قوله: ﴿فَمَا﴾ هي بمعنى من أي فمن الذي يكذبك بعد هذا البيان بمجيء الجزاء والحساب قبل كل جزاء عمله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ .

السؤال كما تقدم في ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ أي للإثبات وهو سبحانه وتعالى بلا شك أحكم الحاكمين كما ثبت عنه أنه كان إذا قرأها قال "اللهم بلى" كما سيأتي.

وأحكم الحاكمين قيل أفعل تفضيل من الحكم أي أعدل الحاكمين كما في

(10/9)

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:49] .

وقيل من الحكمة أي في الصنع والإتقان والخلق فيكون اللفظ مشتركا ولا يبعد أن يكون من المعنيين معا وإن كان هو في الحكم أظهر لأن الحكيم من الحكمة يجمع على الحكماء

فعلى القول بالأمرين يكون من استعمال المشترك في معنييه معا وهو هنا لا تعارض بل هما متلازمان لأن الحكيم لا بد أن يعدل والعادل لا بد أن يكون حكيما يضع الأمور في مواضعها

وقد بين تعالى هذا المعنى في عدة مواطن كقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:28] الجواب لا وكقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:21] وفي قوله: ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بيان لعدم عدالتهم في الحكم وبعده عن الحكمة

ومعلوم أن عدم التسوية بينهم في مماتهم أنه بالبعث والجزاء فهو سبحانه أحكم الحاكمين في صنعه وخلقه خلق الإنسان في أحسن تقويم وأعدل الحكام في حكمه لم يسو بين المحسن والمسيء.

وقد اتفق المفسرون على رواية الترمذي لحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا "من قرأ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فقرأ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين" .

ومثله عن جابر مرفوعا وعن ابن عباس قوله: "سبحانك اللهم فبلى" والعلم عند الله تعالى.

سورة العلق

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

في هذه الآيات الخمس تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب والعام بالخاص والدليل بالمدلول عليه وكلها من منهج هذا الكتاب المبارك وفي الواقع أنها كلها مسائل أساسية بالغة الأهمية عظيمة الدلالة.

وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية إنها وأمثالها من السور التي فيها العجائب وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة ولا تستطيع إيفاءها حقها عجزا وقصورا

وقد كتب فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأسلوبه مائتين وعشرين صفحة متتالية وفصلا آخر في مباحث تتصل بها ولو أوردنا كل ما يسعنا مما تحتمله لكان خروجا عن موضوع الكتاب ولذا فإنا نقصر القول على ما يتصل بموضوعه إلا ما جرى القلم به مما لا يمكن تركه وبالله تعالى التوفيق

أما المسائل التسع التي ذكرت هنا فإنا نوردها لنتقيد بها وهي

أولا: الأمر بالقراءة يوجه لنبي أمي.

والثانية: كون القراءة هذه باسم الرب سبحانه مضافا للمخاطب صلى الله عليه وسلم ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ .

الثالثة: وصف للرب ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ بدلا من اسم الله واسم الذي يحيي ويميت أو غير ذلك

الرابعة: خلق الإنسان بخصوصه بعد عموم خلق وإطلاقه

الخامسة: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ولم يذكر ما قبل العلقة من نطفة أو خلق آدم من تراب.

السادسة: إعادة الأمر بالقراءة مع ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ بدلا من أي صفة أخرى وبدلا من الذي خلق المتقدم ذكره.

الثامنة: التعليم ﴿بِالْقَلَمِ﴾ .

التاسعة: تعليم الإنسان ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

لما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح فهي بحق افتتاحية الوحي فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم والكلام على ذلك مستفيض في كتب التفسير والحديث والسيرة فلا موجب لإيراده هنا ولكن نورد الكلام على ما ذكرنا من موضوع الكتاب إن شاء الله.

أما المسألة الأولى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ فالقراءة لغة الإظهار والإبراز كما قيل في وصف الناقة لم تقرأ جنينا أي لم تنتج.

وتقدم للشيخ بيان هذا المعنى لغة وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبي أمي لا تعارض فيه لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام وهذا إبراز للمعجزة أكثر لأن الأمي بالأمس صار معلما اليوم وقد أشار السياق إلى نوعي القراءة هذين حيث جمع القراءة مع التعليم ﴿بِالْقَلَمِ﴾ .

وفي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ بدء للنبوة وإشعار بالرسالة لأنه يقرأ كلام غيره

وقوله تعالى: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ تؤكد لهذا الإشعار أي ليس من عندك ولا من عند جبريل الذي يقرئك

وقد قدمنا الرد على كونه صلى الله عليه وسلم لم يكتب ولا يقرأ مكتوبا من أنه صيانة للرسالة كما أنه لم يكن يقول الشعر وما ينبغي له إذا لارتاب المبطلون

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:48] وذلك عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة:2] .

وهنا لم يبين ما يقرؤه ولكن مجيء سورة القدر بعدها بمثابة البيان لما يقرؤه وهي ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر:1] وجاء بيان ما أنزل في سورة الدخان ﴿ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان:1-3].

وللشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان لذلك عند قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء:113] فكأنه في قوة اقرأ ما يوحي إليك من ربك والمراد به هو القرآن بالإجماع

المسألة الثانية قوله ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ أي اقرأ باسم ربك منشئا ومبتدئا القراءة باسم ربك وقد تكلم المفسرون على الباء أهي صلة ويكون اقرأ اسم ربك أي قل باسم الله كما في أوائل السور.

وقيل الباء بمعنى على أي على اسم ربك وعليه فالمقروء محذوف

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن قوله ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ أي أن ما تقرؤه هو من ربك وتبلغه للناس باسم ربك وأنت مبلغ عن ربك على حد قوله ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:3-4].

وقوله: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [المائدة:99]، أي عن الله تعالى.

وكقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء:64].

ونظير هذا في الأعراف الحاضرة خطاب الحكم أو ما يسمى خطاب العرش حينما يقول ملقيه باسم الملك أو باسم الأمة أو باسم الشعب على حسب نظام الدولة أي باسم السلطة التي منها مصدر التشريع والتوجيه السياسي.

وهنا باسم الله باسم ربك وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذي ينبه العبد إلى ما أولاه الله إياه من التربية والوعاية والعناية إذ الرب يفعل لعبده ما يصلحه ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بخبري الدنيا والآخرة وفي إضافته إلى المخاطب إيناس له

المسألة الثالثة وصف الرب بالذي خلق مع إطلاق الوصف وذلك لأن صفة الخلق هي أقرب الصفات إلى معنى الربوبية ولأنها أجمع الصفات للتعريف بالله.

تعالى لخلقه وهي الصفة التي يسلمون بها ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:25].

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:87].

ولأن كل مخلوق لابد له من خالق ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:35] وقد أطلق صفة الخلق عن ذكر مخلوق ليعم ويشمل الوجود كله خالق كل شيء في قوله ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:102].

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:62].

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24].

وتلك المسائل الثلاث هي الأصول في الرسالة وما بعدها دلالة عليها فالأمر بالقراءة تكليف لتحمل الوحي و ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ بيان لجهة التكليف و ﴿ الَّذِي خَلَقَ﴾ تدليل لتلك الجهة أي الرسالة والرسول والمرسل مع الدليل المجمل ولا شك أن المرسل إليهم لم يؤمنوا ولا بواحدة منها فكان لا بد من إقامة الأدلة على ثبوتها بالتفصيل.

ولما كانت جهة المرسل هي الأساس وهي المصدر كان التدليل عليها أولا فجاء التفصيل في شأنها بما يسلمون به ويسلمونه في أنفسهم وهي المسألة الرابعة

والخامسة ﴿ خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وهذا تفصيل بعد إجمال ببيان للبعض من الكل فالإنسان بعض مما خلق وذكره من ذكر العام بعد الخاص أولا ومن إلزامهم بما يسلمون به ثم لانتقالهم مما يعلمون ويقرون به إلى مالا يعلمون وينكرون.

وفي ذكر الإنسان بعد عموم الخلق تكريم له كذكر الروح بعد عموم الملائكة ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ ونحوه والإنسان هنا الجنس بدليل الجمع في ﴿ عَلَقٍ ﴾ جمع علقة ولأنه أوضح دلالة عنده ليستدل بنفسه من

نفسه كما سيأتي .

وقوله: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وهو جمع علقة وهي القطعة من الدم كالعرق أو الخيط بيان على قدرته تعالى وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحيانا فيما تلقى به الرحم ويعلمون أنه مبدأ خلقة الإنسان

فالقادر على إيجاد إنسان في أحسن تقويم من هذه العلقة قادر على جعلك قارئا وإن لم تكن تعلم القراءة من قبل كما أوجد الإنسان من تلك العلقة ولم يكن موجودا من قبل ولأن الذي يتعهد تلك العلقة حتى تكتمل إنسانا يتعهدها بالرسالة.

وقد يكون في اختيار الإنسان بالذات وبخصوصه لتفصيل مرحلة وجوده أن غيره من المخلوقات لم تعلم مباديء خلقتها كعلمهم بالإنسان ولأن الإنسان قد مر ذكره في السورة قبلها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] فبين أنه من هذه العلقة كان في أحسن تقويم ومن حسن تقويم إنزال الكتاب القيم

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به لله ولم يبدأ من النطفة أو التراب لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان فقد تقذف في غير رحم كالمحتلم وقد تكون فيه ولا تكون مخلقة ا ه

وهذا في ذاته وجيه ولكن لا يبعد أن يقال إن السورة في مستهل الوحي وبدايته فهي كالذي يقول إذا كنت بدأت بالوحي إليه ولم يكن من قبل ولم يوجد منه شيء بالنسبة إليك فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علقة بعد أن لم يكن شيئا .

وعليه يقال لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحي قد تركت أيضا وهي فترة الرؤيا الصالحة كما في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم كان أول ما بديء به الوحي الرؤيا الصالحة يراها فتأتي كفلق الصبح فكان ذلك إرهاصا للنبوة وتمهيدا لها لمدة ستة أشهر ولذا قال صلى الله عليه وسلم "الرؤيا الصالحة يراها الرجل

الصالح أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة وهي نسبة نصف السنة من ثلاث وعشرين مدة الوحي ولكن الرؤيا الصالحة قد يراها الرجل الصالح ومثل ذلك تماما فترة النطفة فقد تكون النطفة ولا يكون الإنسان كما تكون الرؤيا ولا تكون النبوة أما العلقة فلا تكون إلا في رحم وقرار مكين ومن ثم يأتي الإنسان مخلقا كاملا أو غير مخلق على ما يقدر له.

فلما كانت فترة النطفة ليست بلازمة لخلق الإنسان وكان مثلها فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة ترك كل منها مقابل الآخر ويبدأ الدليل بما هو الواقع المسلم على أن الله تعالى هو الخالق والخالق للإنسان من علقة فكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل،

(16/9)

فالدليل هو خلق الإنسان والمستدل به هو الإنسان نفسه كما في قوله تعالى ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذريات:21] فيستدل لنفسه من نفسه على قدرة خالقه سبحانه

وإذا تم بهذا الاستدلال على قدرة الرب الخالق كان بعده إقامة الدليل على صحة النبوة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم فجاءت المسألة السادسة وهي إعادة القراءة في قوله ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ إذ أقام الدليل على أنك مرسل من الله تبلغ عنه وتقرأ باسمه فاعلم أن تلك القراءة وهذا الوحي من ربك الأكرم والأكرم قالوا هو الذي يعطي بدون مقابل ولا انتظار مقابل والواقع أن مجيء الوصف هنا بالأكرم بدلا من أي صفة أخرى لما في هذه الصفة من تلاؤم للسياق ما لا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة

فأولا رحمة الخليقة بهذه القراءة التي ربطت العباد بربهم وكفى

وثانيا نعمة الخلق والإيجاد فهما نعمتان تكاملتان الإيجاد من العدم بالخلق والإيجاد الثاني من الجهل إلى العلم ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه

ثم تأتي المسألة الثامنة وهي من الدلالة على النبوة والرسالة ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ سواء كان

الوقف على ﴿ اقْرَأْ ﴾ وابتداء الكلام ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أو الوقف على الأكرم وابتداء الكلام: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ لأن من يعلم الجاهل بالقلم يعلم غيره بدون القلم بجامع التعليم بعد الجهل فالقادر على هذا قادر على ذلك.

والتاسعة بيان لهذا الإجمال حيث لم يبين ما الذي علمه بالقلم فقال: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهذا مشاهد ملموس في أشخاصهم ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:78] .

فالله الذي علم الإنسان ما لم يعلم وكل ما تعلمه الإنسان فهو من الله: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهل الرسالة والنبوة إلا تعليم الرسول ما لم يكن يعلم وبهذا تم إقامة الدليل على صحة النبوة أي الرسالة والرسول والمرسل وهي أسس الدعوة والبعثة الجديدة

وقد اشتهر عند الناس أنه نبيء بـ﴿ اقْرَأْ ﴾ وأرسل بـ ﴿ الْمُدَّثِّرُ﴾ ولكن في

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

نفس هذه السورة معنى الرسالة لما قدمنا من أن القراءة﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إشعار بأنه مرسل من ربه إلى من يقرأ عليهم ففيها إثبات الرسالة من أول بدء الوحي

تنبيه

في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ مبحث التعليم ومورد سؤل وهو إذا كان تعالى تمدح بأنه﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وأنه ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فكان فيه الإشادة بشأن القلم حيث إن الله تعالى قد علم به وهذا أعلى مراتب الشرف مع أنه سبحانه قادر على التعليم بدون القلم ثم أورده في معرض التكريم في قوله﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:1-2] وعظم المقسم عليه وهو نعمة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي يدل على عظم المقسم به وهو القلم وما يسطرون به من كتابة الوحي وغيره.

وقد ذكر القلم في السنة أنواعا متفاوتة وتوكلها بالغة الأهمية.

منها أولها وأعلاها القلم الذي كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة والوارد في الحديث "أول ما خلق الله القلم قال له اكتب" الحديث.

فعلى رواية الرفع يكون هو أول المخلوقات ثم جرى بالقدر كله وبما قدر وجوده كله

ثانيها القلم الذي يكتب مقادير العام في ليلة القدر من كل سنة المشار إليه بقوله ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:4].

ثالثها القلم الذي يكتب به الملك في الرحم ما يخص العبد من رزق وعمل

ثالثها القلم الذي بأيدي الكرام الكاتبين المنوه عنه بقوله تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:18]، أي بالكتابة كما في قوله ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:11-12]، إذا قلنا إن الكتابة في ذلك تستلزم قلما كما هو الظاهر.

رابعا القلم الذي بأيدي الناس يكتبون به ما يعلمهم الله ومن أهمها أقلام كتاب الوحي الذين كانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابة سليمان لبلقيس

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ شامل لهذا كله إذا كان هذا كله شأن القلم وعظم أمره وعظيم المنة به على الأمة بلى وعلى الخليقة كلها.

وقد افتتحت الرسالة بالقراءة والكتابة فلماذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي أعلن عن هذا الفضل كله للقلم لم يكن هو كاتبا به ولا من أهله بل هو أمي لا يقرأ ولا يكتب كما في قوله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة:2]. والجواب أنا أشرنا.

أولا: إلى ناحية منه، وهي أنه أكمل للمعجزة، حيث أصبح النبي الأمي معلما كما قال تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:2] .

وثانيا: لم يكن هذا النبي الأمي مغفلا شأن القلم بل عنى به كل العناية وأولها وأعظمها أنه اتخذ كتابا للوحي يكتبون ما يوحى إليه بين يديه مع أنه يحفظه ويضبطه وتعهد الله له بحفظه وبضبطه في قوله تعالى﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ حتى الذي ينساه يعوضه الله بخير منه أو مثله كما في قوله تعالى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:106] ووعد الله تعالى بحفظه في قوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9] .

ومع ذلك فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة كتاب وهذا غاية في العناية بالقلم.

وذكر ابن القيم من الكتاب الخلفاء الأربعة ومعهم تتمة سبعة عشر شخصا ثم لم يقتصر صلى الله عليه وسلم في عنايته بالقلم والتعليم به عند كتابة الوحي بل جعل التعليم به أعم كما جاء خبر عبد الله بن سعيد بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة وكان كاتبا محسنا ذكره صاحب الترتيبات الإدارية عن ابن عبد البر في الاستيعاب

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال علمت ناسا من أهل الصفة الكتابة والقرآن

وقد كانت دعوته صلى الله عليه وسلم الملوك إلى الإسلام بالكتابة كما و معلوم.

وأبعد من ذلك ما جاء في قصة أسارى بدر حيث كان يفادي بالمال من يقدر

على الفداء ومن لم يقدر وكان يعرف الكتابة كانت مفاداته أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة فكثرت الكتابة في المدينة بعد ذلك.

وكان ممن تعلم زيد بن ثابت وغيره

فإذا كان المسلمون وهم في باديء أمرهم وأحوج ما يكون إلى المال والسلاح بل واسترقاق الأسارى فيقدمون

تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله ليدل على أمرين

أولهما: شدة وزيادة العناية بالتعليم

وثانيهما: جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا تعلق له بالدين كما يوجد الآن من الأمور الصناعية في الهندسة والطب والزراعة والقتال ونحو ذلك

وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك حتى كان عدد كتاب الوحي اثنين وأربعين رجلا ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام وجاء النص على الكتابة في توثيق الدين في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:282] وهي أطول آية في كتاب الله تعالى رسمت فيها كتابة العدل الحديثة كلها وإذا كان هذا شأن القلم وتعلمه فقد وقع الكلام في تعليمه للنساء على أنهن شقائق الرجال في التكليف والعلم فهل كن كذلك في تعلم الكتابة أم لا ؟

مبحث تعليم النساء الكتابة

وقع الخلاف بسبب نصين في المسألة

الأول حديث الشفاء بنت عبد الله قالت دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال لي: "ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة ؟ رواه الجد في المنتقى عن أحمد وأبي داود وقال بعده وه و دليل على جواز تعلم النساء الكتابة

والثاني حديث عائشة رواه الحاكم وصححه البيهقي مرفوعا "لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة يعني النساء وعلموهن الغزل وسورة النور" قال الشوكاني في نيل الأوطار على حديث المنتقى وحديث عائشة إن حديث الشفاء دليل على جواز تعليمهن وحديث النهي محمول على من يخشى من تعليمها الفساد أعني تعليم الكتابة والقراءة.

أما تعليم العلم فليس محل خلاف، والواقع أن هذه المسألة واضحة المعالم، إذا نظرت كالآتي

أولا: لا شك أن العلم من حيث هو خير من الجهل والعلم قسمان علم سماع وتلقي وهذه سيرة وتوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة كانت القدوة الحسنة في ذلك في فقه الكتاب والسنة وكم استدركت على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وهذا مشهور ومعلوم

والثاني علم تحصيل بالقراءة والكتابة وهذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها فمن رأى أن تعليمهن مفسدة منعه كما روي عن علي رضي الله عنه أنه مر على رجل يعلم امرأة الكتابة فقال لا تزد الشر شرا.

وروي عن بعض الحكماء أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة فقال أفعى تسقى سما، وأنشدوا

الآتي ما للنساء وللكتا . . . بة والعمالة والخطابة

هذا لنا ولهن منا . . . أن يبتن على جنابه

ومثله ما قاله المنفلوطي:

يا قوم لم تخلق بنات الورى . . . للدرس والطرس وقال وقيل

لنا علوم ولها غيرها . . . فعلموها كيف نشر الغسيل

والثوب والإبرة في كفها . . . طرس عليه كل خط جميل

وهذا نظر إلى تعليمهن وموقفهن من زاوية واحدة كما قال الشاعر الآخر

كتب القتل والقتال علينا . . . وعلى الغانيات جر الذيول

مع أننا وجدنا في تاريخ المرأة نسوة شاركن في القتال حتى عائشة رضي الله عنها كانت تسقي الماء وأم سلمة تداوي الجرحى إذ لا يؤخذ قول كل منهما على عمومه

قال صاحب التراتيب الإدارية أورد القلنشدي أن جماعة من النساء كن يكتبن ولم ير أن أحدا من السلف أنكر عليهن اهـ.

ومن المعلوم رواية كريمة لصحيح البخاري وهي من الرواية المعتبرة عن المحدثين فقد رأيت بنفسي وأنا مدرس بالأحساء نسخة لسنن أبي داود عند آل المبارك

وعليها تعليق لأخت صلاح الدين الأيوبي وذكر صاحب التراتيب الإدارية قوله وقد ثبت ع كثير من نساء أهل الصحراء الافريقية خصوصا شنقيط شنجط أي شنقيط وهي المعروفة الآن بموريتانيا وتيتبكتو وقبيلة كنت العجب حتى جاء أن الشيخ المختار الكنتي الشهير ختم مختصر خليل للرجال وختمته زوجته في جهة أخرى للنساء اهـ.

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن في بعثة الجلعة الإسلامية لإفريقيا سمعنا ونحن في مدينة أطار وهي على مقربة من مدينة شنجيط المذكورة سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقا مائتا فتاة يحفظن المدونة كاملة وقد سمعت في الآونة الأخيرة أنه كانت توجد امرأة تدرس في المسجد النبوي الحديث والسيرة واللغة البيرة وهي شنقيطية.

ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على ضوء واقع الحياة اليوم وفي كل يوم وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة ولكن المشكلة تكمن في منهج تعليمها وكيفية تلقيها العلم

فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصرا على النواحي التي يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكفى أما كيفية تعليمها فإن مشكلتها إنما جاءت من الاختلاط في مدرجات الجامعات وفصول الدراسة في الثانويات في فترة المراهقة وقلة المراقبة وفي هذا يكمن الخطر منها وعليها في آن واحد فإذا كان لا بد من تعليمها فلا بد أيضا من المنهج الذي يحقق الغاية منه ويضمن السلامة فيه والتوفيق من الله سبحانه

أما ما يخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة فقد وجد ما هو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف في البيوت فإنه في متناول المتعلمة والجاهلة والمدار في ذلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية.

وقد أوردت هذا المبحث استطرادا لبيان وجهة النظر في هذه المسألة اقتباسا من قوله تعالى﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وبالله التوفيق.

مسألة

بيان أولية الكتابة عامة والعربية خاصة وأول من خط بالقلم على الأرض

جاء في المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية المطبوع سنة 1304 هـ ما نصه وإنما أصول الكتابة اثني عشر على ما قاله ابن خلكان وتبعه كثير من المؤلفين كالدميري في حياة الحيوان والحلبي في السيرة وغيرهما .

قال إن جميع كتابات الأمم من سكان المشرق والمغرب اثنتي عشرة كتابة خمس منها ذهب من يفها وبطل استعمالها وهي الحميرية والقبطية والبربرية والأندلسية واليونانية وثلاث منها فقد من يعرفها في بلاد الإسلام ومستعملة في بلادها وهي السريانية والفارسية والعبرانية والعربية اه كلامه باختصار وفيه ما فيه قال والحميرية هي خط أهل اليمن قوم هود وهم عاد الأولى وهي عاد إرم وكانت كتابتهم تسمى المسند الحميري وكانت حروفها كلها منفصلة وكانوا يمنعون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم حتى جاءت دولة الإسلام وليس بجميع اليمن من يكتب ويقرأ

وقال المقريزي في الخطط القلم المسند هو القلم الأول من أقلام حمير ولهك عاد اه .

والمعروف الآن أن الحروف المستعملة في الكتابة في العالم كله بصرف النظر عن اللغات المنطوق بها هي ثلاثة فقط الخط العربي بحروف ألف باء وبها لغات الشرق والحروف اللاتينية وبها لغات أوروبا والحروف الصينية.

أما اللغات وهي فوق ألفي لغة والأمهرية بحرف قريب من اللاتيني.

أما أولية الكتابة العربية فقال صاحب المطالع النصرية فقد اختلفت الروايات فيها كما قاله الحافظ السيوطي في الأوائل.

وكذا في المزهر في النوع الثاني والأربعين قال إنه يرى أن آدم عليه السلام أول من كتب بالقلم وأن الكتابات كلها من وضعه كان قد كتبها في طين وطبخه يعني

(23/9)

أحرقه ودفنه قبل موته بثلاثمائة سنة وبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه وكانت اثنى عشر كتابا فتعلموه بإلهام إلهي.

وقيل إن أول من خط بالعربي إسماعيل عليه السلام اهـ

وقد أطال السيوطي في المزهر الكلام في هذه المسألة نقلا عن ابن فارس الشدياقي.

وعن العسكري عن الأوائل في ذلك أقوال فقيل إسماعيل وقيل مرار بن مرة وهما من أهل الأنبار وفي ذلك يقول الشاعر:

كتبت أبا جاد وخطى مرامر . . . وسورت سريالي ولست بكاتب

وقيل أول من وضعه أبجد وهوز وحطي وكلمن وصعفص وقرشت وكانوا ملوكا فسمي الهجاء بأسمائهم

وذكر عن الحافظ أبي طاهر السلفي بسنده عن الشعبي قال أول من كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس تعلم من أهل الحيرة وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار.

وقال أبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف حدثنا عبد الله بن محمد الزهري حدثنا سفيان عن مجالد عن الشعبي قال سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة قالوا تعلمنا من أهل الحيرة وسألنا أجل الحيرة من أين تعلمتم الكتابة قالوا من أهل الأنبار ثم قال ابن فارس والذي نقوله إن الخط توقيفي وذلك لظاهر قوله تعالى﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وقوله: ﴿ نٓ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:1] .

وإذا كان هذا فليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتابة فأما أن يكون شيئا

مخترعا اخترعه من تلقاء نفسه فهذا شيء لا نعلم صحته إلا من خبر صحيح

قال السيوطي قلت يؤيد ما قاله من التوقيف ما أخرجه ابن شقة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أول كتاب أنزله الله من السماء أبا جاد.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام" اهـ

(24/9)

وقد أطال النقول في ذلك مما يرجع إلى الأول وليس فيه نقل صحيح يقطع به

وقد أوردنا هذه النبذة بخصوص كلام ابن فارس من أن تعليم الكتابة أمر توقيفي وما استدل به السيوطي من أول كتاب أنزله الله من السماء فإن في القرآن ما يشهد لإمكان ذلك وهو أن الله تعالى أنزل الصحف لموسى مكتوبة.

وفي الحديث "إن الله كتب الألواح لموسى بيده وغرس جنة عدن بيده".

وإذا كان موسى تلقى ألواحا مكتوبة فلا بد أن تكون الكتابة معلومة له قبل إنزالها وإلا لما عرفها

أما المشهور في الأحرف التي نكتب بها الآن فكما قال السيوطي في المزهر ونقله عنه صاحب المطالع المصرية ما نصه:

المشهور عند أهل العلم ما رواه ابن الكلبي عن عوانة قال أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن حدرة كما في القاموس وهم من عرب طيء تعلموه من كتاب الوحي لسيدنا هود عليه السلام ثم علموه أهل الأنبار ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيقو غيرها فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكانت له صحبة بحرب بن أمية فتعلم حرب منه ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان فتعلم منه جماعة من أهل مكة

فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الإسلام

ولذا قال رجل كندي من أهل دومة الجندل يمن على قريش بذلك

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم. . . فقد كان ميمون النقيبة أزهرا

أتاكم بخط الجزم حتى حفظتموا. . . من المال ما قد كان شتى مبعثرا

وأتقنتموا ما كان بالمال مهملا. . . وطأمنتموا ما كان منه مبقرا

فأجريتم الأقلام عودا وبدأة. . . وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا

وأغنيتم عن مسند إلى حميرا. . . وما زبرت في الصحف أقلام حميرا

قال: وكذلك ذكر النووي في شرح مسلم نقل عن الفراء أنه قال إنما كتبوا الربا في المصحف بالواو لأن أهل الحجاز تعلموا الخط من أهل الحيرة ولغتهم الربوا فعلموهم صورة الخط على لغتهم ا هـ.

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

تنبيه آخر

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ لا يمنع تعليمه تعالى بغير القلم كما في قصة الخضر مع موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف:65] .

وكما في حديث "نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها" الحديث.

وكما في حديث الرقية بالفاتحة لمن لدغته العقرب في قصة السرية المعروفة فلما سأله صلى الله عليه وسلم "وما يدريك أنها رقية" قال شيء نفث في روعي.

وحديث علي لما سئل هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم قال لا إلا فهما يؤتيه الله من شاء في كتابه وما في هذه الصحيفة.

وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:من الآية282] نسأل الله علم ما لم نعلم والعلم بما نعلم وبالله

التوفيق.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾

ظاهر هذه الآية أن الاستغناء موجب للطغيان عند الإنسان ولفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ هنا عام ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغني ولا يطغى فيكون هذا من العام المخصوص ومخصصه إما من نفس الآية أو من خارج عنها ففي نفس الآية ما يفيده قوله تعالى: ﴿أَنْ رَآهُ﴾ أي إن رأي الإنسان نفسه وقد يكون رأيا واهما ويكون الحقيقة خلاف ذلك ومع ذلك يطغى فلا يكون الاستغناء هو سبب الطغيان

ولذا جاء في السنة ذم العائل المتكبر لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى فهو معنى في نفسه لا بسبب غناه

أما من خارج الآية فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:37-39] فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان وكما في قوله ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا﴾ [الهمزة:2-4].

ومفهومه أن من لم يؤثر الحياة الدنيا ولم يحسب أن ماله أخلده لن يطغيه ماله ولا غناه كما جاء في قصة النفر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع من بني إسرائيل

وقد نص القرآن على أوسع غنى في الدنيا في نبي الله سليمان آتاه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ومع هذا قال: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ [ص:32-33]

وقصة الصحابي الموجودة في الموطأ لما شغل ببستانه في الصلاة حين رأى الطائر لا يجد فرجة من الأغصان ينفذ منه فجاء إلى النبي؟ وقال: يا رسول الله إني فتنت ببستاني في صلاتي فهو في سبيل الله فعرفنا أن الغنى وحده ليس موجبا للطغيان ولكن إذا صحبه إيثار الحياة الدنيا على الآخرة وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:من الآية53] وأنه لا يقي منه إلا التهذيب بالدين

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى:27] وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف:51] وكذلك قال قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص:78] وقال ثالث الثلاثة من بني إسرائيل: إنما ورثته كابرا عن كابر بخلاف المسلم إلى آخره فلا يزيده غناه إلا تواضعا وشكرا للنعمة كما قال نبي الله سليمان ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:40] وقد نص في نفس السورة أنه شكر الله ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل:19] .

وفي العموم قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الاحقاف:15]

وقد كان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب المال الوفير فلم يزدهم إلا قربا لله كعثمان بن عفان رضي الله عنه وعبد الرحمان بن عوف وأمثالهم وفي الآية

ربط لطيف بأول السورة إذا كان ﴿ خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وهي أحوج ما يكون إلى لطف الله وعنايته ورحمته في رحم أمه فإذا بها مضغة ثم عظام ثم تكسى لحما ثم تنشأ خلقا آخر ثم يأتي إلى الدنيا طفلا رضيعا لا يملك إلا البكاء فيجري الله له نهرين من لبن أمه ثم ينبت له الأسنان ويفتق له الأمعاء ثم يشب ويصير غلاما يافعا فإذا ما ابتلاه ربه بشيء من المال أو العافية فإذا هو ينسى كل ما تقدم وينسى حتى ربه ويطغى ويتجاوز جده حتى مع الله خالقه ورازقه كما رد عليه تعالى بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ

خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:77-79].

ومما في الآية من لطف التعبير قوله تعالى: ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ أي أن الطغيان الذي وقع فيه عن وهم تراءى له أنه استغنى سواء بماله أو بقوته لأن حقيقة المال ولو كان جبالا ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية فإذا مرض فماذا ينفعه ماله وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من الله عليه.

ومن هذه الآية أخذ بعض الناس أن الغني الشاكر أعظم من الفقير الصابر لأن الغنى موجب للطغيان.

وقد قال بعض الناس الصبر على العافية أشد من الصبر على الحاجة

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب أسند الكذب إلى الناصية وفي مواضع أخر أسنده إلى غير الناصية كقوله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل:105].

وذكر الجواب بأنه أطلق الناصية وأراد صاحبها على أسلوب لإطلاق البعض وإيراد الكل وذكر الشواهد عليه القرآن كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:1].

والذي ينبغي التنبيه عليه من جهة البلاغة أن البعض الذي يطلق ويراد به الكل لا

بد في هذا البعض من مزيد مزية للمعنى المساق فيه الكلام

فمثلا هنا ذم الكذب وأخذ الكاذب بكذبه، فجاء ذكر الناصية وهي قدم شعر الرأس لأنها أشد نكارة على صاحبها ونكالا به إذ الصدق يرفع الرأس والكذب ينكسه ذلة وخزيا

فكانت هي هنا أنسب من اليد أو غيرها بينما في أبي لهب تطاول بماله والغرض مذمة ماله وكسبه الذي تطاول به واليد هي جارحة الكسب وآلة التصرف في المال فكانت اليد أولى فيمن الناصية .

وهكذا كما يقولون بث الأمير عيونه يريدون جواسيس له لأن العين من الإنسان أهم ما فيه لمهمته تلك ولم يقولوا بث أرجله ولا رؤوسا ولا أيد لأنها كلها ليست كالعين في ذلك

ومن هذا القبيل ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:8] ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:27] .

لأن القلب هو مصدر الخوف والنفس هي محط الطمانينة على أن النفس جزء من الإنسان وهكذا ومنه الآتي ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ أطلق السجود وأراد الصلاة لأن السجود أخص صفاتها﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الانسان:26]

وقوله في وصف أصحابه رضي الله عنهم﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:29] فقوله: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح:29] في معنى يتقربون إليه يبين قوله ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

وهذا مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله حيث وجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم من أول الأمر كما بين تعالى في قوله ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:45] .

وقال صلى الله عليه وسلم: "أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد" .

(29/9)

سورة القدر

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ .

الضمير في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن قطعا .

وحكى الألوسي عليه الإجماع وقال ما يفيد أن هناك قولا ضعيفا لا يعتبر من أنجبريل .

وما قاله عن الضعف لهذا القول يشهد له السياق وهو قوله تعالى ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .

والمشهور أن ﴿ الرُّوحُ ﴾ هنا هو جبريل عليه السلام فيكون الضمير في أنزلنا لغيره وجيء بضمير الغيبة تعظيما لشأن القرآن وإشعارا بعلو قدره

وقد يقال ذكر سورة القدر قبلها مشعرة به في قوله ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ثم جاءت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي القرآن المقروء والضمير المتصل في ﴿ إِنَّا ﴾ ونا في ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ مستعمل للجمع وللتعظيم ومثلها نحن وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ [الحجر:9] والمراد بهما هنا التعظيم قطعا لاستحالة التعدد أو إرادة معنى الجمع.

فقد صرح في موضع آخر باللفظ الصريح في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ [الزمر:23] والمراد به القرآن قطعا فدل على أن المراد بتلك الضمائر تعظيم الله تعالى.

وقد يشعر بذلك المعنى وبالاختصاص تقديم الضمير المتصل ﴿ إنا ﴾ وهذا المقام مقام تعظيم واختصاص لله تعالى سبحانه ومثله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر:1] وقوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ [نوح:1] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ [ق:43] وإنزال القرآن منة عظمى.

وقد دل على تعظيم المنة وتعظيم الله سبحانه في قوله ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص:29] فقال: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ بضمير التعظيم ثم قال في وصف الكتاب ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنصيص على أنه للتعظيم عند الكلام على آية ص هذه ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ .

والواقع أنه جاءت الضمائر بالنسبة إلى الله تعالى بصيغ الجمع للتعظيم وبصيغ الإفراد فمن صيغ الجمع ما تقدم ومن صيغ الإفراد قوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:30] وقوله: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ

طِينٍ﴾ [صّ:71] وقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30].

ويلاحظ في صيغ الإفراد أنها في مواضع التعظيم والإجلال كالأول في مقام خلق البشر من طين ولايق عليه إلا الله.

والثاني في مقام أنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة وهذا لا يكون إلا لله سبحانه فسواء جيء بضمير بصيغة الجمع أو الإفراد ففيها كلها تعظيم لله سبحانه وتعالى سواء بنصها وأصل الوضع أو بالقرينة في السياق والثاني في مقام أنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة وهذا لا يكون إلا لله سبحانه فسواء جيء بضمير بصيغة الجمع أو الإفراد ففيها كلها تعظيم لله سبحانه وتعالى سواء بنصها وأصل الوضع أو بالقرينة في السياق

ثم اختلف في المنزل ليلة القدر، هل هو الكل أو البعض؟

فقيل وهو رأي الجمهور أنه أوائل تلك السورة فقط أي بداية الوحي بالقرآن وهو مروي عن ابن عباس قال ثم تتالى نزول الوحي بعد ذلك وكان بين أوله وآخره عشرون سنة

وقيل المنزل في تلك الليلة هو جميع القرآن جملة واحدة وكله إلى سماء الدنيا ثم صار ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجما حسب الوقائع.

وهذا الأخير هو رأي الجمهور كما قدمنا وقد اختاره الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:185] وحكاه الألوسي وحكى عليه الإجماع.

وعن ابن حجر في فتح الباري ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول يجمع فيهين القولين الأخيرين.

وهو أنه لا منافاة بين القولين ويمكن الجمع بينهما بأن يكون نزل جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر وبدء نزول أوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:1] في ليلة القدر.

وقد أثير حول هذه المسألة جدال ونقاش كلامي حول كيفية نزول القرآن وأدخلوا فيها القول بخلق القرآن وأن

جبريل نقله من اللوح المحفوظ وأن الله لم يتكلم به عند نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم

وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ذلك وكتب جوابه وطبع فكان كافيا وقد نقل فيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وبين أن الله تعالى تكلم به عند وحيه ورد على كل شبهة في ذلك

والواقع أنه لا تعارض كما تقدم بين كونه في اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا جملة ونزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم منجما لأن كونه في اللوح المحفوظ فإن اللوح فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيمة ومن جملة ذلك القرآن الذي سينزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم

ونزوله جملة إلى سماء الدنيا فهو بمثابة نقل جزء مما في اللوح وهو جملة القرآن فأصبح القرآن موجودا في كل من اللوح المحفوظ كغيره مما هو فيه وموجودا في سماء الدنيا ثم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجما.

ومعلوم أنه الآن هو أيضا موجود في اللوح المحفوظ لم يخل منه اللوح وقد يستدل لإنزاله جملة ثم تنزيله منجما بقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9] لأن نزل بالتضعيف تدل على التكرار كقوله ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي في كل ليلة قدر.

وقد جاء ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ فتدل على الجملة.

وقد بينت السنة تفصيل تنزيله مفرقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير الحديث في صحيح البخاري.

(32/9)

وفي أبي داود وغيره "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان".

وعلى هذا يكون القرآن موجودا في اللوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون ثم جرى نقله إلى

سماء الدنيا جملة في ليلة القدر ثم نزل منجما في عشرين سنة وكلما أراد الله إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله فيسمعه جبريل عليه السلام عن الله تعالى ولا منافاة بين تلك الحالات الثلاث والله تعالى أعلم.

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول الوحي وتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي

وقيل معنى ﴿أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي أنزلنا القرآن في شأن ليلة القدر تعظيما لها فلم تكن ظرفا على هذا الوجه.

والواقع أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكنا إلا أن ما بعده يغني عنه لأن إعظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلا وهو ما بعدها مباشرة في قوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:2-3] إلى آخر السورة.

وعليه فيكون أول السورة في شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله وآخر السورة في ليلة القدر وبيان منزلتها

وقد ذكرت ليلة القدر مبهمة ولكن جاء في القرآن ما بين الشهر التي هي فيه وهو شهر رمضان لقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:185].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان بيان ذلك وأنها الليلة التي فيها يبرم كل أمر حكيم وليست ليلة النصف من شعبان كما يزعم بعض الناس

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الحكمة من إنزاله مفرقا عند قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29].

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

القدر: الرفعة، والقدر: بمعنى المقدار.

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء ووجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان

أحدهما: أن معنى القدر الشرف والرفعة كما تقول العرب فلان ذو قدر أي رفعة وشرف

الوجه الثاني أنها سميت ليلة القدر لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ [الدخان:4-5] .

وهذا المعنى قد ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان من الأضواء

والواقع أن في السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة وهو قوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ .

فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم كقوله ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ وقوله: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها إذ أنها تعدل في الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة أي فوق متوسط أعمار هذه الأمة.

وأيضا كونها اختصت بإنزال القرآن فيها وبتنزل الملائكة والروح فيها وبكونها سلاما هي حتى مطلع الفجر لفيه الكفاية بما لم تختص وتشاركها فيه ليلة من ليالي السنة

وعليه فلا مانع من أن تكون سميت بليلة القدر لكونها محلا لتقدير الأمور في كل سنة وأنها بهذا وبغيره علا قدرها وعظم شأنها والله تعالى أعلم تذكير بنعمة كبرى

إذا كانت أعمال العبد تتضاعف في تلك الليلة حتى تكون خيرا من ألف شهر كما في هذا النص الكريم فإذا صادفها العبد في المسجد النبوي يصلي وصلاة فيه بألف صلاة فكم تكون النعمة وعظم المنة من المنعم المتفضل سبحانه إنه لما يعلي الهمة ويعظم الرغبة

وقد اقتصرت على ذكر المسجد النبوي دون المسجد الحرام مع زيادة المضاعفة

فيه لأن بعض المفسرين قال بمضاعفة السيئة فيها

كذلك أي أن المعصية في ليلة القدر كالمعصية في ألف شهر والمسجد الحرام يحاسب فيه العبد على مجرد الإرادة فيكون الخطر أعظم وفي المدينة أسلم

ولعل ما يؤيد ذلك أن ليالي القدر كلها كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وقد أثبتها أهل السنة كافة وادعت الشيعة نسخها ورفعها كلية وهذا لا يلتفت إليه لصحة النصوص وشبه المتواترة

تنبيه

لم يأت تحديد لتلك الليلة من أي رمضان تكون وقد أكثر العلماء في ذلك القول وإيراد النصوص

فالأقوال منها على أعم ما يكون من أنها من عموم السنة وهذا لم يأت بحديد وهو عن ابن مسعود وإنما أراد الاجتهاد.

ومنها أنها في عموم رمضان وهذا حسب عموم نص القرآن

ومنها أنها في العشر الأواخر منه وهذا أخص من الذي قبله

ومنها أنها في الوتر من العشر الأواخر وهذا أخص من الذي قبله

ومنها أنها في آحاد الوتر من العشر الأواخر.

فقيل في إحدى وعشرين.

وقيل ثلاث وعشرين.

وقيل خمس وعشرين.

وقيل سبع وعشرين.

وقيل تسع وعشرين.

وقيل آخر ليلة من رمضان على التعيين وفي كل من ذلك نصوص

ولكن أشهرها وأكثرها وأصحها ما جاء أنها في سبع وعشرين وإحدى

وعشرين ولا حاجة إلى سرد النصوص الواردة في كل ذلك فلم يبق كتاب من كتب التفسير إلا ذكرها ولا سيما ابن كثير والقرطبي.

تنبيه

إذا كانت كل النصوص التي وردت في الوتر من العشر الأواخر صحيحة فإنه لا يبعد أن تكون ليلة القدر دائرة بينها وليست بلازمة في ليلة منها ولا تخرج عنها فقد تكون في سنة هي ليلة إحدى وعشرين بينما في سنة أخرى ليلة خمس أو سبع وعشرين وفي أخرى ليلة ثلاث أو تسع وعشرين وهكذا والله تعالى أعلم

وقد حكى هذا الوجه ابن كثير عن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وقال وهو الأشبه والله تعالى أعلم

وقد قيل إنه صلى الله عليه وسلم قد أنسيها لتجتهد الأمة في الشهر كله أو في العشر كلها ومما يؤكد أنها في العشر الأواخر اعتكافه صلى الله عليه وسلم التماسا لليلة القدر.

وقد جاء في فضلها ما استفاضت به كتب الحديث والتفسير ويكفي فيها نص القرآن الكريم

وفي هذه الليلة مباحث عديدة يطول تتبعها منها ما يذكر من أماراتها

ومنها محاولة البعض استخراجها من القرآن

ومنها علاقتها بحكم بني أمية وليس على شيء من ذلك نص يمكن التعويل عليه لذا لا حاجة إلى إيراده اللهم إلا ما جاء في بعض أمارات نهارها صبيحتها حيث جاء التنويه عن شيء منه في الحديث "ورأيتني أسجد صبيحتها في ماء وطين".

فذكروا من علامات يومها أن تطلع الشمس بيضاء وقالوا لأن أنوار الملائكة عند صعودها تتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء وهذا مروي عن أبي في صحيح مسلم

ومنها اعتدال هوائها وجوها ونحو ذلك ومما يمكن أن يكون له صلة بالسورة ذاتها ما حكاه ابن كثير أن بعض السلف أراد استخراجها من كتاب الله في نفس السورة فقال إن كلمة ﴿هِيَ﴾ في قوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ تقع السابعة

والعشرين من عد كلماتها فتكون ليلة سبع وعشرين

وقيل أيضا إن حروف كلمة ليلة القدر تسعة أحرف وقد تكررت ثلاث مرات فيكون مجموعها سبعة وعشرين حرفا فتكون ليلة سبع وعشرين.

ولعل أصوب ما يقال هو ما قدمنا من أنها تتصل في ليالي الوتر من العشر الأواخر ولا تخرج عنها والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .

قيل الروح هو جبريل كما في قوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ ويكون فيها أي في جماعة الملائكة أو معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام

وقيل إن الروح نوع من الملائكة مستقل ويكون فيها ظرف للنزول أي في تلك الليلة

قوله تعالى: ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .

الأمر يكون واحد الأمور وواحد الأوامر والذي يظهر أنه شامل لهما معا لأن الأمر من الأمور لا يكون إلا بأمر من الأوامر ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس:82] .

ويشهد له ما جاء في شأنها في سورة الدخان ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ [الدخان:4-5] .

والذي يفرق من الأمر هو أحد الأمور حيث يفصل بين الخير والشر والضر والنفع إلى آخره ثم قال ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ كما أشار إليه السياق ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الدخان:8] فكل أمر من الأمور يقتضي أمرا من الأوامر وهذا يمكن أن يكون من الألفاظ المشتركة المستعملة في معنييها والله تعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

قيل: ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ أي أن الملائكة تسلم على كل مؤمن لقيته

وقيل: ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ أي كل أمر فيها فهو سلام ولا يصاب أحد فيها بسوء وعلى كل فلا تعارض بين القولين فالأول جزء من الثاني لأن الثاني يجعلها ظرفا لكل خير وينفي عنها كل شر ومن الخير العظيم سلام الملائكة على المؤمنين.

لطيفة

كون إنزال القرآن هنا في الليل دون النهار مشعر بفضل اختصاص الليل

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره فمن القرآن قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ ومنه قوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ [الاسراء:79] ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق:40] ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل:6] وقوله: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذريات:17] .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان ثلث الليل الآخر ينزل ربنا إلى سماء الدنيا الحديث.

وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية وبتجليات الرب سبحانه لعباده وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون الليل ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه

(38/9)

سورة البينة

قال الألوسي: وتسمى سورة القيامة وسورة البلد وسورة المنفكين وسورة البرية وسورة لم يكن

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

ذكر هنا ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ثم جاءت ﴿ مِنْ ﴾ وجاء بعدها ﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلا من أهل الكتاب والمشركين كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من أهل الكتاب لوجود العطف وأن أهل الكتاب ليسوا من المشركين

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير واتفقوا على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وأن المشركين هم عبدة الأوثان والكفر يجمع القسمين.

وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضا أم لا ؟

فبين الفريقين عموم وخصوص عموم في الكفر وخصوص في أهل الكتاب لليهود والنصارى وخصوص في المشركين لعبدة الأوثان.

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضا كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ

بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:30-31].

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكا.

وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية وقال وهل كبر إشراكا من قولها ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ [الكهف:4] فهو وإن كان مخالفا للجمهور في منع الزواج من الكتابيات إلا أنه اعتبرهن مشركات

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع في مسمى الشرك هل يشمل أهل الكتاب أم لا مع أننا وجدنا فرقا في الشرع في معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين فأحل ذبائح أهل الكتاب ولم يحلها من المشركين وأحل نكاح الكتابيات ولم يحله من المشركات كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:221] .

وقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:10] .

وقال: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:10] بين ما في حق الكتابيات قال: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:5] فكان بينهما مغايرة في الحكم.

وقد جمع والدنا الشيخ محمد الأمين رحمه الله تعالى علينا وعليه بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:30] المتقدم ذكرها جمعا مفصلا مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة أنواع وأهل الكتاب متصفون ببعض دون بعض إلى آخر ما أورده رحمه الله تعالى علينا وعليه ولعل في نفس آية ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة:30] أي يشابهونهم في مقالتهم وهذا القدر اتصف به المشركون من أنواع الشرك

الثاني: تذييل الآية بصيغة المضارع﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:من الآية190] بين ما وصف عبدة الأوثان في سورة البينة بالاسم ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ .

ومعلوم أن صيغة الفعل تدل على التجدد والحدوث وصيغة الاسم تدل على الدوام والثبوت فمشركو مكة وغيرهم دائمون على الإشراك وعبادة الأصنام وأهل الكتاب يقع منهم حينا وحينا

وقد أخذ بعض العلماء أن الكفر ملة واحدة فورث الجميع من بعض ومنع الآخرون على أساس المغايرة والعلم

عند الله تعالى.

تنبيه

بقي المجوس وجاءت السنة أنهم يعاملون معاملة أهل الكتاب لحديث"سنوا بهم سنة أهل الكتاب" .

وقوله تعالى: ﴿ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ اختلف في ﴿ مُنْفَكِّينَ﴾ اختلافا كثيرا عند جميع المفسرين حتى قال الفخر الرازي عند أول هذه السورة ما نصه قال الواحدي في كتاب البسيط هذه الآية من أصعب ما في القرآن العظيم نظما وتفسيرا وقد تخبط فيها الكبار من العلماء

ثم إنه رحمه الله لم يلخص كيفية الإشكال فيها.

وأنا أقول وجه الإشكال أن تقدير الآية﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ التي هي الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إنه لم يذكر أنهم منفكون عما ذا لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه.

فصار التقدير لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية تناقض في الظاهر هذا منتهى الإشكال فيم أظن ا ه حرفيا .

وقد سقت كلامه لبيان مدى الإشكال في الآيتين وهو مبني على أن﴿ مُنْفَكِّينَ﴾ بمعنى تاركين وعليه جميع المفسرين.

والذي جاء عن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه أن﴿ مُنْفَكِّينَ﴾ أي:

مرتدعين عن الكفر والضلال ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي أتتهم.

ولكن في ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ وجه يرفع هذا الإشكال وهو أن تكون ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين أي لم يكونوا جميعا متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة على معنى قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:36] وقوله: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:2] أي لن يتركوا وقريب منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود:53].

وقد حكى أبو حيان قولا عن ابن عطية قوله ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى وذلك أن يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولا منذرا تقوم عليهم به الحجة ويتم على من آمن النعمة فكأنه قال ما كانوا ليتركوا سدى ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى ا ه

فقول ابن عطية يتفق مع ما ذكرناه ويزيل الإشكال الكبير عن المفسرين كما أسلفنا

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول في ذلك نسوقه لشموله وهو ضمن كلامه على هذه السورة في المجموع مجلد 61 ص 594 قال:

وفي معنى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ هؤلاء وهؤلاء ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد 7 من المفسرين.

هل المراد لم يكونوا منفكين عن الكفر؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث فلم يكونوا منفكين من محمد والتصديق بنبوته حتى بعث

أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول.

وناقش تلك الأقوال وردها كلها ثم قال فقوله ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾ أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه

لا حجر عليهم كما أن المنفك لاحجر عليه وهو لم يقل مفكوكين بل قال ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ وهذا أحسن إلى أن قال والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولا ترسل إليهم رسل

والمعنى أن الله لا يخليهم ولا يتركهم فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولا وهذا كقوله﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:36] لا يؤمر ولا ينهي أي أيظن أن هذا يكون هذا ما لا يكون ألبتة بل لا بد أن يؤمر وينهي.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:3-5] . وهذا استفهام إنكار أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ونعرض عن إرسال الرسل

تبين من ذلك كله أن الأصح في ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ معنى متروكين وبه يزول الإشكال الذي أورده الفخر الرازي ويستقيم السياق ويتضح المعنى وبالله تعالى التوفيق

قوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أجمل البينة ثم فصلها فيما بعدها ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا ﴾ .

وفي هذا قيل إن البينة هي نفس لرسول في شخصه لما كانوا يعرفونه قبل مجيئه كما في قوله ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:6] وقوله: ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:146] .

فكأن وجوده صلى الله عليه وسلم بذاته بينة لهم

ولذا جاء في الآثار الصحيحة أنهم عرفوا يوم مولده بظهور نجم نبي الختان إلى آخر أخباره صلى الله عليه وسلم وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا وكذلك المشركون كانوا يعرفونه عن طريق أهل الكتاب وبما كان متصفا به صلى الله عليه وسلم ومن جميل الصفات كما قالت له خديجة عند بدء الوحي وفزعه منه كلا والله لن يخزيك الله والله إنك لتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر إلى آخره

وقول عمه أبي طالب: والله ما رأيته لعب مع الصبيان ولا علمت عليه كذبة إلخ وقد لقبوه بالأمين

وحادثة شق الصدر في رضاعه بل وقيل ذلك في قصة أبيه عبد الله لما تعرضت له المرأة تريده لنفسها فأبى ولما تزوج ودخل بآمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم لقيها بعد ذلك فقالت له لا حاجة لي بك فقال: وكيف كنت تتعرضين لي؟ فقالت: رأيت نورا في وجهك فأحببت أن يكون لي فلما تزوجت وضعته في آمنة ولم أره فيك الآن فلا حاجة لي فيك.

فكلها دلائل على أنه صلى الله عليه وسلم كان في شخصه بينة لهم ثم أكرمه الله بالرسالة فكان رسولا يتلو صحفا مطهرة من الأباطيل والزيغ وما لا يليق بالقرآن

ومما استدل به لذلك قوله تعالى عنه ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب:46] فعليه يكون ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ بدل من ﴿ الْبَيِّنَةُ﴾ مرفوع على البدلية أو أن البينة ما يأتيهم به الرسول مما يتلوه عليهم من الصحف المطهرة فيها كتب قيمة.

فالتشريع الذي فيها والإخبار الذي أعلنه تكون البينة وعلى كل فإن البينة تصدق على الجميع كما تصدق على المجموع ولا ينفك أحدهما عن الآخر فلا رسول إلا برسالة تتلى ولا رسالة تتلى إلا برسول يتلوها

وقد عرف لفظ البينة للإشارة إلى وجود علم عنها مسبق عليها

فكأنه قيل حتى تأتيهم البينة الموصوفة لهم في كتبهم ويشير إليها ما قدمنا في أخبار عيسى عليه السلام عنه وآخر سورة الفتح ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ [الفتح:29].

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ﴾ جمع كتاب وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه ﴿ كُتُبٌ ﴾ بمعنى مكتوبات.

وقال ابن جرير في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة يذكر القرآن بأحسن الذكر ويثني عليه بأحسن الثناء وحكاه ابن كثير واقتصر عليه

وقال القرطبي: إن الكتب بمعنى الأحكام مستدلا بمثل قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:183] وقوله: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:21].

وقيل الكتب القيمة هي القرآن فجعله كتبا لأنه يشتمل على أبواب من البيان

وذكر الفخر الرازي أنه يحتمل في ﴿كُتُبٌ﴾ أي الآيات المكتوبة في المصحف وهو قريب من قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه.

وقال الشوكاني المراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها وهذه المعاني وإن كانت صحيحة إلا أن ظاهر اللفظ أدل على تضمن معنى ﴿كُتُبٌ﴾ منه على معنى كتابة أحكام

والذي يظهر أن مدلول ﴿كُتُبٌ﴾ على ظاهرها وهو تضمن تلك الصحف المطهرة لكتب سابقة قيمة كما ينص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:16-17] ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:18-19] وكقوله في عموم الكتب الأولى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الاحقاف:30] وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [آل عمران:3-4].

ولذا قال ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:114] أي بما فيه من كتبهم القيمة المتقدم إنزالها كما في قوله ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النور:34].

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:76].

وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:92] ونحو ذلك من الآيات مما يدل على أن آي القرآن متضمنة كتبا قيمة مما أنزلت من قبل وقد جاء عمليا في آية الرحمن وقوله ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ [المائدة:45] أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة:45] فهذه من الكتب القيمة التي تضمنها القرآن الكريم كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:179].

ولعل هذا بين وجه المعنى فيما رواه المفسرون عن الإمام أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب أمرت أن أقرأ عليك سورة البينة فقال أو ذكرت ثم

(45/9)

وبكى رضي الله عنه لأن فيها زيادة طمانينة له على إيمانه بأنه آمن بكتاب تضمن الكتب القيمة المتقدمة والتي يعرفها عبد الله بن سلام أن الرجم في التوراة لما غطاها الآتي بها كما هو معروف في القصة والعلم عند الله تعالى.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يلاحظ أن السورة في أولها عن الكفار عموما من أهل الكتاب والمشركين معا وهنا الحديث عن أهل الكتاب فقط وذلك مما يخصهم في هذا المقام دون المشركين وهو أنهم لأنهم أهل كتاب وعندهم علم به صلى الله عليه وسلم وبما سيأتي به وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وكقوله صراحة: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:14] فلمعرفتهم به قبل مجيئه واختلافهم فيه بعد مجيئه وخصهم هنا بالذكر في قوله ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:4] .

تنبيه

مما يدل على ما ذكرنا من معنى ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أمران من كتاب الله.

الأول منهما اختصاص ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هنا بعدم عموم الحديث من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما قدمنا من نصوص.

الثاني أن القرآن لم ذكر الرسول يتلو على المشركين قال: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة:2] فهذا نفس الأسلوب ولكن قال آياته لأنهم لم يكن لهم علم بالكتب الأخرى فاقتصر على

الآيات

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ .

وهذا لا يستوجب التفرق في أمره صلى الله عليه وسلم

ولكن هنا لم يبين موضع الأمر عليهم بعبادة الله مخلصين له الدين هل هو في كتبهم السابقة أم في هذا القرآن الذي يتلى عليهم في صحف مطهرة.

وقد بين القرآن العظيم أن هذا الأمر موجود في كل من كتبهم والقرآن الكريم

فما في كتبهم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [النحل:36] .

وقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا ﴾ [الشورى:13] .

فإقامة الدين وعدم التفرقة فيه هو عين عبادة الله مخلصين له الدين

ومما في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة:40-43] .

فقد نص على كامل المسألة هنا أن الكتب القيمة المنصوص عليها في الصحف المطهرة هي كتب أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة:41] وأنهم أمروا في هذا القرآن بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع التعليمات المذكورة نفسها وإقام الصلاة لا يكون إلا عبادة الله بإخلاص

وهذه الأوامر سواء كانت في كتبهم أو في القرآن لا تقتضي التفرق بل تستوجب الاجتماع والوحدة

قوله تعالى: ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ .

﴿ الْقَيِّمَةِ﴾ فيعلة من القوامة وهي غاية الاستقامة

وقد جاء بعد قوله: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي مستقيمة بتعاليمها.

وقد نص تعالى على أن القرآن أقومها وأعدلها كما في قوله ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الاسراء:9] وقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّمًا﴾ [الكهف:1-2] فنفى عنه العوج وأثبت له الاستقامة

وهذا غاية في القوامة كما قدمنا من قبل من أن المستقيم قد يكون فيه انحناء كالطريق المعبد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات لكنه ينحرف تارة يمينا وشمالا

مع استقامته فهو مع الاستقامة لم يخل من العوج

ولكن ما ينتفي عنه العوج وتثبت له الاستقامة هو الطريق الذي يمتد في اتجاه واحد بدون أي عوجاج إلى أي الجانبين مع استقامته في سطحه.

وهكذا هو القرآن فهو الصراط المستقيم ولذا قال تعالى ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ الملة القيمة قيمة في ذاتها وقيمة على غيرها ومهيمنة عليه وكقوله ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة:36] وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:162-163] .

تنبيه

إن في هذه الآية ردا صريحا على أولئك الذين ينادون بدون علم إلى دعوة لا تخلو من تشكيك حيث لم تسلم من لبس وهي دعوة وحدة الأديان ومحل اللبس فيها أن هذا القول منه حق ومنه باطل

أما الحق فهو وحدة الأصول كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأما الباطل فهو الإبهام بأن هذا ينجر على الفروع مع الجزم عند الجميع بأن فروع كل دين قد لا تتفق كلها مع فروع الدين الآخر فلم تتحد الصلاة في جميع الأديان ولا الصيام ونحو ذلك.

وقد أجمع المسلمون على أن العبرة بما في القرآن من تفصيل للفروع والسنة تكمل تفصيل ما أجمل

وهنا النص الصريح بأن ذلك الذي جاء به القرآن هو دين القيمة وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم وهي أفعل تفضيل فلا يمكن أن يعادل ويساوي مع غيره أبدا مع نصوص القرآن بأن الله أخذ العهد على جميع الأنبياء لئن أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه وأخذ عليهم العهد بذلك وقد أخبر الرسل أممهم بذلك فلم يبق مجال في هذا الوقت ولا غيره لدعوة الجاهلية بعنوان مجوف وحدة الأديان بل الدين الإسلامي وحده ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19] ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:85] وبالله تعالى التوفيق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ .

قرئت البرية بالهمزة وبالياء فقرأ بالهمز نافع وابن ذكوان والباقون بالياء فاختلف في أخذها

قال القرطبي قال الفراء إن أخذت البرية من البراءة بفتح الباء والراء أي التراب فأصله غير مهموز بقوله منه براه الله يبروه بروا أي خلقه وقيل البرية من بريت القلم أي قدرته

وقد تضمنت هذه الآية مسألتين

الأولى: منهما أن أولئك في نار جهنم خالدين فيها ومبحث خلود الكفار في النار تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وافيا.

والمسألة الثانية أنهم شر البرية والبرية أصلها البريئة قلبت الهمزة ياء تسهيلا وأدغمت الياء في الباء والبريئة

الخليقة والله تعالى بارئ النسم هو الخالق البارئ المصور سبحانه

ومن البرية الدواب والطيور وهنا النص على عمومه فأفهم أن أولئك شر من الحيوانات والدواب

وقد جاء النص صريحا في هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:22] وقد بين أن المراد بهم الكفار في قوله ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:23] وقال عنهم: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:40] فهم لصممهم وعماهم في ضلال مبين.

وقد ثبت أن الدواب ليست في ضلال مبين لأنها تعلم وتؤمن بوحدانية الله كما جاء في هدهد سليمان أنكر على بلقيس وقومها سجودهم للشمس والقمر من دون الله.

ونص مالك في الموطأ في فضل يوم الجمعة أنه "وما من دابة إلا تصيخ بأذنها من

(49/9)

فجر يوم الجمعة إلى طلوع الشمس خشية الساعة" وهذا كله ليس عند الكافر منه شيء ثم في الآخرة لما يجمع الله جميع الدواب ويقتص للعجماء من القرناء فيقول لها كوني ترابا فيتمنى الكافر لو كان مثلها فلم يحصل له كما قال: ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:40] .

وذلك والله تعالى أعلم أن الدواب لم تعمل خيرا فتبقى لتجازى عليه ولم تعمل شرا لتعاقب عليه فلك لا لها ولا عليها إلا ما كان فيما بينها وبين بعضها فلما اقتص لها من بعضها انتهي أمرها فكانت نهايتها عودتها إلى منبتها وهو التراب بخلاف الكافر فإن عليه حساب التكاليف وعقاب المخالفة فيعاقب بالخلود في النار فكان شر البرية.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ .

الحكم هنا بالعموم كالحكم هناك ولكنه هنا بالخيرية والتفضيل

أما من حيث الجنس فلا إشكال لأن الإنسان أفضل الأجناس ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ .

وأما من حيث العموم فقال بعض العلماء فيها مايدل على أن صالح المؤمنين أفضل من الملائكة

ولعل مما يقوي هذا الاستدلال هو أن بعض أفراد جنس الإنسان أفضل من عموم أفراد جنس الملائكة وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وإذا فضل بعض أفراد الجنس لا يمنع في البعض الآخر ولكن هل بعض أفراد الأمة بعده أفضل من عموم أو بعض أفراد الملائكة هذا هو محل الخلاف

وللقرطبي مبحث في ذلك مبناه على أصل المادة وورود النصوص من جهة أصل المادة إن كانت البرية ماخوذة من البري وهو التراب فلا تدخل الملائكة تحت هذا التفضيل وإلا فتدخل

وأما من جهة النصوص فقال في سورة البقرة عند قوله ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33] قال المسألة الثالثة اختلف العلماء في هذا الباب أيهما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين فذهب قول إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة

وذه ب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل واحتج من فضل الملائكة بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وقوله: ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:من الآية6] وقوله ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:50] .

وبما في البخاري "يقول الله من ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منه" وهذا نص على أن الملأ الأعلى خير من ملا الأرض.

واحتج من فضل بني آدم بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ .

بالهمز من برأ الله الخلق وقوله صلى الله عليه وسلم "إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم" أخرجه

أبو داود.

وبأن الله يباهي بأهل عرفات الملائكة ولا يباهي إلا بالأفضل والله تعالى أعلم

وقال بعض العلماء ولا طريق إلى القطع بأن الملائكة خير منهم لأن طريق ذلك خبر الله وخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجماع الأمة.

وليس ها هنا شيء من ذلك خلافا للقدرية والقاضي أبي بكر حيث قالوا الملائكة أفضل قال وأما من قال من أصحابنا والشيعة إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم إلى آخره.

ثم رد هذا الاستدلال.

وقد سقنا هذا البحث لبيان الخلاف في هذه المسألة المشتمل عليها لفظ البرية وأعتقد أن المفاضلة جزئية لا كلية وذلك أن جنس البشر خلاف جنس الملائكة والملائكة فيهم النص بأنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الانبياء:26] والبشر فيهم النص ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الاسراء:70] والفرق بينهما كالفرق بين الاسم والفعل في الدلالة.

ففي الملائكة بالاسم ﴿مُكْرَمُونَ﴾ وهو يدل على الدوام والثبوت وفي بني آدم ﴿كَرَّمْنَا﴾ وهو يدل على التجدد والحدوث.

وهذا هو الواقع فالتكريم ثابت ولازم ودائم للملائكة بخلافه في بني آدم إذ فيهم

وفيهم ولا يبعد أن يقال إن التفضيل في الأعمال من حيث صدورها من بني آدم ومن الملائكة إذ الملائكة تصدر عنهم أعمال الخير جبلة أو بدون نوازع شر بخلاف بني آدم وإن أعمال الخير تصدر عنها بمجهود مزدوج ركبت فيهم النفس اللوامة والأمارة بالسوء ونحو ذلك من الجانب الحيواني

وازدواجية المجهود هو أنه ينازع عوامل الشر حتى يتغلب عليها ويبذل الجهد في فعل الخير فهو يجاهد للتخليص

من نوازع الشر هو يجاهد للقيام بفعل الخير وهذا مجهود يقتضي التفضيل على المجهود من جنب واحد .

وقد جاء في السنة ما يشهد لذلك لما ذكر صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يأتي بعدهم من أن العامل منهم له أجر خمسين فقالوا خمسين منا أو منهم يا رسول الله قال "بل خمسين منكم لأنكم تجدون أعوانا على الخير وهم لا يجدون" .

وحديث "سبق درهم مائة ألف درهم" وبين صلى الله عليه وسلم أن الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة لأنه ثاني اثنين فقط والمائة ألف جزء من مجموع كثير.

فالنفس التي تجود بنصف ما تملك ولا يتبقى لها إلا درهم خير بكثير ممن تنفق جزءا ضئيلا مما تملك ويتبقى لها المال الكثير فكانت عوامل التصدق ودوافعه مختلفة منوعة في النفس متضادة فالدرهم في ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى لم تتفاوت الماهية ولا الجنس ولكن تفاوتت الدوافع والعوامل لإنفاقه ولعل المفاضلة المقصودة تكون من هذا القبيل أولى والله تعالى أعلم﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ فيه أربع مسائل ثلاثة مجملة جاء بيانها في القرآن والرابعة مفصلة ولها شواهد وأما الثلاثة المجملة فأولها قوله ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إذ الجزاء في مقابل شيء يستوجبه و﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ تشعر بأنه تفضل منه وإلا لقال جزاؤهم على ربهم.

وقد بين ذلك صريح قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ [النبأ:31-36] فنص على أن هذا الجزاء كله من ربهم عطاء لهم من عنده.

الثانية والثالثة قوله ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فأجمل ما في الجنات ونص على أنها تجري من تحتها الأنهار مع إجمال تلك الأنهار وقد فصلت آية﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ:1] ما أعد لهم في الجنة من

حدائق وأعناب وكواعب وشراب وطمانينة وعدم سماع اللغو إلى آخره كما جاء تفصيل الأنهار في سورة القتال في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [محمد:15] والخلود في هذا النعيم هو تمام النعيم

قوله تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

يعتبر هذا الإخبار من حيث رضوان الله تعالى على العباد في الجنة من باب العام بعد الخاص

وقد تقدم في سورة الليل في قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل:17-21] واتفقوا على أنها في الصديق رضي الله عنه كما تقدم وجاء في التي بعدها سورة والضحى قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى:5] أي للرسول صلى الله عليه وسلم وهنا في عموم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ فهي عامة في جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم ثم قال: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ وقد جاء ما يبين سبب رضوان الله تعالى عليهم وهو بسبب أعمالهم كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:18] فكانت المبايعة سببا للرضوان.

وفي هذة الآية الإخبار بأن الله رضي عنهم ورضوا عنه ولم يبين زمن هذا الرضوان أهو سابق في الدنيا أم حاصل في الجنة وقد جاءت آية تبين أنه سابق في الدنيا وهي قوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:100] فقوله تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ثم يأتي بعدها ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ .

فهو في قوة الوعد في المستقبل فيكون الإخبار بالرضى مسبقا عليه

وكذلك آية سورة الفتح في البيعة تحت الشجرة إذ فيها ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:18] وهو إخبار بصيغة الماضي وقد سميت :بيعة الرضوان.

تنبيه

في هذا الأسلوب الكريم سؤال وهو أن العبد حقا في حاجة إلى أن يعلم رضوان الله تعالى عليه لأنه غاية أمانيه كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

أما الإخبار عن رضي العبد عن الله فهل من حق العبد أن يسأل عما إذا كان هو راضيا عن الله لا إنه ليس من حقه ذلك قطعا فيكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة وهي أنهم في غاية من السعادة والرضى فيما هم فيه من النعيم إلى الحد الذي رضوا تجاوز رضاهم حد النعيم إلى الرضى عن المنعم

كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية"النبأ": ﴿ عَطَاءً حِسَابًا﴾ قالوا إنهم يعطون حتى يقولوا حسبنا حسبنا أي كافينا .

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ .

اسم الإشارة منصب على مجموع الجزاء المتقدم وقد تقدم أنه للذين آمنوا وعملوا الصالحات وهنا يقول إنه ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ مما يفيد أن تلك الأعمال تصدر منهم عن رغبة ورهبة

رغبة فيما عند الله ورهبة من الله ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46] وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:40-41] .

والواقع أن صفة الخوف من الله تعالى هي أجمع صفات الخير في الإنسان لأنها صفة للملائكة المقربين كما قال تعالى عنهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:50] .

وقد عم الحكم في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:12].

وفي هذه الآية السر الأعظم وهو كون الخشية في الغيبة عن الناس وهذا أعلى مراتب المراقبة لله والخشية أشد الخوف.

(55/9)

سورة الزلزلة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ الزلزلة الحركة الشديدة بسرعة ويدل لذلك فقه اللغة من وجهين:

الأول: تكرار الحروف أو ما يؤل تكرار المقطع الواحد مثل صلصل وقلقل وزقزق فهذا التكرار يدل على الحركة.

والثاني: وزن فعل بالتضعيف كغلق وكسر وفتح فقد اجتمع في هذه الكلمة تكرار المقطع وتضعيف الوزن ولذا فإن الزلزال أشد ما شهد العالم من حركة وقد شوهدت حركات زلزال في أقل من ربع الثانية فدمرنا وحطم قصورا.

ولذا فقد جاء وصف هذا الزلزال بكونه شيئا عظيما في قوله تعالى ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1] ويدل على هذه الشدة تكرار الكلمة في زلزلت وفي زلزالها كما تشعر به هذه الإضافة

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إيراد النصوص المبينة لذلك في أول سورة الحج كقوله تعالى ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:14] وقوله ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة:4-5] وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ وساق قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ

الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ .

واختلف في الأثقال ما هي على ثلاثة أقوال

(56/9)

فقيل: موتاها وقيل: كنوزها وقيل: التحدث بما عمل عليها الإنسان ولعل الأول أرجح هذه الثلاثة لأن إخراج كنوزها سيكون قبل النفخة والتحدث بالأعمال منصوص عليه بذاته فليس هو الأثقال ورجحوا القول الأول لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ [المرسلات:25-26] .

وقالوا الإنس والجن ثقلان على ظهرها فهما ثقل عليها وفي بطنها فهم ثقل فيها ولذا سميا بالثقلين قال الفخر الرازي وابن جرير.

وروي عن ابن عباس أنه موتاها.

وشبيه بذلك قوله: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق:3-4] ولا يبعد أن يكون الجميع إذا راعينا صيغة الجمع أثقالها ولم يقل ثقلها وإرادة الجمع مروية أيضا عن ابن عباس ذكره الألوسي وابن جرير عنه وعن مجاهد.

وحكى الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه القولين في إملائه أي موتاها وقيل كنوزها

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ لفظ الإنسان هنا عام وظاهره أن كل إنسان يقول ذلك ولكن جاء ما يدل على أن الذي يقول ذلك هو الكافر أما المؤمن فيقول ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:52] وذلك في قوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:51-52] .

فالكافر يدعو بالويل والمؤمن يطمئن للوعد ومما يدل على أن الجواب من المؤمنين لا من الملائكة كما يقول بعض الناس ما جاء في آخر السياق قوله ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ ﴾ أي كلا الفريقين ﴿ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ وقوله: ﴿ مَا

لَهَا ﴾ سؤال استيضاح وذهول من هول ما يشاهد.

وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ التحديث هنا صريح في الحديث وهو على حقيقته لأن في ذلك اليوم تتغير أوضاع كل شيء وتظهر حقائق كل شيء وكما أنطق الله الجلود ينطق الأرض فتحدث بأخبارها ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا

(57/9)

أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:21] وتقدم تفصيل ذلك عند أول سورة الحشر لأن الله أودع في الجمادات القدرة على الإدراك والنطق والمراد بإخبارها أنها تخبر عن أعمال كل إنسان عليها في حال حياته ومما يشهد لهذا المعنى حديث المؤذن "لا يسمع صوته حجر ولا مدر إلا وشهد له يوم القيامة" وذكر ابن جرير وجها آخر وهو أن إخبارها هو ما أخرجته من أثقالها بوحي الله لها والأول أظهر لأنه يثبت معنى جديدا ويشهد له الحديث الصحيح.

قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ .

في هاتين الآيتين مبحثان أحدهما في معنى ﴿ مَنْ ﴾ لعمومه والآخر في صيغة ﴿ يَعْمَلْ ﴾ .

أما الأول فهو مطروق في جميع كتب التفسير على حد قولهم ﴿ مَنْ ﴾ للعموم المسلم والكافر مع أن الكافر لا يرى من عمل الخير شيئا لقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:23] وفي حق المسلم قد لا يرى كل ما عمل من شر لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:48].

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة بتوسع في دفع إيهام الاضطراب بما يغني عن إيراده أما المبحث الثاني فلم أر من تناوله بالبحث وهو في صيغة يعمل لأنها صيغة مضارع وهي للحال والاستقبال والمقام في هذا السياق ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ وهو يوم البعث وليس هناك مجال للعمل وكان مقتضى

السياق أن يقال فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع والمقام ليس مقام عمل ولكن في السياق ما يدل على أن المراد يعمل مثقال ذرة أي من الصنفين ما كان من ذلك لقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ فهم إنما يروا في ذلك اليوم أعمالهم التي عملوها من قبل فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات حيث كان السياق أولا من أول

(58/9)

السورة في معرض الإخبار عن المستقبل إذا زلزلت الأرض زلزالها وإذا أخرجت الأرض أثقالها وإذا قال الإنسان ما لها في ذلك اليوم الآتي تحدث أخبارها وفي ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم التي عملوها من قبل كما في قوله ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ:40] وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ [الكهف:49].

ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير فمن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة شرا يره في الآخرة ومثقال الذرة قيل هي النملة الصغيرة لقول الشاعر

من القاصرات الطرف لو دب محول. . . من الذر فوق الإتب منها لأثرت

والإتب قال في القاموس الإتب بالكسر والمئبة كمكنسة برد يشق فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين وقيل هي الهباء التي ترى في أشعة الشمس وكلاهما مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما

وسيأتي زيادة إيضاح لكيفية الوزن في سورة القارعة إن شاء الله

ولعل ذكر الذرة هنا على سبيل المثال لمعرفتهم لصغرها لأنه تعالى عمم العمل في قوله ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ:40] أيا كان هو مثقال ذرة أو مثاقيل القناطير وقد جاء النص صريحا بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس:61].

وهنا تنبيهان الأول من ناحية الأصول وهو أن النص على مثقال الذرة من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى فلا يمنع رؤية مثاقيل الجبال بل هي أولى وأحرى

وهذا عند الأصوليين ما يسمى الإلحاق بنفي الفارق وقد يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به وقد يكون مساويا له فمن الأول هذه الآية وقوله ﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الاسراء:23] ومن المساوي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء:10] فإن إحراق ماله وإغراقه

(59/9)

ملحق بأكله بنفي الفارق وهو مساو لأكله في عموم الإتلاف عليه وهو عند الشافعي ما يسمى القياس في معنى الأصل أي النص.

التنبيه الثاني في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴾ [يونس:61].

رد على بعض المتكلمين في العصر الحاضر والمسمى بعصر الذرة إذ قالوا لقد اعتبر القرآن الذرة أصغر شيء وأنها لا تقبل التقسيم كما يقول الملحدة إنها الجوهر الفرد الذي لا يقبل الانقسام

وجاء العلم الحديث ففتت الذرة وجعل لها أجزاء ووجه الرد على تلك المقالة الجديدة على آيات من كتاب الله هو النص الصريح من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك إلا في كتاب

فمعلوم ذلك عند الله ومثبت في كتاب ما هو أصغر من الذر ولا حد لهذا الأصغر بأي نسبة كانت فهو شامل لتفجير الذرة ولأجزائها مهما صغرت تلك الأجزاء.

سبحانك ما أعظم شأنك وأعظم كتابك وصدق الله إذ يقول ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:38].

(60/9)

سورة العاديات

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه العاديات جمع عادية﴿ وَالْعَادِيَاتِ﴾ المسرعات في مسيرها .

فمعنى العاديات أقسم بالمسرعات في سيرها.

ثم قال وأكثر العلماء على أن المراد به الخيل تعدو في الغزو والقصد تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله

وقال بعض العلماء المراد بالعاديات الإبل تعدو بالحجيج من عرفات إلى مزدلفة ومنى

ومعنى قوله ﴿ ضَبْحاً﴾ أنها تضبح ضبحا فهو مفعول مطلق والضبح صوت أجواف الخيل عند جريها

وهذا يؤيد القول الأول الذي يقول هي الإبل ولا يختص الضبح بالخيل

﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ أي الخيل توري النار بحوافرها من الحجارة إذا سارت ليلا

وكذلك الذي قال العاديات الإبل قال برفعها الحجارة فيضرب بعضها بعضا

ويدل لهذا المعنى قول الشاعر:

تنفي يداها الحصا في كل هاجرة. . . في الدراهم تنقاد الصياريف

(61/9)

﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ الخيل تغير على العدو وقت الصبح

وعلى القول الأول فالإبل تغير بالحجاج صبحا من مزدلفة إلى منى يوم النحر

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ أي غبارا قال ﴿ بِهِ﴾ أي بالصبح أو به أي بالعدو.

والمفهوم من العاديات توسطن به جمعا أي دخلن في وسط جمع أي خلق كثير من الكفار.

ونظير هذا المعنى قول بشر بن أبي حازم

فوسطن جمعهم وأفلت حاجب . . . تحت العجاجة في الغبار الأقتم

وعلى القول الثاني الذي يقول العاديات الإبل تحمل الحجيج

فمعنى قوله ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ أي صرن بسبب ذلك العدو وسط جمع وهي المزدلفة وجمع اسم من أسماء المزدلفة.

ويدل لهذا المعنى قول صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام رضي الله عنهما:

فلا والعاديات مغبرات جمع . . . بأيدها إذا سطع الغبار

وهذا الذي ساقه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قد جمع أقوال جميع المفسرين في هذه الآيات وقد سقته بحروفه لبيانه للمعنى كاملا.

ولكن مما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان في الأضواء أنه إذا اختلف علماء التفسير في معنى وفي الآية قرينة ترد أحد القولين أو تؤيد أحدهما فإنه يشير إلى.

وقد وجدت اختلاف المفسرين في هذه الآيات في نقطة أساسية من هذه الآيات مع اتفاقهم في الألفاظ ومعانيها والأسلوب وتراكيبه.

ونقطة الخلاف هي معنى الجمع الذي توسطن به أهو المزدلفة لأن من أسمائها جمع كما في الحديث "وقفت ههنا وجمع كلها موقف" وهذا مروي عن علي رضي الله عنه في نقاش بينه وبين ابن عباس ساقه ابن جرير.

أم بالجمع جمع الجيش في القتال على ما تقدم وهو قول ابن عباس وغيره حكاه ابن جرير وغيره

وقد وجدنا قرائن عديدة في الآية تمنع من إرادة المزدلفة بمعنى جمع وهي كالآتي أولا وصف الخيل أو الإبل على حد سواء بالعاديات حتى حد الضبح ووري النار بالحوافر وبالحصا لأنها أوصاف تدل على الجري السريع

ومعلوم أن الإفاضة من عرفات ثم من المزدلفة لا تحتمل هذا العدو وليس هو فيها بمحمود لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينادي "السكينة السكينة" فلو وجد لما كان موضع تعظيم وتفخيم

ثانيا أن المشهور أن إثارة النقع من لوازم الحرب كما قاله بشار

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا . . . وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أي لشدة الكر والفر.

ثالثا قوله تعالى: ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ جاء مرتبا بالفاء وهي تدل على الترتيب والتعقيب.

وقد تقدم ﴿ الْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴾ وبعدها ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ .

وجمع هي المزدلفة وإنما يؤتى إليها ليلا فكيف يقرن صبحا ويتوسطن المزدلفة ليلا

وعلى ما حكاه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنهم يغيرون صبحا من المزدلفة إلى منى تكون تلك الإغارة صبحا بعد التوسط بجمع والسياق يؤخرها عن الإغارة ولم يقدمها عليها

فتبين بذلك أن إرادة المزدلفة غير متأتية في هذا السياق

ويبقى القول الآخر وهو الأصح والله تعالى أعلم

ولو رجعنا إلى نظرية ترابط السور لكان فيها ترجيحا لهذا المعنى وهو أنه في السورة السابقة ذكرت الزلزلة وصدور الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

وهنا حث على أفضل الأعمال التي تورث الحياة الأبدية والسعادة الدائمة في صورة مماثلة وهي عدوهم أشتاتا في سبيل الله لتحصيل ذاك العمل الذي يحبون رؤيته في ذلك الوقت وهو نصرة دين الله أو الشهادة في سبيل الله والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

هذا الجواب قال القرطبي الكنود الكفور الجحود لنعم الله وهو قول ابن عباس

وقيل الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم أخذه الشاعر فنظمه

يا أيها الظالم في فعله . . . والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى . . . تشكو المصيبات وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الكنود هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده" .

وروى ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا أبشركم بشراركم ؟" قالوا بلى يا رسول الله قال: "من نزل وحده ومنع رفده وجلد عبده" خرجهما الترمذي الحكيم في نوادر الأصول

وروى ابن عباس أيضا أنه قال: "الكنود بلسان كندة وحضرموت العاصي وبلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كنانة البخيل السيء الملكة" .

وقال مقاتل وقال الشاعر:

كنود لنعماء الرجال ومن يكن . . . كنودا لنعماء الرجال يبعد

أي كفور.

ثم قيل هو الذي يكفر اليسير ولا يشكر الكثير.

وقيل الجاحد للحق.

وقيل سميت كندة كندة لأنها جحدت أباها.

وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر:

دع البخلاء إن شمخوا وصدوا . . . وذكرى بخل ثمانية كنود

في نقول كثيرة وشواهد.

ومنها الكنود الذي ينفق نعم الله في معصية الله

وعن ذي النون الهلوع والكنود هو الذي﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [المعارج:20-21].

وقيل الحسود الحقود.

ثم قال القرطبي رحمه الله في آخر البحث:

قلت هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة وأحوال غير محمودة فإن صح فهو أعلى ما يقال ولا يبقى لأحد معه مقال ا هـ

وهكذا كما قال إن صح الأثر فلا قول لأحد ولكن كل هذه الصفات من باب اختلاف التنوع لأنها داخلة ضمن معنى الجحود للحق أو للنعم

وقد استدل ذو النون المصري بالآية الكريمة وهي مفسرة للكنود على المعاني المتقدمة بأنه هو الهلوع﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [المعارج:20-21].

ومثلها قوله: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:15-16].

وقد عقب عليه هناك بمثل ما عقب عليه هنا .

فهناك قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:17-20].

وهنا عقب عليه بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:8] والله تعالى أعلم.

وقوله إن الإنسان عام في كل إنسان ومعلوم أن بعض الإنسان ليس كذلك،

(65/9)

كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ [الليل:5-6] مما يدل على أنه من العام المخصوص.

وأن هذه الصفات من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه الشرع كما قال تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء:128].

وقوله: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:9].

ونص الشيخ في إملائه أن المراد به الكافر.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ اختلف في مرجع الضمير في وإنه فقيل راجع للإنسان ورجحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب مستدلا بقوله تعالى بعده ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.

وقيل راجع إلى رب الإنسان.

واختار هذا القرطبي وقدمه.

وجميع المفسرين يذكرون الخلاف وقد عرفت الراجح منها وعليه فعلى أنه راجع لرب الإنسان فلا إشكال في الآية وعلى أنه راجع للإنسان ففيه إشكال أورده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الإضطراب وأجاب عليه.

وهو أنه جاءت نصوص تدل على أنه ينكر ذلك وأنه كان يحب أنه يحسن صنعا ونحو ذلك.

ومن الجواب عليه أن شهادته بلسان الحال

وقد أورد بعض المفسرين شهادتهم بلسان المقال في قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة:17] إلا أن هذه الشهادة بالكفر هي الشرك والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ . الخير عام كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ .

ولكنه هنا خاص بالمال فهو من العام الذي أريد به الخاص من قصر العام على

بعض أفراده لأن المال فرد من أفراد الخير كقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ [البقرة:180] أي مالا لأن عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه.

وفي معنى هذا وجهان الأول ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي بسبب حبه الخير ﴿ لَشَدِيدٌ﴾ بخيل شديد البخل. كما قيل:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي. . . عقيلة مال الفاحش المتشدد

أي شديد البخل على هذه الرواية من هذا البيت

والوجه الثاني وإنه لشديد حب المال قالهما ابن كثير

وقال كلاهما صحيح والواقع أن الثاني يتضمن الأول

ويشهد للوجه الثاني قوله تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ .

وقلنا إن الثاني يتضمن الأول لأن من أحب المال حبا جما سيحمله حبه على البخل

وفي هذا النص مذمة حب المال وهو جبلة في الإنسان إلا من هذبه الإسلام إلا أن الذم ينصب على شدة الحب التي تحمل صاحبها على ضياع الحقوق أو تعدي الحدود

وهذه الآية وما قبلها نازلة في الكفار كما قدمنا كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملاء ﴿ أَفَلا يَعْلَمُ

﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾

البعثرة الانتثار.

وقال الزمخشري إن هذه الكلمة ماخوذة من أصلين البعث والنشر

فالبعث خروجهم أحياء.

والنشر الانتشار كنثر الحب فهي تدل على بعثهم منتشرين.

(67/9)

وقد نص تعالى على هذا المعنى في قوله ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار:4] أي بعثر من فيها.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج:43].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر:7].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:4].

قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾

قيل: حصل أي أبرز قاله ابن عباس.

وقيل: ميز الخير من الشر.

والحاصل من كل شيء ما بقي.

قال لبيد:

وكل امريء يوما سيعلم سعيه. . . إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمراد بما ﴿فِي الصُّدُورِ﴾ الأعمال وهذا كقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

ونص على الصدور هنا مع أن المراد القلوب لأنها هي مناط العمل ومعقد النية

والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية كما في حديث "إنما الأعمال بالنيات" وحديث "ألا إن في

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله" الحديث.

وقال الفخر الرازي خصص القلب بالذكر لأنه محل لأصول الأعمال

ولذا ذكره في معرض الذم فإنه ﴿آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وفي معرض المدح ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

ويشهد لما قاله قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:89] .

وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:74] .

(68/9)

وقال: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر:23] .

وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28] ونحو ذلك.

ومما يدل على أن المراد بالصدور ما فيها هو القلب

قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46] .

وقال الفخر الرازي نص على الصدور ليشمل الخير والشر لأن القلب محل الإيمان

والصدر محل الوسوسة لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس:5] .

وهذا وإن كان وجيها إلا أن محل الوسوسة أيضا هو القلب فيرجع إلى المعنى الأول والله أعلم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ .

ذكر الظرف هنا يشعر بقصر الوصف عليه مع أنه سبحانه خبير بهم في كل وقت في ذلك اليوم وقبل ذلك اليوم

ولكنه في ذلك اليوم يظهر ما كان خفيا فهو سبحانه يعلم السر وأخفى وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية

ولكن ذكر الظرف هنا للتحذير مع الوصف بخبير أخص من عليم كما في قوله ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

[التحريم:3] .

(69/9)

سورة القارعة

قوله تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة الواقعة وقال كالطامة والصاخة والآزفة والقارعة ا ه أي

وكذلك الصاخة والساعة.

ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه

أو كما روي عن الإمام علي كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى.

ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات فإن لكل اسم دلالة على معنى خاص به

فالواقعة لصدق وقوعها والحاقة لتحقق وقوعها والطامة لأنها تطم وتعم بأحوالها والآزفة من قرب وقوعها

﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ [لنجم:57] مثل ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ [القمر:من الآية1] وهكذا هنا .

قالوا ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ من قرع الصوت الشديد لشدة أهوالها.

وقيل ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ اسم للشدة.

قال القرطبي تقول العرب قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة إذا وقع بهم أمر فظيع

قال ابن جرير:

وقارعة من الأيام لولا . . . سبيلهم لزاحت عندك حينا

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد:31] وهي الشديدة من شدائد

الدهر.

وقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ تقدم قولهم إن كل ما جاء وما أدراك أنه يدريه وما جاء﴿ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لا يدريه.

وقد أدراه هنا بقوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ وهذا حال من أحوالها.

وقد بين بعض الأحوال الأخرى في الواقعة بأنها﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ وفي الطامة والصاخة﴿ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: من الآية40].

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾.

وأيضا فإن كل حالة يذكر معها الحال الذي يناسبها فالقارعة من القرع وهو الضرب ناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث ويفكك ترابط الجبال إلى هباء العهن المنفوش

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

الفراش جمع فراشة.

وقيل هي التي تطير وتتهافت في النار وقيل طير رقيق يقصد النار ولا يزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق.

وذكر الشيخ في إملائه قول جرير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه. . . مثل الفراش غشين نار المصطلى

وقال الفراء هو غوغاء الجراد الذي ينتشر في الأرض ويركب بعضه بعضا من الهول

ونقل القرطبي عن الفراء أنه الهمج الطائر من بعوض وغيره

ومنه الجراد ويقال هو أطيش من فراشة قال

طويش من نفر أطياش. . . أطيش من طائرة الفراش

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مثلي ومثلكم كمثل رجل

أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي" .

والمبثوث المنتشر.

ومثله قوله: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في سورة اقتربت الساعة سورة ق والقرآن وسورة يس والقرآن الحكيم بما يغني عن إعادته هنا.

وقد قيل إن وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب والحيرة

ووصفها كالجراد في الكثرة ووحدة الاتجاه﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في صورة الواقعة بيان أحوال الجبال يوم القيامة من بدئها بكثيب مهيل ثم كالعهن المنقوش ثم تسير كالسراب

وأحال فيها على غيرها كقوله ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:88] .

وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة سأل سائل

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ .

في قوله: ﴿ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ دلالة على وقع الوزن لكل إنسان

والموازين يراد بها الموزون ويراد بها آلة الوزن كالمعايير وهما متلازمان

وتقدم أن المعايير بالذرة وأقل منها.

وقد جاء نصوص على وضع الموازين وإقامتها بالعدل والقسط

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانبياء:47] .

وقوله: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ قالوا بمعنى مرضية وراضية أصلها مرضية كما في قوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية:8-9] إسناد الرضى للعيشة على أنها هي فاعلة الرضى لأن كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة وأسباب النعيم راضية طائعة لينة لأصحاب الجنة فتفجر لهم الأنهار طواعية وتدنو الثمار طواعية كما في قوله ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:23] .

فالقول الأول هو المعروف في البلاغة بإطلاق المحل وإرادة الحال كقوله تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق:17] .

والنادي مكان منتدى القوم أي ينادي بعضهم بعضا للاجتماع فيه

والمراد من يحل في هذا النادي ويكون هنا أطلق المحل وهو محل العيشة وأواد الحال فيها .

وعلى الثاني فهو إسناد حقيقي من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به ومما هو جدير بالذكر أن حمله على الأسلوب البياني ليس متجها كالآية الأخرى لأن العيشة ليست محلا لغيرها بل هي حالة والمحل الحقيقي هو الجنة والعيشة حالة فيها وهي اسم لمعاني النعيم كما تقدم فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح

وقد جاءت الأحاديث أن الجنة تحس بأهلها وتفرح بعمل الخير كما أنها تتزين وتتبهج في رمضان وأنها تناظرت مع النار وكل يدلي بأهله وفرحه بهم حتى وعد الله كلا بملئها

ونصوص تلقي الحور والولدان والملائكة في الجنة لأهل الجنة بالرضى والتحية معلومة.

وقوله: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس:57] أي لا يتأخر عنهم شيء.

وقوله: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:73] .

وقوله: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:56] .

وقاصرات الطرف عن رضى بأهلهن ومنه﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:72] أي على أزواجهن.

وقوله: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الانسان:14] ونحو ذلك مما يشعر بأن نعيم الجنة بنفسه راض بأهل الجنة والله سبحانه وتعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ .

وقع الخلاف في المراد من قوله ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ هل المراد بأمه ماواه وهي النار وأن هاوية من أسمائها أم المراد بأمه رأسه وأن هاوية من الهوى فيلقى في النار منكسا رأسه يهوي في النار

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك في دفع إيهام الاضطراب ولا يبعد من يقول إنه لا تعارض بين القولين.

فتكون ﴿ أُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وهي النار ويلقى فيها منكسا تهوي رأسه والعياذ بالله.

وحكى القرطبي على أن الأم بمعنى قول لبيد:

فالأرض معقلنا وكانت أمنا . . . فيها مقابرنا وفيها نولد

وعلى معنى الهاوية البعيدة والداهية قول الشاعر

يا عمرو لو نالتك رماحنا . . . كنت كمن تهوى به الهاوية

والهاوية مكان الهوى.

كما قيل:

أكلت دما إن لم أرعك بضرة . . . بعيدة مهوى القرط مياسة القد

أو طيبة النشر.

وفي الحديث: "إن أحدكم ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها في النار سبعين خريفًا.

نسأل الله السلام.

وقد فسر الهاوية بما بعدها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ .

(74/9)

وقد فسر الهاوية بأنها أسفل دركات النار عياذا بالله.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة:4-6].

والنبذ: الطرح مما يرجح ما قلناه من إمكان إرادة المعنيين كون أمه هي الهاوية أي النار يهوي فيها على رأسه وذلك بالنبذ في الهاوية بعيدة المهوى وعادة الجسم إذا ألقى من شاهق بعيدا يسبغه إلى أسفل أثقله وأثقل جسم الإنسان رأسه والله تعالى أعلم.

(75/9)

سورة التكاثر

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ أي شغلكم ولهاه تلهيه أي علله.

ومنه قول امرىء القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع . . . فألهيتها عن ذي تمائم محول

أي شغلتها .

و ﴿التَّكَاثُرُ﴾ المكاثرة ولم يذكر هنا في أي شيء كانت المكاثرة التي ألهتهم

قال ابن القيم ترك ذكره إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به وإما إرادة الإطلاق ا هـ

ويعني رحمه الله بالأول ذم الهلع والنهم

وبالثاني ليعم كل ما هو صالح للتكاثر به مال وولد وجاه وبناء وغراس

ولم أجد لأحد من المفسرين ذكر نظير لهذه الآية

ولكنهم اتفقوا على ذكر سبب نزولها في الجملة من أن حيين تفاخرا بالآباء وأبجالأجداد فعددوا الأحياء ثم ذهبوا إلى المقابر وعدد كل منهما مالهم من الموتى يفخرون بهم ويتكاثرون بتعدادهم

وقيل: في قريش بين بني عبد مناف وبني سهم

وقيل: في الأنصار.

وقيل: في اليهود وغيرهم مما يشعر بأن التكاثر كان في مفاخر الآباء

(76/9)

وقال القرطبي الآتيتعم جميع ما ذكر وغيره.

وسياق حديث الصحيح "لو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب".

قال ثابت عن أنس عن أبي كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ .

وكأن القرطبي يشير بذلك إلى أن لتكاثر بالمال أيضا.

وقد جاءت نصوص من كتاب الله تدل على أن التكاثر الذي ألهاهم والذي ذمهم الله بسببه أو حذرهم منه إنما هو في الجميع كما في قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:20] .

ففيه التصريح بأن التفاخر والتكاثر بينهم في الأموال والأولاد.

ثم جاءت نصوص أخرى في هذا المعنى كقوله ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:32] .

وقوله: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

[العنكبوت:64] .

ولكون الحياة الدنيا بهذه المثابة جاء التحذير منها والنهي عن أن تلهيهم في قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:9] .

وبين تعالى أن ما عند الله للمؤمنين خير من هذا كله في قوله ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة:11] .

ومما يرجح أن التكاثر في الأموال والأولاد في نفس السورة ما جاء في آخرها من

قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ لمناسبتها لأول السورة.

كما هو ظاهر بشمول النعيم للملل شمولا أوليا .

وقوله: ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ . أخذ منه من قال إن تفاخرهم حملهم على الذهاب إلى المقابر ليتكاثروا بأمواتهم كما جاءت في أخبار أسباب النزول المتقدمة

والصحيح في ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ يعني متم لأن الميت يأتي إلى القبر كالزائر لأن وجود فيه مؤقتا .

وقد روي أن أعرابيا سمع هذه الآية فقال بعثوا ورب الكعبة فقيل له في ذلك فقال لأن الزائر لا بد أن يرتحل

تنبيه

قد بحث بعض العلماء مسألة زيارة القبور هنا لحديث "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر في الآخرة" .

وقالوا إن المنع كان عاما من أجل ذكر ماثر الآباء والموتى ثم بعد ذلك رخص في الزيارة واختلفوا فيمن رخص له فقيل للرجال دون النساء لعدم دخولهن في واو الجماعة في قوله "فزوروها" .

وقيل هو عام للرجال وللنساء واستدل كل فريق بأدلة يطول إيرادها

ولكن على سبيل الإجمال لبيان الأرجح نورد نبذة من البحث.

فقال المانعون للنساء إنهن على أصل المنع ولم تشملهن الرخصة ومجيء اللعن بالزيارة فيهن

وقال المجيزون إنهن يدخلن ضمنا في خطاب الرجال كدخولهن في مثل قوله ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

فإنهن يدخلن قطعا .

وقالوا إن اللعن المنوه عنه جاء في الحديث بروايتين رواية "لعن الله زائرات القبور" .

وجاء "لعن الله زوارات القبور والمتخذات عليهن السرج" إلى آخره .

(78/9)

فعلى صيغة المبالغة زوارات لا تشمل مطلق الزيارة وإنما تختص للمكثرات لأنهن بالإكثار لا يسلمن من عادات الجاهلية من تعداد ماثر الموتى المحظور في أصل الآية.

أما مجرد زيارة بدون إكثار ولا مكث فلا.

واستدلوا لذلك بحديث عائشة رضي الله عنها لما ذكر لها صلى الله عليه وسلم السلام على أهل البقيع فقالت: وماذا أقول يا رسول الله إن أنا زرت القبور قال "قولي السلام عليكم آل دار قوم مؤمنين . . " الحديث .

فأقرها صلى الله عليه وسلم على أنها تزور القبور وعلمها ماذا تقول إن هي زارت

وكذلك بقصة مروره على المرأة التي تبكي عند القبر فكلمها فقالت إليك عني وهي لا تعلم من هو فلما ذهب عنها قيل لها إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت تعتذر فقال لها "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" .

ولم يذكر لها المنع من زيارة القبور مع أنه رآها تبكي

وهذه أدلة صريحة في السماح بالزيارة ومن ناحية المعنى فإن النتيجة من الزيارة للرجال من في حاجة إليها كذلك وهي كون زيارة القبور تزهد في الدنيا وترغب في الآخرة

وليست هذه بخاصة في الرجال دون النساء بل قد يكن أحوج إليه من الرجال

وعلى كل فإن الراجح من هذه النصوص والله تعالى أعلم هو الجواز لمن لم يكثرن ولا يتكلمن بما لا يليق مما كان سببا للمنع الأول والعلم عند الله تعالى

تنبيه آخر

من لطائف القول في التفسير ما ذكره أبو حيان عن التكاثر في قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ما نصه:

وقيل هذا تأنيب على الإكثار من زيارة تكثيرا بمن سلف وإشادة بذكره وكان

(79/9)

رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم قال "فزوروها" أمر إباحة للاتعاظ بها، لا لمعنى المباهاة والتفاخر.

ثم قال: قال ابن عطية: كما يصنع الناس في ملازمتها وتسنيمها بالحجارة والرخام وتلوينها شرفا وبيان النواويس عليها أي الفوانيس وهي السرج

ثم قال أبو حيان وابن عطية لم ير إلا قبور أهل الأندلس فكيف لو رأى ما يتباهي به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى وباب النصر وغير ذلك وما يضيع فيها من الأموال لتعجب من ذلك ولرأى ما لم يخطر ببال.

وأما التباهي بالزيارة ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوفية أقوام ليس لهم شغل إلا زيارة القبور زرت قبر سيدي فلان بكذا وقبر فلان بكذا والشيخ فلان بكذا والشيخ فلان بكذا فيذكرون أقاليم طافوها لمجرد قدم التجريد .

وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ بحيث لو كتبت لجاءت أسفارا وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه.

وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس في تحسين الظن بهم وبذل المال لهم وأما من شذ منهم لأنه يتكلم للعامة فيأتي

بعجائب يقولون هذا فتح من العلم اللدني على الخضر.

حتى إن من ينتمي إلى العلم لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ونقل كثيرا من حكاياتهم ومزج ذلك

بيسير من العلم طلبا للمال والجاه وتقبيل اليد

ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته اه بحروفه

وهذا الذي قاله رحمه الله من أعظم ما افتتن به المسلمون في دينهم ودنياهم معا.

أما في دينهم فهو الغلو الذي نهى عنه صلى الله عليه وسلم صيانة للتوحيد من سؤال غير الله

وأما في الدنيا فإن الكثير من هؤلاء يتركون مصالح دنياهم من زراعة أو تجارة أو صناعة ويطوف بتلك الأماكن

تاركا ومضيعا من يكون السعي عليه أفضل من نوافل العبادات.

مما يلزم على طلبة العلم في كل مكان وزمان أن يرشدوا الجهلة منهم وأن يبينوا

(80/9)

للناس عامة خطأ وجهل أولئك وأن الرحيل لتلك القبور ليس من سنة الرسل صلوات الله وسلامه عليه ولا

كان من عمل الخلفاء الراشدين ولا من عامة الصحابة ولا التابعين ولا من عمل أئمة المذاهب الأربعة رحمهم

الله.

وإنما كان عمل الجميع زيارة ما جاورهم من المقابر للسلام عليهم والدعاء لهم والأتعاظ بحالهم والاستعداد لما

صاروا إليه.

نسأل الله الهداية والتوفيق لاتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتفاء بآثار سلف الأمة آمين.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿كَلَّا﴾ زجر عن التلهي والتكاثر المذكور و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي حقيقة الأمر ومغبة هذا التلهي ﴿ثُمَّ

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرار للتأكيد.

وقيل إنه لا تكرار لما روي عن علي رضي الله عنه أن الأولى في القبر والثانية يوم القيامة وهو معقول واستدل به بعضهم على عذاب القبر.

ومعلوم صحة حديث القبر "إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار".

والسؤال فيه معلوم ولكن أرادوا ماخذه من القرآن

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في الكلام على سورة غافر عند ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر:45] إثبات عذاب القبر من القرآن.

وكذلك بيان معناه في آخر سورة الزخرف عند الكلام على قوله تعالى ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:89].

وهذا الزجر هنا والتحذير لهم ردا على ما كانوا عليه في التكاثر

كما قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى. . . وإنما العزة للكاثر

وأصرح دليل لإثبات عذاب القبر من القرآن، هو قوله تعالى ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر:46] لأن الأول في الدنيا والثاني في الآخرة

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾.

﴿ لَوْ ﴾ هنا شرطية جوابها محذوف باتفاق قدره ابن كثير أي لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة حتى صرتم إلى المقابر و﴿ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أجاز أبو حيان إضافة الشيء لنفسه أي لمغايرة الوصف إذ العلم هو اليقين ولكنه آكد منه

وعن حسان قوله:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم. . . لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

و ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب لقسم محذوف.

وقال المراد برؤيتها عند أول البعث أو عند الورود أو عند ما يتكشف الحال في القبر

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ : قيل هذا للكافر عند دخولها هذا حاصل كلام المفسرين

ومعلوم أن هذا ليس لمجرد الإخبار برؤيتها ولكن وعيد شديد وتخويف بها لأن مجرد الرؤية معلوم ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:من الآية71] ولكن هذه الرؤية أخص كما في قوله ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:53] أي أيقنوا بدليل قوله ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:53] .

وقد يبدو وجه في هذا المقام وهو أن الرؤية هنا للنار نوعان

الرؤية الأولى رؤية علم وتيقن في قوله ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ علما تستيقنون به حقيقة يوم القيامة

لأصبحتم بمثابة من يشاهد أهواله ويشهد بأحواله كما في حديث الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه" .

(82/9)

وقد وقع مثله في قصة الصديق لما أخبر نبأ الإسراء فقال صدق محمد فقالوا تصدقه وأنت لم تسمع منه قال إني لأصدقه على أكثر من ذلك.

فلعلمه علم اليقين بصدقه صلى الله عليه وسلم فيما يخبر صدق بالإسراء كأنه رآه.

وتكون الرؤية الثانية رؤية عين ومشاهدة فهو عين اليقين

وقد قدمنا مراتب العلم الثلاث علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين

فالعلم ما كان عن دلائل.

وعين اليقين ما كان عن مشاهدة

وحق اليقين ما كان عن ملابسة ومخالطة كما يحصل العلم بالكعبة وجهتها فهو علم اليقين فإذا رآها فهو عين

اليقين بوجودها فإذا دخلها وكان في جوفها فهو حق اليقين بوجودها والله تعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ .

أصل النعيم كل حال ناعمة من النعومة والليونة ضد الخشونة واليبوسة والشدائد كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ .

ثم قال: ﴿ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ فقابل النعمة بالضر.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود:10] .

وعلى هذا فإن نعم الله عديدة كما قال: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:18] .

وبهذا تعلم أن كل ما قاله المفسرون فهو من قبيل التمثيل لا الحصر كما قال تعالى﴿ لا تُحْصُوهَا ﴾ .

وأصول هذه النعم أولها الإسلام﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة:3] .

ويدخل فيها نعم التشريع والتخفيف عما كان على الأمم الماضية

كما يدخل فيها نعمة الإخاء في الله ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ [آل عمران:103] وغير ذلك كثيرا.

وثانيها الصحة وكمال الخلقة والعافية فمن كمال الخلقة الحواس﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:8-9] .

ثم قال: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الاسراء:36] .

وثالثها المال في كسبه وإنفاقه سواء ففي كسبه من حله نعمة وفي إنفاقه في أوجهه نعمة

هذه أصول النعم فماذا يسأل عنه منها جاءت السنة بأنه سيسأل عن كل ذلك جملة وتفصيلا

أما عن الدين والمال والصحة ففي مجمل الحديث"إذا كان يوم القيامة لا تزل قدم عبد حتى يسأل عن خمسن عن عمره فيم أبلاه وعن علمه فيم عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن شبابه فيم أفناه ولعظم هذه الآية وشمولها فإنها أصبحت من قبيل النصوص مضرب المثل فقد فصلت النقرجزئيات ما كانت تخطر ببال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد أورد القرطبي ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة" قالا الجوع يا رسول الله قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما" فقاما معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت مرحبا وأهلا فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم"أين فلان" قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء أي يطلب ماء عذبا إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم ضيفا مني قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ المدية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إياك والحلوب" فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق،

(84/9)

وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر"والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"خرجه الترمذي.

وقال فيه: "هذا والذي نفسي بيده من النعيم لذي تسألون عنه يوم القيامة ظل بارد ورطب طيب وماء بارد" وكنى الرجل الذي من الأنصار، فقال أبو الهيثم بن التيهان

قال القرطبي قلت اسم هذا الرجل مالك بن التيهان ويكنى أبا الهيثم

وقد ذكر ابن كثير هذه القصة من عدة طرق

ومنها عند أحمد أن عمر رضي الله عنه أخذ بالفوق وضرب به الأرض وقال: إنا لمسؤولون عن هذا يا رسول الله ؟ قال: "نعم إلا من ثلاثة خرقة لف الرجل بها عورته أو كسرة سد بها جوعته أو جحر يدخل فيه من الحر والقر".

وقال سفيان بن عيينة إن ما سد الجوع وستر العورة من خشن الطعام لا يسأل عنه المرء يوم القيامة وإنما يُسأل عن النعيم والدليل عليه أن الله أسكن آدم الجنة فقال له ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ [طه:118-119].

فكانت هذه الأشياء الأربعة ما يسد به الجوع وما يدفع به العطش وما يسكن فيه من الحر ويستر به عورة آدم عليه السلام بالإطلاق لا حساب عليه فيها لأنه لا بد له منها

وذكر عن أحمد أيضا بسنده أنهم كانوا جلوسا فطلع عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه أثر ماء فقلنا: يا رسول الله نراك طيب النفس ؟ قال: "أجل" قال: خاض الناس في ذكر الغنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا بأس بالغنى لمن اتقى الله والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى وطيب النفس من النعم" قال ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة

وبهذا فقد ثبت من الكتاب والسنة أن النعيم الذي هو محل السؤال يوم القيامة

(85/9)

عام في كل ما يتنعم به الإنسان في الدنيا حسا كان أو معنى.

حتى قالوا: النوم مع العافية وقالوا إن السؤال عام للكافر والمسلم فهو للكافر توبيخ وتقريع وحساب وللمؤمن تقرير بحسب شكر النعمة وجحودها وكيفية تصريفها والعلم عند الله تعالى

وكل ذلك يراد منه الحث على شكر النعمة والإقرار للمنعم والقيام بحقه سبحانه كما قال تعالى عن نبي الله:

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الاحقاف:15] .

اللهم أوزعنا شكر نعمتك واجعل ما أنعمت به علينا عونا لنا على طاعتك

(86/9)

سورة العصر

قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ .

العصر اسم للزمن كله أو جزء منه

ولذا اختلف في المراد منه حيث لم يبين هنا.

فقيل: هو الدهر كله أقسم الله به لما فيه من العجائب أمة تذهب وأمة تأتي وقدر ينفذ وآية تظهر وهو هو لا يتغير ليل يعقبه نهار ونهار يطرده ليل فهو في نفسه عجب

كما قيل:

موجود شبيه المعدوم ومتحرك يضاهي الساكن

كما قيل:

وأرى الزمان سفينة تجري بنا . . . نحو المنون ولا نرى حركاته

فهو في نفسه آية سواء في ماضيه لا يعلم متى كان أو في حاضره لا يعلم كيف ينقضي أو في مستقبله

واستدل لهذا القول بما جاء موقوفا على علي رضي الله عنه ومرفوعا من قراءة شاذة "والعصر ونوائب الدهر" وحمل على التفسير إذ لم يصح قرآنا وهذا المعنى مروي عن ابن عباس

وعليه قول الشاعر:

سبيل الهوى وعر وبحر الهوى غمر . . . ويوم الهوى شهر وشهر الهوى دهر

وقيل العصر الليل والنهار.

(87/9)

قال حميد بن ثور:

ولم يلبث العصران يوم ليلة . . . إذا طلبا أن يدركا ما يتمما

والعصران أيضا الغداة والعشي

كما قيل:

وأمطله العصرين حتى يملني . . . ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

والمطل التسويف وتأخير الدين.

كما قيل كما قيل:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه . . . وعزة ممطول معنى غريمها

وقيل: إن العشي ما بعد زوال الشمس إلى غروبها وهو قول الحسن وقتادة

ومنه قول الشاعر:

تروح بنا يا عمرو قد قصر العصر . . . وفي الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وع ن قتادة أيضا هو آخر ساعة من ساعات النهار لتعظيم اليمين فيه وللقسم بالفجر والضحى

وقيل: هو صلاة العصر لكونها الوسطى.

وقيل: عصر النبي صلى الله عليه وسلم أو زمن أمته لأنه يشبه عصر عمر الدنيا

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن أقرب هذه الأقوال كلها قولان إما العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة إذ أقل

درجاتها التفسير ولأنه يشمل بعمومه بقية الأقوال

وإما عصر الإنسان أي عمره ومدة حياته الذي هو محل الكسب والخسران لإشعار السياق ولأنه يخص العبد في نفسه موعظة وانتفاعا.

ويرجح هذا المعنى ما يكتنف هذه السورة من سور"التكاثر" قبلها والهمزة بعدها إذ الأولى تذم هذا التلهي والتكاثر بالمال والولد حتى زيارة المقابر بالموت ومحل ذلك هو حياة الإنسان

(88/9)

وسورة الهمزة في نفس المعنى تقريبا في﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة:2-3] .

فجمع المال وتعداده في حياة الإنسان وحياته محدودة وليس مخلدا في الدنيا كما أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبط بحياة الإنسان.

وعليه فإما أن يكون المراد بالعصر في هذه السورة العموم لشموله الجميع وللقراءة الشاذة وهذا أقواها وإما حياة الإنسان لأنه ألزم له في عمله وتكون تلك الإطلاقات الأخرى من إطلاق الكل وإرادة البعض والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ .

لفظ الإنسان وإن كان مفردا فإن أل فيه جعلته للجنس

وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب وتقدم التنبيه عليه مرارا فهو شامل للمسلم والكافر إلا من استثنى الله تعالى.

وقيل خاص بالكافر والأول أرجح للعموم

و ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ جواب القسم والخسر قيل: هو الغبن وقيل النقص وقيل: العقوبة وقيل: الهلكة والكل متقارب.

وأصل الخسر والخسران كالكفر والكفران النقص من رأس المال ويبين هنا نوع الخسران في أي شيء بل أطلق

ليعم وجاء بحرف الظرفية ليشعر أن الإنسان مستغرق في الخسران وهو محيط به من كل جهة

ولو نظرنا إلى أمرين وهما المستثنى والسورة التي قبلها لاتضح هذا العموم لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور عدم الإيمان وهو الكفر وعدم العمل الصالح وهو العمل الفاسد وعدم التواصي بالحق وهو انعدام التواصي كلية أو التواصي بالباطل وعدم التواصي بالصبر وهو إما انعدام التواصي كلية أو الهلع والجزع

والسورة التي قبلها تلهي الإنسان بالتكاثر في المال والولد بغية الغنى والتكثر فيه وضده ضياع المال والولد وهو الخسران.

(89/9)

فعليه يكون الخسران في الدين من حيث الإيمان بسبب الكفر وفي الإسلام وهو ترك العمل وإن كان يشمله الإيمان في الاصطلاح والتلهي في الباطل وترك الحق وفي الهلع والفزع

ومن ثم ترك الأمر والنهي بما فيه مصلحة العبد وفلاحه وصلاح دينه ودنياه وكل ذلك جاء في القرآن ما يدل عليه نجمله في الآتي:

أما الخسران بالكفر فكما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:65].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:31] أي لأنهم لم يعملوا لهذا اللقاء وقصروا أمرهم في الحياة الدنيا فضيعوا أنفسهم وحظهم في الآخرة

وأما الخسران بترك العمل فكما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [لأعراف:9] لأن الموازين هي معايير الأعمال كما تقدم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

ومثله ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:119] لأنه سيكون من حزب الشيطان ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة:19] أي بطاعتهم إياه في معصية الله.

وأما الخسران بترك التواصي بالحق فليس بعد الحق إلا الضلال والحق هو الإسلام بكامله وقد قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85] .

وأما الخسران بترك التواصي بالصبر والوقوع في الهلع والفزع فكما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:11] .

تحقيق المناط في حقيقة خسران الإنسان

اتفقوا على أن رأس مال الإنسان في حياته هو عمره كلف بإعماله في فترة وجوده في الدنيا فهي له كالسوق فإن أعمله في خير ربح وإن أعمله في شر خسر.

(90/9)

ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] .

وقوله: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الصف:10-11] .

وفي الحديث عند مسلم: "الطهور شطر الإيمان" .

وفي آخره "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" مما يؤكد أن رأس مال الإنسان عمره.

ولأهمية هذا العمر جاء قسيم الرسالة والنذارة في قوله ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:37] .

وعلى هذا قالوا إن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى

وهدى كل إنسان النجدين وجعل لكل إنسان منزلة في الجنة ومنزلة في النار

فمن آمن وعمل صالحا كان ماله إلى منزلة الجنة وسلم من منزلة النار ومن كفر كان ماله إلى منزلة النار وترك

منزلته في الجنة.

كما جاء في حديث القبر: "أول ما يدخل في قبره إن كان مؤمنا يفتح له باب إلى النار ويقال له ذاك مقعدك من النار لو لم تؤمن ثم يقفل عنه ويفتح له باب إلى الجنة ويقال له هذا منزلك يوم تقوم الساعة فيقول رب أقم الساعة" .

وإن كان كافرا كان على العكس تماما فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النافيأخذ كل منزلته فيها وتبقى منازل أهل النار في الجنة خالية فيتوارثها أهل الجنة وتبقى منازل أهل الجنة في النار خالية فتوزع على أهل النار وهنا يظهر الخسران المبين لأن من ترك منزلة في الجنة وذهب إلى منزلة في النار فهو بلا شك خاسر وإذا ترك منزلته في الجنة لغيره وأخذ هو بدلا عنها منزلة غيره في النار كان هو الخسران المبين عياذا بالله

أما في غير الكافر وفي عموم المسلمين فإن الخسران في التفريط بحيث لو دخل

الجنة ولم ينل أعلى الدرجات يحس بالخسران في الوقت الذي فرط فيه ولم ينافس فعل الخير لينال أعلى الدرجات.

فهذه السورة فعلا دافع لكل فرد إلى الجد والعمل المربح ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد فإن أمامه مجال للكسب والربح نسأل الله التوفيق والفلاح

وقد قالوا لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزينا فإن كان مسيئا فعلى إساءته وإن كان محسنا فلتقصيروقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:30] .

فالخوف من المستقبل أمامهم والحزن على الماضي خلفهم والله تعالى أعلم

ويبين خطر هذه المسألة أن الإنسان إذا كان في آخر عمره وشعر بأيامه المعدودة وساعاته المحدودة وأراد زيادة

يوم فيها يتزود منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضا مما فاته لم يستطع لذلك سبيلا فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالي والشهور والسنين التي ضاعت عليه في غير ما كسب ولا فائدة كان من الممكن أن تكون مربحة له وفي الحديث الصحيح: "نعمتان مغبون فيهما الإنسان الصحة والفراغ".

أي أنهما يمضيان لا يستغلهما في أوجه الكسب المكتملة فيفوتان عليه بدون عوض يذكر ثم يندم ولات حين مندم.

كما قيل في ذلك:

بدلت بالجمة رأسا أزعرا . . . وبالثنايا الواضحات الدر دررا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا.

تنبيه

في سورة التكاثر تقبيح التلهي بالتكاثر بالمال والولد ونحوه ثم الإشعار بأن سببه الجهل لأنهم لو كانوا يعلمون علم اليقين لما ألهاهم ذلك حتى باغتهم الموت

وهنا إشعار أيضا بأن سبب هذا الخسران الذي يقع فيه الإنسان هو الجهل الذي

يجر إلى الكفر والتمادي في الباطل ويساعد على هذا قسوة القلب وطول الأمل كما قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:16].

تنبيه آخر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

نص على الإنسان على ما تقدم وقد جاءت آية أخرى تدل على أن الجن كالإنس في قوله تعالى ﴿وَمَا تَخْرُجُ

مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ [فصلت:47] .

وتقدم بيان تكليف الجن بالدعوة واستجابتهم لها والدعوة إليها

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدم مما دل على العموم كما قدمنا والإيمان لغة التصديق وشرعا الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان الستة في حديث جبريل عليه السلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ العطف يقتضي المغايرة.

ولذا قال بعض الناس إن الأعمال ليست داخلة في تعريف الإيمان ومقالاتهم معروفة

والجمهور أن الإيمان اعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالجوارح

فالعمل داخل فيه ويزيد وينقص وقد قدمنا أن العمل شرط أقرب من أن يكون جزءا أي أن الإيمان يصدق بالاعتقاد ولا يتوقف وجوده على العمل ولكن العمل شرط في الانتفاع بالإيمان إذا تمكن العبد من العمل ويدل لكون الإيمان يصدق عليه حد الاعتقاد والنطق ولو لم يتمكن العبد من العمل قصة الصحابي الذي أسلم عند بدء المعركة وقاتل واستشهد ولم يصل لله ركعة فدخل الجنة

والجمهور على أن مجرد الاعتقاد لا ينفع صاحبه كما كان يعتقد عم النبي صلى الله عليه وسلم صحة رسالته ولكنه لم يقل كلمة يحاج له صلى الله عليه وسلم بها وكذلك لو اعتقد ونطق بالشهادتين ولم يعمل كان مناقضا لقوله.

وقد قدمنا هذه المسألة مفصلة.

والصالحات جمع صالحة وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه تعريفه وشروط كون العمل صالحا بأدلته من كونه موافقا لكتاب الله وعمله صاحبه خالصا لوجه الله وكونه صادرا من مؤمن بالله إلخ

وقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ . يعتبر التواصي بالحق من الخاص بعد العام لأنه داخل في عمل الصالحات

وقيل إن التواصي أن يوصي بعضهم بعضا بالحق

وقيل الحق كل ما كان ضد الباطل فيشمل عمل الطاعات وترك المعاصي.

واعتبر هذا أساسا من أسس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقرينة التواصي بالصبر أي على الأمر والنهي على ما سيأتي إن شاء الله.

وقيل الحق هو القرآن لشموله كل أمر وكل نهي وكل خير ويشهد لذلك قوله تعالى في حق القرآن﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الاسراء:105] .

وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:2] .

وقد جاءت آيات في القرآن تدل على أن الوصية بالحق تشمل الشريعة كلها أصولها وفروعها ماضيها وحاضرها من ذلك ما وصى الله به الأنبياء وعموما من نوح وإبراهيم ومن بعدهم في قوله تعالى﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:13] .

وإقامة الدين للقيام بكليته وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم فنفذها إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:132] .

ومن بعد إبراهيم يعقوب كما قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:133].

فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى عليه السلام ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾ [مريم:31–32].

وكذلك الحالة الاجتماعية ماثلة في الوصية بالوالدين والأولاد لترابط الأسرة ففي الوالدين قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ [لقمان:14–15].

وفي الأبناء قال: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ [النساء:11].

وفي الحقوق العامة أوامر ونواهي عبادات ومعاملات جاءت آيات الوصايا العشر التي قال عنها ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمة فليقرأ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:151–153].

تلك الوصايا الجامعة أبواب الخير الموصدة أبواب الشر والمذيلة بهذا التبيين والتعريف ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: من الآية153].

ولو أردنا أن نربط بين هذا وبين التواصي بالحق وبينهما وبين فاتحة الكتاب لكانت النتيجة كالآتي في قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ إحالة على تلك الوصايا وهي شاملة جامعة ومعنون لها بأنها صراط الله المستقيم

فكأن قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ مساويا لقوله وتواصوا بالصراط المستقيم واستقيموا عليه.

ثم في سورة الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] وهذا صراط الله المستقيم فاتبعوه

فكانت سورة العصر مشتملة على التواصي بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه ويأتي عقبها قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم إذ الصبر لازم على عمل الطاعات كما هو لازم لترك المنكرات.

وتلك الوصايا العشر جمعت أمرا ونهيا فعلا وتركا وكذلك فيه الإشارة إلى ما يقوله دعاة الإسلام من أن العمل الصالح والدعوة إلى الحق والتواصي به فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنها من يقوم به يتعرض لأذى الناس فلزمهم التواصي بالصبر كما قال لقمان لابنه يوصيه وجامعا في وصيته وصية سورة العصر إذ قال﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:17].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتفصيل عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ [المائدة:105] في سورة المائدة.

فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة.

كما روي عن الشافعي رحمه الله أنه قال لو تأمل الناس هذه السورة لكفتهم

قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ جاء الحث على التواصي بالرحمة أيضا مع الصبر في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:17].

وبهذه الوصايا الثلاث بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة تكتمل مقومات المجتمع المتكامل قوامه الفضائل المثلى والقيم الفضلى

لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق والاستقامة على الطريق المستقيم

وبالتواصي بالصبر يستطيعون مواصلة سيرهم على هذا الصراط ويتخطون كل عقبات تواجههم

وبالتواصي بالمرحمة يكونون مرتبطين كالجسد الواحد وتلك أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطاها في هذه السورة الموجزة وبالله التوفيق.

تنبيه

قال الفخر الرازي: إن الله تعالى لما أخبر عن هؤلاء بالنجاة من الخسران وفوزهم بالعمل الصالح والإيمان أخبر عنهم أنهم لم يكتفوا بما يتعلق بهم أنفسهم بل تعدوا إلى غيرهم فدعوهم إلى ما فازوا به على حد قوله صلى الله عليه وسلم: "حب لأخيك ما تحب لنفسك" اهـ ملخصا.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:33-35].

فقد بين تعالى أن الناس أقسام ثلاثة إزاء دعوة الرسل

قوم آمنوا وقالوا: ربنا الله واستقاموا على ذلك بالعمل الصالح

وقوم: ارتفعت همتهم إلى دعوة غيرهم وهم أحسن قولا بلا شك

وقوم: عادوا الدعاة وأساؤوا إليهم

ثم بين موقف الدعاة من أولئك المسيئين في غضون قوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ﴾ أي إساءة المسيئين ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فيصبحوا أولياء لك وبين أن هذه المنزلة ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ثم بين أن من ارتفع إليها وسلك مسلكها أنه ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

تنبيه

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله للدعاة عدوان أحدهما من الإنس والآخر من الشياطين.

وقد أرشدنا الله لكيفية التغلب عليهما واكتفاء شرهما

أما عداوة الإنس فبمقابلة الإساءة بالإحسان فيصبح وليا حميما

وأما عدو الجن فبالاستعاذة منه ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:200].

نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق.

وقد أشرنا إلى أن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قدم مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:105].

وذكر سورة "العصر" عندها وعقد مسائل متعددة في منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما لا غنى عنه.

سورة الهمزة

قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾.

اختلف في معنى كلمة ﴿ وَيْلٌ ﴾.

فقيل: هو واد في جهنم.

وقيل: هي كلمة عذاب وهلاك.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذكر هذين المعنيين في سورة "الجاثية" عند قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية:7] وبين أنها مصدر لا لفظ له من فعله وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك .

وقد استظهر رحمه الله تعالى هذا المعنى

ومما يشهد لما استظهره رحمه الله ما جاء في حق أصحاب الجنة التي أصبحت كالصريم أنهم قالوا عند رؤيتهم إياها ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الانبياء:14] فهي كلمة تقال عند نزول المصائب وعند التقبيح

وقال الفخر الرازي: أصل الويل لفظة السخط والدم وأصلها نوى لفلان ثم كثرت في كلامهم فوصلت باللام ويقال ويح بالحاء للترحم ا ه.

ومما يدل لقول الرازي أيضا قول قارون ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص:82] .

ومثله للتعجب في قوله ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:72] .

وقوله: ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة:31] .

(99/9)

فالظاهر أنها كلمة تقال عند الشدة والهلكة أو شدة التعجب مما يشبه المستبعد.

والذي يشهد له القرآن هو هذا المعنى وسبب الخلاف قد يرجع لمجيئها تارة مطلقة كقوله ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:15] وهنا ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ .

ويجيء مع ذكر ما يتوعد به كقوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:27] وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف:65] فذكر النار والعذاب الأليم

وكذلك قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:37] فهي في هذا كله للوعيد الشديد مما ذكر معها من النار والعذاب الأليم ومشهد يوم عظيم وليست مقصودة بذاتها دون ما ذكر معها والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قيل هما بمعنى واحد وهو الغيبة

وأنشد ابن جرير قول زياد الأعجم

تدلى بودي إذا لاقيتني كذبا . . . وإن أغيب فأنت الهامز الهمزة

وعزا هذا لابن عباس وهو الذي يصيب الناس ويطعن فيهم

وقد جاء في القرآن استعمال كل من الكلمتين مفردة عن الأخرى بما يدل على المغايرة

ففي الهمزة قوله: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:10-11] مما يدل على الكذب والنميمة.

وفي الهمزة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات:11].

وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:58] مما يدل على أنها أقرب للتنقص والعيب في الحضور لا في الغيبة فتغاير الهمز في المعنى وفي الصفة والجمع بينهما جمع بين القبيحين فكان مستحقا لهذا الوعيد الشديد بكلمة ويل.

وقد قيل الهمز باليد وقيل باللسان في الحضرة والهمز في الغيبة

وقيل الهمز باليد واللمز باللسان والغمز بالعين وكلها معان متقاربة تشترك في تنقص الآخرين

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ .

هذا الوصف يشعر بأنه علة فيما قبله إذ الموصول هنا يدل من كل المتقدمة وليس العيب في ﴿ جَمَعَ مَالًا﴾ بل

في ﴿عَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ وفي ﴿عَدَّدَهُ﴾ عدة معان.

قيل: ﴿عَدَّدَهُ﴾ كل وقت وآخر تحفظا عليه.

وقيل: ﴿عَدَّدَهُ﴾ كنزه.

وقيل: ﴿عَدَّدَهُ﴾ أعده للحاجة.

وقرئ: ﴿جَمَعَ وعَدَّدَ﴾ بالتشديد وبالتخفيف والمراد به من لم يؤد حق الله فيه شحا وبخلا كما تقدم في سورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ .

هذا الحسبان هو المذموم عليه والمنصب عليه الوعيد لأنه كفر بالبعث كما قال صاحب الجنة في الكهف ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف:35-36].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر له على حسبانه الباطل ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي﴾ جواب قسم محذوف دل عليه قوله ﴿كَلَّا﴾ .

وهذا يفسره ما تقدم في قوله ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي ينبذ نبذا فيهوي على أم رأسه عياذا بالله

و ﴿الْحُطَمَةِ﴾ فعلة من الحطم وهو الكسر ثم الأكل الكثير.

وقد فسرت بما بعدها ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ وسميت حطمة لأنها تحطم كل ما ألقي فيها وتقول هل من مزيد

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ .

قيل: ﴿مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ﴾ . بأن العمد صارت وصدا للباب كالقفل والغلق له

وقيل: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ أنهم يدخلون في عمد كالقصبة مجوفة الداخل

وقيل: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ أي توضع أرجلهم في العمد على صورة القيد في الخشبة الممتدة يشد فيها عدد من الأشخاص في أرجلهم.

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في ذلك أن العمد بمعنى القصبة المجوفة ضيق عليهم كما في قوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:13].

فيكون أرجح في هذا المعنى.

وقد نص عليه في إملائه رحمة الله تعالى علينا وعليه

(102/9)

سورة الفيل

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

اختلف في معنى السجيل هنا.

فقال قوم هو السجين أبدلت النون لاما والسجين النار.

وقيل إن السجيل من السجل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجينا لديوان أعمالهم واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ومنه السجل الدلو المملوء ماء وهي حجارة مرسلة لقوله ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل:3].

وقوله إن سجينا عن الديوان أعمالهم يعني قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:7].

وقيل: معنى ﴿سِجِّينٍ﴾ سك وطين يعني بعض حجر وبعض طين.

وقيل: معناه الشديد.

وقيل: السجيل اسم لسماء الدنيا.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ترجيح أنها من طين شديد القوة

وهذا ما يشهد له القرآن لما في سورة الذاريات﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذريات:32–34] فنص على أنها من طين.

والحجارة من الطين هي الآجر وهو الطين المطبوخ حتى يتحجر

وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضوض في قوله ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود:82] .

(103/9)

وقيل فيها كالحمصة والعدسة والضمير في﴿ عَلَيْهِمْ﴾ راجع لأصحاب الفيل وقصتهم طويلة مشهورة

تنبيه

قد أوردنا نصوص معنى سجيل وترجيح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليها أنها حجارة من طين شديد القوة تنبيها على ما قيل من استبعاد ذلك وردا على من صرف معناها إلى غير الحجارة المحسوسة

أما من استبعدها فقد حكاه الفخر الرازي بقوله واعلم أن من الناس من أنكر ذلك

وقالوا لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقع به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليا عن الثقل وأن يكون في وزن التبنة وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات.

فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها وأن يحصل الإدراك في عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى قطعة من الأرض بالأندلس وكل ذلك محال

ثم قال واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع

وهذا القول يحكيه الفخر الرازي المتوفي سنة 606 ستمائة وست فنرى استبعادهم إياها مبني على تحكيم

العقل وهذا باطل لأن خوارق العادات دائما فوق قانون العقل بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده.

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم لو حدثت به العقول سابقا من نقل الحديث والصورة على الأثير وتوجيه الطائرات وأمثالها لما قوي على تصورها لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته.

وحتى نحن لو لم يسايرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائي وما له من دور فعال في ذلك لما أمكننا تصوره ثم من يمنع شيئا من ذلك على قدرته تعالى

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالعهن المنفوش أخف من التبنة،

(104/9)

التي مثلوا بها بل ستكون أقل من ذلك كما قال تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:20] فظهر بطلان هذا القول الذي استبعدها لعدم إدراك العقل لها

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر فهو قريب من الأول من حيث المبدأ إلا أنه أثبت الأصل وفسره بما يتناسب والعقل.

وهو محكي عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا إذ فسر الحجارة من سجيل بأنه وباء الجدري وبالتالي فالطير الأبابيل هي البعوض وما أشبهه

وقد اعتذر له السيد قطب بأن الدافع لذلك هو ما كان شائعا في عصره من موجات متضاربة موجة انحراف في التفكير نحو الإسلام واستغلال الإسرائيليات كمثال على ما يشبه الأباطيل في تشويه حقائق الإسلام عند غير المسلمين.

ومن ناحية أخرى طوفان علمي حديث من إنتاج العقل البشري فبدلا من أن تثبت حادثة كهذه صرفت إلى ما

يألفه العقل من إيقاع ميكروب الجدري بجيش أبرهة حتى أهلكه لكي لا يتطوم في إثبات الحادثة على ما نص عليه القرآن بواقع العقلية العلمانية الحديثة

هذا ملخص ما اعتذر به السيد قطب عن هذا القول

ولكن من الناحية العلمية والنصوص القرآنية فقد تقدم أن الحجارة التي من سجيل جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم بل ألقيت على قوم لوط بعد أن جعل عاليها سافلها فما موقع الجدري منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكورة؟

ثم جاء أيضا أنها من طين فأين الطين من الجراثيم الجدرية؟

ومن الناحية العلمية من أين جيء بميكروب الجدري؟ وأين كان قبل أن تأتي به الطير الأبابيل؟

ومتى كان ميكروب الجدري أو غيره يميز بين قرشي وحبشي؟

ومتى كان أي ميكروب يفتك بقوم وبسرعة،﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ مع أن: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ تشعر بالسرعة في إهلاكهم والعصف اليابس الذي تعصف به الريح لخفته

(105/9)

ومتى كان وجود الجدري طفرة وفجاءه إنه يظهر في حالات فردية ثم ينتشر هذا من الناحية العلمية وإدراك العقل لما عرف من ميكروب الجدري

ولكن ملابسات الحادثة تمنع من تصور ذلك عقلا لعدم انتشاره في جميع أفراد المنطقة ولعدم تأثيره فعلا بهذه الصورة ولعدم أيضا تصور مجيئه فجاءة فدل العقل نفسه على عدم صحة هذا القول

ثم من ناحية أخرى إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها فكيف نثبت مثل حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك وتسبيح الحصى في كفه صلوات الله وسلامه عليه؟

وقد شاهد العقل الصورة وهي خروج الناقة من الصخرة لقوم صالح بل إننا الآن بالحس والعقل نشاهد ما لا

ندرك لكنهه في وسائل الإعلام ونسمع الصوت من الجماد مسجلا على شريط بسيط جدا

فهل ينفي الباقي بل كيف أثبت النصارى لعيسى ابن مريم عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى

وعمل الطير من الطين ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله

وكيف أثبت اليهود لموسى أمر العصا وشق البحر ؟ وأين العقل من ذلك كله ؟

الواقع أننا في كل زمان ومع كل قضية يجب أن نلتزم جانب الاعتدال لا هو جري وراء كل خبر ولو كان إسرائيليا

ولا هو رد لكل نص ولو كان صريحا قرآنيا بل كما قال السيد قطب في ذلك

يجب أن نستمد فكرنا من نصوص القرآن وأن ما يقرره نعتقده ونؤمن به .

وقد ناقشنا هاتين الفكرتين القديمة التي استبعدت ذلك كلية والحديثة التي أولتها

ونضيف شيئا آخر في جانب الفكرة الثانية وهي لعل مما حدا بأصحابها إلى ذلك ما جاء عن قتادة قوله إنه لم ير

الجدري بأرض العرب مثل تلك السنة

وقيل أيضا لم ير شجر الحنظل إلا في تلك التاريخ.

فيقال أيضا إن العقل لا يستبعد هنا أن يكون إهلاك هذا الجيش الكبير بتلك

الحجارة في مكان معسكره في بطن الوادي ووقوع الجثث مصابة بها لا يمنع أن تتعفن ثم يتولد منها مكروب

الجدري ولا مانع من ذلك والعلم عند الله تعالى

تنبيه آخر

قالوا إن أصحاب هذا الجيش نصارى وهم أهل دين وكتاب وأهل مكة وثنيون لا دين لهم والكعبة ممتلئة

بالأصنام فكيف أهلك الله النصارى أصحاب الدين ولم يسلطهم على الوثنيين ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة

منها أن الجيش ظالم باغ والبغي مرتعه وخيم ولو كان المظلوم أقل من الظالم ويشهد لذلك الحديث في نصرة المظلوم واستجابة دعوته ولو كان كافرا.

ومنها أن الوثنية اعتداء على حق الله في العبادة وغزو هذا الجيش اعتداء على حقوق العباد

ومنها أنه إرهاص لمولد النبي؟ إذ ولد في هذا العام نفسه.

وكلها وإن كانت لها وجه من النظر إلا أنه يبدو لي وجه وهو أن الأصل في نشأة البيت وإقامته إنما هو الله رفع قواعده وأقام الصلاة في رحابه وكان طاهرا مطهرا للعاكفين فيه والركع السجود وإنما الوثنية طارئة عليه وإلى أمد قصير مداه ودنا منتهاه لدين جديد.

والمسيحية بنفسها تعلم ذلك وتنص عليه وتبشر به فكانت معتدية على الحقين معا حق الله في بيته والذي تعلم حرمته وماله وحق العباد الذين حوله

وكانت لو سلطت عليه بمثابة المنتصر على مبدأ صحيح مع فسادها مبدأ صحة وسلامة بناء البيت ووضعه البيت الذي من خصائصه أن يكون مثابة للناس وأمنا

فكيف لا يأمن هو نفسه من غزو الغزاة وطغيان الطغاة فصانه الله تعالى صيانة لمبدأ وجوده وحفاظا على أصل وضعه في الأرض ويكفي نسبته لله بيت الله

وقد أدرك أبو طالب هذا المعنى بعينه إذ قال لأبرهة

(107/9)

أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه وأتى باب الكعبة فتعلق بها وقال

لاهم إن العبد يمنع . . . رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم . . . ومحالهم عددا يوالك

إن يدخلوا البلد الحرا . . . م فأمر ما بدا لك

وقيل أنه قال:

يا رب لا أرجو لهم سواكا . . . يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا . . . إنهم لن يقهروا قواكا

(108/9)

سورة قريش

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ .

اختلف في اللام في ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ هل هي متعلقة بما قبلها وعلى أي معنى أم متعلقة بما بعدها وعلى أي معنى ؟

فمن قال متعلقة بما قبلها قال متعلقة بجعل في قوله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ .

وتكون بمعنى لأجل إيلاف قريش يدوم لهم ويبقى تعظيم العرب إياهم لأنهم أهل حرم الله أو بمعنى إلى أي جعلنا العدو كعصف مأكول هزيمة له ونصرة لقريش نعمة عليهم إلى نعمة إيلافهم رحلة الشتاء والصيف

ومن قال متعلقة بما بعدها قال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ﴾ الذي ألفوه أي بمثابة التقرير له ورتب عليه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي أثبته إليهم وحفظه لهم.

وهذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير ورواه ابن عباس ورد جواز القول الأول لأنه يلزمه فصل السورتين عن بعض .

وقيل إنها للتعجب أي أعجبوا لإيلاف قريش حكاه القرطبي عن الكسائي والأخفش والقول الأول بلغ .

وروي أيضا عن ابن عباس وغيره واستدلوا بقراءة السورتين معا في الصلاة في ركعة قرأ بهما عمر بن الخطاب وبأن السورتين في أبي بن كعب متصلتان ولا فصل بينهما

وحكى القرطبي القولين ولم يرجح أحدهما ولا يبعد اعتبار الوجهين لأنه لا يعارض بعضها بعضا

وما اعترض به ابن جرير بأنه يلزم عليه اتصال السورتين فليس بلازم لأنه إن أراد اتصالهما في المعنى فالقرآن كله متصلة سورة معنى.

ألا ترى إلى فاتحة الكتاب وفيها ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] فجاءت سورة البقرة ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:2] وبعدها ذكر أوصافهم وقال: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:5] فأي ارتباط أقوى من هذا كأنه يقول الهدى الذي تطلبونه في هذا الكتاب فهو هدى للمتقين وإن أراد اتصالا حسا بعدم البسملة فنظيرها سورة براءة مع الأنفال ولكن لا حاجة إلى ذلك لأن إجماع القراء على إثبات البسملة بينهما اللهم إلا مصحف أبي بن كعب وليس في هذين الوجهين وجه أرجح من وجه ولذا لم يرجح بينهما أحد من المفسرين سوى ابن جرير رحمه الله

وصحة الوجهين أقوى وأعم في الامتنان وتعداد النعم

والإيلاف: قيل من التأليف إذ كانوا في رحلتيهم يألفون الملوك في الشام واليمن أو كانوا هم في أنفسهم مؤلفين ومجمعين وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم وأنشدوا

أبونا قصي كان يدعي مجمعا . . . به جمع الله القبائل من فهر

وقيل من الألف والتعود أي ألفوا الرحلتين

فللإبقاء لهم على ما ألفوه.

وقريش قال أبو حيان علم على القبيلة

وقيل أصلها من التقرش وهو الاجتماع أو التكسب والجمع

وقيل من دابة البحر المسماة بالقرش وهي أخطر حيواناته وهو مروي عن ابن عباس في جوابه لمعاوية

وأنشد قول الشاعر:

وقريش هي التي تسكن الب . . . حر بها سميت قريش قريشا

تأكل الرث والسمين ولا تترك. . . فيها لذي جناحين ريشا

هكذا في البلاد حي قريش. . . يأكلون البلاد أكلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبي. . . يكثر القتل فيهم والخموشا

وقوله تعالى: ﴿ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ هو تفسير ﴿لِإِيلافِ﴾ سواء على ما كانوا يؤالفون بين الملوك في تلك الرحلات أو ما كانوا يألفونه فيهما.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ .

المراد بالبيت البيت الحرام كما جاء في دعوة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [ابراهيم:37] .

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ .

بمثابة التعليل لموجب أمرهم بالعبادة لأنه سبحانه الذي هيأ لهم هاتين الرحلتين اللتين كانتا سببا في تلك النعم عليهم فكان من واجبهم أن يشكروه على نعمه ويعبدوه وحده.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى عند قوله تعالى﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ .

تنبيه

في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:4] ربط بين النعمة وموجبها كالربط بين السبب والمسبب

ففيه بيان لموجب عبادة الله تعالى وحده وحقه في ذلك على عباده جميعا وليس خاصا بقريش

وهذا الحق قرره أول لفظ في القرآن وأول نداء في المصحف فالأول قوله تعالى﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] كأنه يقول هو سبحانه مستحق للحمد لأنه رب العالمين أي خالقهم ورازقهم وراحمهم إلى آخره

والثاني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:21].

ثم بين الموجب بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21].

ثم عدد عليهم نعمه بقوله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [البقرة:22].

فهذه النعم تعادل الإطعام من جوع والأمن من خوف في حق قريش ومن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:1-2].

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها إلا ما كان استدراجا فقال في شكر النعم ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم:7].

وقال في الكفران وعواقبه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:112].

وبهذه المناسبة إن على كل مسلم أفرادا وجماعات أن يقابلوا نعم الله بالشكر وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله وأن يحذروا كفران النعم.

تنبيه آخر

في الجمع بين إطعامهم من جوع وآمنهم من خوف نعمة عظمى لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معا إذ لا عيش مع الجوع ولا أمن مع الخوف وتكمل النعمة باجتماعهما

ولذا جاء الحديث "من أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه عنده قوت يومه فقد اجتمعت عنده الدنيا بحذافيرها".

تنبيه آخر

إن في هذه السورة دليلا على أن دعوة الأنبياء مستجابة لأن المخلِّ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لأهل الحرام بقوله: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [ابراهيم:37] .

(112/9)

وقال: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ [البقرة:129] فأطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف وبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته

(113/9)

سورة الماعون

قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:1–3] .

﴿ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ فيه اسم الموصول مبهم بينه ما بعده وهو﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:2–3] .

وقد بين تعالى في آية أخرى أن الإيمان بيوم الدين يحمل صاحبه على إطعام اليتيم والمسكين في قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الانسان:8] .

ثم قال مبينا الدافع على إطعامهم إياهم﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ [الانسان:9–10] .

وهنا سؤال وهو لم خص المكذبين بيوم الدين عمن يرتكب هذين الأمرين دع اليتيم وهو دفعه وزجره وعدم الحض على إطعام المسكين وبالتالي عدم إطعامه هو من عنده ؟

والجواب أنهما نموذجان ومثالان فقط

والأول منهما: مثال للفعل القبيح.

والثاني: مثال للترك المذموم.

ولأنهما عملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان قبل كل شيء

وفي الآية الأخرى توجيه للجواب وهو أن المؤمن يخاف من الله يوما عبوسا وعبر بالعبوس في حق يوم القيامة لئلا يعبس هو في وجه اليتيم والمسكين لضعفهما.

ومن جانب آخر فإن كان التكذيب بيوم الدين يحلم على كل الموبقات إلا أنها

(114/9)

قد تجد ما يمنع منها كالقتل والزنى والخمر لتعلق حق الآخرين وكذلك السرقة والنهب

أما إيذاء اليتيم وضياع المسكين فليس هناك من يدفع عنه ولا يمنع إيذاء هؤلاء عنهما وليس لديهما الجزاء الذي ينتظره أولئك منهم على الإحسان إليهم

وجبلت النفوس على ألا تبدل إلا بعوض ولا تكف إلا عن خوف فالخوف مامون من جانبي اليتيم والمسكين والجزاء غير مامول منهما فلم يبق دافع للإحسان إليهما ولا رادع عن الإساءة لهما إلا الإيمان بيوم الدين والجزاء فيحاسب الإنسان على مثقال الذرة من الخير.

وقيل إن دع اليتيم هو طرده عن حقه وعدم الحض على طعام المسكين عدم إخراج الزكاة

ولكن في الآية ما يمنع ذلك لأن الزكاة إنما يطالب بها المؤمن والسياق فيمكن يكذب بيوم الدين فلا زكاة

قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ .

اختلف في المصلين الذين توجه إليهم الوعيد بالويل هنا.

والجمهور على أنهم الذين يسهون عن أدائها ويتساهلون في أمر المحافظة عليها

وقيل عن الخشوع فيها وتدبر معانيها.

ولكن الصحيح أنه الأول.

وقد جاء عن عطاء وعن ابن عباس أنهما قالا الحمد لله الذي قال ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل في صلاتهم كما أن السهو في الصلاة لم يسلم منه أحد حتى أنه وقع من النبي صلى الله عليه وسلم لما سلم من ركعتين في الظهر كما هو معلوم من حديث ذي اليدين وقال "إني لا أنسى ولكني أنسى لأسن" فكيف ينسيه الله ليسن للناس أحكام السهو ويقع الناس في السهو بدون عمد منهم

وقد قال صلى الله عليه وسلم "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

(115/9)

وقد عقد الفقهاء باب سجود السهو تصحيحا لذلك

لذلك بقي من المراد بـ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ .

قيل نزلت في أشخاص بأعيانهم.

وقيل في كل من أخر الصلاة عن أول وقتها أو عن وقتها كله إلى غير ذلك أو عن أدائها في المساجد وفي الجماعة.

وقيل في المنافقين.

وفي السورة تفسير صريح لهؤلاء وهو قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:6-7] .

والمرائي في صلاته قد يكون منافقا وقد يكون غير منافق

فالرياء أعم من جهة والنفاق أعم من جهة أخرى أي قد يرائي في عمل ما ويكون مؤمنا بالبعث والجزاء وبكل أركان الإيمان ولا يرائي في عمل آخر بل يكون مخلصا فيه كل الإخلاص

والمنافق دائما ظاهره مخالف لباطنه في كل شيء لا في الصلاة فقط

ولكن جاء النص بأن المراءاة في لصلاة من أعمال المنافقين.

وجاء النص أيضا بأن منع الماعون من طبيعة الإنسان إلا المصلين كما في قوله تعالى﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:19-22] .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان السهو عنها وإضاعتها عند قوله تعالى﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [مريم:59-60] .

وبين في آخر المبحث تحت عنوان مسألة في حكم تاركي الصلاة جحدا أو كسلا وزاده بيانا عند قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:9] في دفع إيهام الاضطراب للجمع بين هذه الآية وآية ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:42] .

(116/9)

وذكر قول الشاعر:

دع المساجد للعباد تسكنها

على ما سنذكره بعد ثم نبه قائلا إذا كان الوعيد عمن يسهو عنها فكيف بمن يتركها ؟ا ه.

وقد تساءل بعض المفسرين عن موجب اقتران هذه الآية بالتي قبلها

وأجابوا بأن الكل من دوافع عدم الإيمان بالبعث ومن موجبات التكذيب بيوم الدين فهي مع ما قبلها في قوة ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ وعن صلاتهم ساهون ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ .

فجمعهم مع الأول ونص على وعيده الشديد وبين وصفا ولهم وهو أنهم﴿ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ .

تنبيه

في هذه السورة وفي آية ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:9] التي هي من صفات المؤمنين

معادلة كبيرة.

إحداهما في المنافقين تاركي الصلاة أو مضيعيها.

والأخرى في المؤمنين المحافظين عليها أي أن الصلاة هي المقياس والحد الفاصل

وعليه قوله صلى الله عليه وسلم: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن ترك الصلاة فقد كفر".

أما أثر الصلاة في الإسلام وعلى الفرد والجماعة فهي أعظم من أن تذكر

وقد وجدنا بعض آثارها وهو المراءاة في العمل أي ازدواج الشخصية والانعزال في منع الماعون أي لا يمد يد العون ولو باليسير لمجتمعه الذي يعيش فيه وقد جاءت نصوص صريحة في مهمة الصلاة عاجله وآجلة ففي العاجل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:45] ومن الفحشاء دع اليتيم وعدم إطعام المسكين في الدرجة الأولى

(117/9)

ومنها كل رذيلة منكرة فهي إذن سياج للإنسان يصونه عن كل رذيلة وهي عون على كل شديدة كما قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:45] فجعلها قرينة الصبر في التغلب على الصعاب وهي في الآخرة نور كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد:12] مع قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أمتي يأتون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء".

وقوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قيل في الماعون الزكاة لقلتها والماعون القليل والماعون المال في لغة قريش وقيل هو ما يعين على أي عمل ومنه الدلو والفأس والإبرة والقدر ونحو ذلك

وإذا كان السهو عن الصلاة يحمل على منع الماعون فإن من يمنع الماعون وهو الآلة أو الإناء يقضي به الحاجة ثم يرد كما هو بدون نقصان فلأن يمنع الصدقة أو الزكاة من باب أولى

ومن هنا لم يكن المنافق ليزكي ما لو لا يتصدق على محتاج بل ولا يقرض آخر قرضا حسنا ولذا نجد تفشي

الربا في المنافقين أشد وأكثر.

وهنا يأتي مبحثان:

الأول منهما: حكم الرياء وما حده؟

والثاني: حكم العارية.

أما الرياء فقيل هو مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد عليها وجاء في الحديث تسميته الشرك الخفي: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي" قالوا وما الشرك الخفي يا رسول الله قال: "الرياء فإنه أخفي في نفوسكم من دبيب النمل".

وجاء قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف:110].

وبيان الشرك فيه أنه يعمل العمل مما هو أصلا لله كالصلاة أو الصدقة أو الحج ولكنه يظهره لقصد أن يحمده الناس عليه.

(118/9)

فكأن هذا الجزء منه مشاركة مع الله حيث أصبح من عمله جزء لطلب الثناء من الناس عليه

وقد جاء حديث أبي هريرة عند مسلم "يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك معي غيري تركته وشركه".

أما حكم الرياء في العمل ففي هذا النص دلالة على رد العمل على صاحبه وتركه له

فقيل: إنه يكون لا له فيه ولا عليه منه

فقيل لا يخلو من ذم كما حذر الله تعالى منه بقوله: ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ [الأنفال:47].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به" رواه مسلم.

والتسميع هو العمل ليسمع الناس به كما في حديث الوليمة "في اليوم الأول والثاني والثالث سمعة ومن سمع سمع به".

فالرياء مرجعه إلى الرؤية والتسميع مرجعه إلى السماع

ومعلوم أنها نزلت في قريش يوم بدر وقد أحبط الله عملهم وردهم على أعقابهم

وفي حديث أبي هريرة وقيل إنه محبط للأعمال لمسمى الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:48].

وأجيب بأنه يحبط العمل الذي هو فيه فقط فإن راءى في الصلاة أحبطها ولا يتعدى إلى الصوم وإن راءى في صلاة نافلة لا يتعدى إحباطها إلى صلاة فريضة وهكذا قد يبدأ عملا خالصا لله ثم يطرأ عليه شبح الرياء فهل يسلم له عمله أو يحبطه ما طرأ عليه من الرياء ؟

فقالوا إن كان خاطرا ودفعه عنه فلا يضره وإن استرسل معه فقد رجح أحمد

(119/9)

وابن جرير عدم بطلان العمل نظرا لسلامة القصد ابتداء

ودليلهم في ذلك ما روى أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني أن رجلا قال يا رسول الله إن بني سلمة كلهم يقاتل فمنهم من يقاتل للدنيا ومنهم من يقاتل نجدة ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله تعالى قال "كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا".

وذكر عن ابن جرير: أن هذا في العمل الذي يرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام

أما ما كان مثل القراءة والعلم فإنه يلزمه تجديد النية الخالصة لله أي لأن كل جزء من القراءة وكل جزء من طلب

العلم مستقل بنفسه فلا يرتبط بما قبله

وهناك مسألة وهي أن العبد يعمل العمل لله خالصا ثم يطلع عليه بعض الناس فيحسنون الثناء عليه فيعجبه ذلك فلا خلاف أنه ليس من الرياء في شيء لما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يعمل من الخير يحمده الناس عليه فقال صلى الله عليه وسلم "عاجل بشرى المسلم" . رواه مسلم.

وقد ذكر بعض العلماء أن من كان يعمل عملا خفيا ثم حضر بعض الناس فتركه من أجلهم خشية الرياء أنه يدخل في الرياء لأنه يضعف في نفسه أن يخلص النية لله وفي هذا بعد ومشقة

أما منع الماعون وإعطاؤه وهو العارية كما تقدم

فإن مبحث العارية في ناحيتين ما هي العارية والثاني حكمها أواجب أم مباح وحكم ضمانها مضمونة أم لا ؟

أما تعريفها عند الفقهاء هي إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال مع بقاء عينه

وقولهم مع بقاء عينه كالقدر والفأس والإبرة والمنخل ونحو ذلك بخلاف ما يكون إتلافه في استعماله كالشمع للإضاءة والزيت للدهن والكحل للاكتحال ونحو ذلك مما تنفد عينه باستعماله فلا يكون عارية ولكن يكون قرضا والقرض يكون معاوضته بمثله.

أما حكم العارية فقيل جائز.

(120/9)

وقيل: بل واجب.

وقيل: مستحب.

وحكى ابن قدامة الإجماع على استحبابها ودليل من قال بالوجوب بنص الآية ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾

ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه في حق الإبل لما ذكر الزكاة وأن حقها إعارة دلوها وإطراق فحلها ومنحه

لبنها يوم ورودها" .

والواقع أن هذا الحديث ذكر فيه ما ليس بعارية قطعا مثل طرق الفحل ومنح اللبن مما يضعف الاستدلال به

وقد ساق المجد في المنتقى برواية أحمد ولهم

أما الوعيد في الآية فقالوا هو منصب على الصفات الثلاث السهو عن الصلاة والرياء في العمل ومنع الماعون

جميعا ومن اتصف بواحدة فله قدره من الوعيد بحسبه

وأقل ما يقال فيها ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:2] والحديث الصحيح في

حق الزكاة لما ذكر صلى الله عليه وسلم الذهب والفضة والإبل والبقر والخيل قال: "ولا ينسى حق الله في

ظهرها" .

ثم سئل عن الحمر فقال: "لم أجد إلا الآية الشاذة الفاذة﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ " [الزلزلة:7] .

وإعارة المتاع إباحة المنفعة وهي خير كثير.

والحديث الآخر "لا يحل مال امريء مسلم إلا عن طيب نفس" .

ونقل الشوكاني عن الكشاف قولا أنها تكون واجبة عند الاضطرار وقبيح في غير الضرورة مروءة ا.ه

والضرورة مثل الدلو إذا وردت الماء ولا دلو معك وفي اضطرار إلى الماء

وقياس الفقهاء أنه لو تلف شيء بسبب ذلك لضمن المانع

كما قالوا في الامتناع في بعض الصور هل هو فعل أو ترك مثل من كان عنده

خيط واحتيج إليه في خياطة جرح إنسان أو قطنة فمات فهل يعد ترك إعطاء الخيط مجرد ترك لا يؤاخذ عليه

أو يعتبر فعلا لأنه تسبب عنه موت إنسان ومثله منع الدلو ليروي أو يسقي إبله أو يشرب هو؟

والصحيح عندهم أن الترك في مثل هذه الحالة يؤاخذ عليه مؤاخذة الفعل كما قال صاحب مراقي السعود.

والترك فعل في صحيح المذهب

وهنا ما يشهد له الاستعمال العربي الصحيح كما قيل في بناء المسجد

لئن قعدنا والنبي يعمل . . . لذاك منا العمل المضلل

فسمي القعود عن العمل عملا مضللا فتحصل من هذا أن العارية مستحبة شرعا ومروءة معرفا في حالة الاختيار وواجبة في حالة الاضطرار مع ملاحظة أن حالات الاستعارة أغلبها اضطرار إلا أن حالات الاضطرار تتفاوت ظروفها.

وقد امتدح الله الأنصار بأنهم ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: من الآية9] فالعارية من باب أولى لأنه ينتفع بها وترد لصاحبها.

وقد امتدح الشاعر القوم بعدم منعهم الماعون بقوله

قوم على الإسلام ولما يمنعوا . . . ماعونهم ويضيع التهليلا

وإن كان بعض الناس حمل الماعون هنا على الزكاة ولكن قول الشاعر قوم على الإسلام يتضمن إخراجهم الزكاة ضمن إسلامهم فيكون اللبقي امتداد حالهم في خصوص الماعون.

بقي مبحث ضمانها تختلف الأقوال في ضمان العارية فبعضهم يعتبرها أمانة وعليه فلا تكون مضمونة وهذا مذهب الحنفية والمالكية إذا لم يحصل منه تعد

وعند الشافعي وأحمد أنها مضمونة إلا إذا كانت على الوجه الماذون فيه

كما قالوا في السيف يستعيره فينكسر في القتال فلا ضمان فيه.

واستدل من قال بضمانها بالحديث العام "على اليد ما أخذت حتى تؤدية" رواه

المجد في المنتقى وقال رواه الخمسة إلا النسائي

وبحديث صفوان بن أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين أذرعا قيل ثلاثين وقيل ثمانين وقيل مائة فقال أغصبا يا محمد قال: "بل عارية مضمونة" فقال فضاع بعضها فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يضمنها له فقال أنا اليوم في الإسلام أرغب رواه أحمد وأبو داود

ونص الفقهاء أن ضمانها بقيمتها يوم تلفت أو بمثلها إن كانت مثلية ويستدل له بما لح في قصعة حفصة لما ضربتها عائشة فسقطت على الأرض فانكسرت وانتثر الطعام فأخذ صلى الله عليه وسلم قصعة عائشة وردها إلى حفصة وقال: "قصعة بقصعة وطعام بطعام" أي أن الضمان إما بالمثل إن كان مثليا أو بالقيمة إن كان مقوما .

وإذا كانت العارية مضمونة وحكمها الجواز فللمستعير طلب ردها متى شاء إلا إذا تعلقت بها مصلحة المستعير ولا يمكن ردها إلا بمضرة عليه

قالوا كمن أعار سفينة وتوسط بها المستعير عرض البحر فلا يملك المعير ردها لتعذر ذلك وسط البحر وقيل له طلبها وتكون بالأجرة على المستعير والأول أرجح

وكالذي أعار أرضا للزرع وقبل أن يستحصد الزرع يطلبها صاحبها وهكذا والله تعالى أعلم

حكم من جحد العارية

إن حديث المرأة المخزومية مشهور وهو أنها كانت تستعير المتاع وتجحده فاشتهرت بذلك ثم إنها سرقت فقطعت في السرقة لا في جحد المتاع المستعار وهذا هو الأصح لأن السرقة لا تكون إلا على وجه التخفي ومن حرز .

والاستعارة خلاف ذلك وإنما تدخل في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:58] .

وقوله صلى الله عليه وسلم "على اليد ما أخذت حتى تؤديه" .

وحديث "أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك" رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

وهذا مجمل مباحث العارية وتفصيل فروعها في كتب الفقه أوجزنا منه ما يتعلق بمنع الماعون وعدم جواز منعه وما يتعلق ببذله وبالله تعالى التوفيق.

تنبيه

في هذه السورة بيان منهج علمي يلزم كل باحث وهو جمع أطراف النصوص وعدم الاقتصار على جزء منه وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وهي آية مستقلة ولو أخذت وحدها لكانت وعيدا للمصلين كما قال الشاعر الماجن في قوله

دع المساجد للعباد تسكنها . . . وسر إلى خانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويل للألى سكروا . . . وإنما قال ويل للمصلينا

ولذا لا بد من ضميمة ما بعدها للتفسير والبيان الذين هم عن صلاتهم ساهون ثم فسر هذا التفسير أيضا بقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:6-7].

ومثل هذه الآية من الحديث ما جاء عند ابن ماجه ما نصه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنه قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن مسيرة المسجد تعطلت فقال النبي صلى الله عليه وسلم "من عمر مسيرة المسجد كتب له كفلان من الأجر".

هذا الحديث وإن كان في الزوائد قال عنه في إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف إلا أنه نص فيما تمثل له لأن من اقتصر على جوابه صلى الله عليه وسلم اعتبر مسيرة المسجد أفضل ومن جمع طرق الحديث عرف المقصود منه.

ويتفرع على هذا ما أخذه مالك رحمه الله في باب الشهادة أن الشخص لا يحق له أن يشهد على مجرد قول سمعه إلا إذا استشهدوه عليه وقالوا أشهد عليه أو إلا إذا سمع الحديث من أوله مخافة أن يكون في أوله ما هو مرتبط بآخره كما لو قال المتكلم للآخر لي عندك فرس ولك عندي مائة درهم فيسمع قوله لك عندي مائة درهم،

(124/9)

ولم يسمع ما قبلها فإذا شهد على ما سمع كان إضرارا بالمشهود عليه وهذه السورة تدل لهذا الماخذ والله تعالى أعلم.

(125/9)

سورة الكوثر

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ .

الكوثر فوعل من الكثرة و﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ قرئ ﴿أَنطَيْنَاكَ﴾ بإبدال العين نونا وليست النون مبدلة عن العين كإبدال الألف من الواو أو العين في الأجوف ونحوه ولكن كلا منهما أصل بذاته وقراءة مستقلة

قاله أبو حيان: واختلف في الكوثر. فقيل: علم. وقيل: وصف.

وعلى العلمية قالوا إنه علم على نهر في الجنة وعلى الوصف قالوا الخير الكثير

ومما استدل به على العلمية ما جاء في السنة من الأحاديث الصحاح ذكرها ابن كثير وغيره

وفي صحيح البخاري عن أنس قال لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال: "أتيت نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر.

وبسنده أيضا عن عائشة رضي الله عنها سئلت عن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم شاطئاه عليهما در مجوف آنيته كعدد النجم.

وبسنده أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر هو الخير الذي أعطاه الله إياه

قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من

الخير الذي أعطاه الله إياه.

وذكر ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها عن أحمد رحمه الله ومنها بسند أحمد إلى

أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما إما قال لهم وإما قالوا له لم ضحكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنه نزلت علي آنفا سورة" فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها فقال: "هل تدرون ما الكوثر" قالوا الله ورسوله أعلم قال: "نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك" .

وذكر ابن كثير ما جاء في صفة الحوض وهذه النصوص على أن الكوثر نهر في الجنة أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي الحديث الأخير عن الإمام أحمد قوله "عليه خير كثير" يشعر بأن معنى الوصفية موجود.

ولذا قال بعض المفسرين إنه الخير الكثير.

وممن قال ذلك ابن عباس كما تقدم في حديث البخاري عنه

واستدلوا على المعنى بقول الشاعر الكميت

وأنت كثير يا ابن مروان طيب. . . وكان أبوك ابن الفصائل

والذي تطمئن إليه النفس أن الكوثر هو الخير الكثير وأن الحوض أو النهر من جملة ذلك

وقد أتت آيات تدل على إعطاء الله لرسوله الخير الكثير كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:87] .

وفي القريب سورة الضحى وفيها ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:5] أعقبها بنعم جليلة من

شرح الصدور ووضع الوزر ورفع الذكر وليسر بعد العسر.

وبعدها في سورة التين جعل بلده الأمين وأعطى المؤمنين الذين يعملون الصالحات أجرا غير ممنون

وبعدها سورة اقرأ امتن عليه القرآن وعلمه ما لم يكن يعلم

(127/9)

وبعدها سورة القدر أعطاه ليلة خيرا من ألف شهر.

وبعدها سورة البينة جعل أمته خير البرية منحهم رضاه عنهم وأرضاهم عنه.

وبعدها سورة الزلزلة حفظ لهم أعمالهم فلم يضيع عليهم مثقال الذرة من الخير

وفي سورة العاديات أكبر عمل الجهاد فأقسم بالعاديات في سبيل الله والنصر على الأعداء

وفي سورة التكاثر تربيتهم على نعمه ليشكروها فيزيدهم من فضله

وفي سورة العصر جعل أمته خير أمة أخرجت للناس تؤمن بالله وتعمل الصالحات وتتواصى بالحق وتدعو إليه

وتتواصى بالصبر وتصبر عليه.

وبعدها في سورة قريش أكرم الله قومه فآمنهم وأعطاهم رحلتيهم

وفي السورة التي قبلها مباشرة وهي سورة الماعون يمكن عمل مقارنة تامة أولا

وفي الجملة لئن كان المنافقون يمنعون الماعون فقد أعطيناك الخير الكثير ثانيا

وعلى التفصيل ففي الأولى وصف المنافقين والمكذبين بدع اليتيم وفي الضحى قد بين له حق اليتيم ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:9] فكان هو خير موكل وخير كافل ووصفهم هنا بأنهم لا يحضون على طعام المسكين.

وقد أوضح له في الضحى ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:10] فكان يؤثر السائل على نفسه وهؤلاء ساهون عن صلاتهم يراءون بأعمالهم

وفي هذه السورة ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أداء الصلاة وخالصة لربه وإطعام المسكين بنحر الهدى والضحية والصدقة وكل ذلك خير كثير يضاف إليه ما جاءت به السنة كما في حديث"أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وحلت لي الغنائم ولم تكن تحل لأحد قبلي وكان النبي يبعث لقومه خاصة فبعث للناس كافة وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلّ .

(128/9)

وقوله: "رفع لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

وفي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:286] .

قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: قد فعلت قد فعلت" .

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الاسراء:79] وهو المقام الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون

إلى غير ذلك من النصوص بما يؤكد قول ابن عباس عند البخاري إن الكوثر الخير الكثير

وأن النهر في الجنة من هذا الكوثر الذي أعطيه صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .

في هذا مع ما قبله ربط بين النعم وشكرها وبين العبادات وموجبها فكما أعطاه الكوثر فليصل لربه سبحانه ولينحر له كما تقدم في سورة لإيلاف قريش في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:3-4] .

وهنا ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:1] وهو أكثر من رحلتيهم وأمنهم ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ مقابل ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش:3].

وقيل إنه لما كان في السورة قبلها بيان حال المنافقين في السهو عن الصلاة والرياء في العمل جاء هنا بالقدوة الحسنة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ مخلصا له في عبادتك كما تقدم في السورة قبلها ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110].

وقوله تعالى: في تعليم الأمة في خطاب شخصه صلى الله عليه وسلم ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:65] مع عصمته صلى الله عليه وسلم من أقل من ذلك والصلاة عامة والفريضة أخصها

(129/9)

وقيل صلاة العيد والنحر قيل فيه أقوال عديدة

أولها في نحر الهدى أو نحر الضحية وهي مرتبطة بقول من حمل الصلاة على صلاة العيد وأن النحر بعد الصلاة كما في حديث البراء بن عازب لما ضحى قبل أن يصلي وسمع النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الضحية بعد الصلاة فقال إني علمت اليوم يوم لحم فعجلت بضحيتي فقال له "شاتك شاة لحم" فقال إن عندنا لعناقا أحب إلينا من شاة أفتجزيء عني قال "اذبحها ولن تجزيء عن أحد غيرك".

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث الضحية وافيا عند قوله تعالى ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:28] وقد ذكروا في معاني ﴿وانحر﴾ أي ضع يدك اليمنى على اليسرى على نحرك في الصلاة وهذا مروي عن علي رضي الله عنه

وأقوال أخرى ليس عليها نص.

والنحر هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة بالصدر

وأصح الأقوال في الصلاة.

وفي النحر هو ما تقدم من عموم الصلاة وعموم النحر أو الذبح لما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162] .

واتفق الفقهاء على أن النحر للإبل والذبح للغنم والبقر متردد فيه بين النحر والذبح وأجمعوا على أن ذلك هو الأفضل ولو عمم النحر في الجميع أو عمم الذبح في الجميع لكان جائزا ولكنه خلاف السنة.

وقالوا إن الحكمة في تخصيص الإبل بالنحر هو طول العنق إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيدا فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر بخلاف النحر في المنحر فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله أما الغنم فلذبح مناسب لها والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ .

قال البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ شَانِئَكَ﴾ عدوك ا هـ.

(130/9)

و ﴿ الْأَبْتَرُ﴾ هو الأقطع الذي لا عقب له.

وأنشد أبو حيان قول الشاعر:

لئيم بدت في أنفه خنزوانة. . . على قطع ذي القربى أجذ أباتر

وقال: ﴿ شَانِئَكَ﴾ مبغضك.

وفي هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقطع

فقيل نزلت في العاصي بن وائل، قال لقريش دعوه فإنه أبتر لا عقب له إذا مات استرحتم فأنزلها الله تعالى ردا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء مصداقها بالفعل في قوله تعالى في غزوة بدر في قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:7] . فقتل صناديد قريش وصدق الوعيد فيهم

ومثله عموم قوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:45] .

وجاء ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:1] . فهي في معناها أيضا .

وبقي ذكر رسول صلى الله عليه وسلم في عقبه من آل بيته وفي أمته كلها كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:4] .

(131/9)

سورة الكافرون

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ .

نداء للمشركين بمكة لما عرضوا عليه صلى الله عليه وسلم أن يترك دعوته ويملكوه عليهم أو يعطوه من المال ما يرضيه ونحوه فرفض فقالوا تقبل منا ما نعرضه عليك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فسكت عنهم فنزلت وقالوا له إن يكن الخير معنا أصبته وإن يكن معك أصبناه

وفي مجيء ﴿ قُلْ﴾ مع أن مقول القول كان قد يكفي في البلاغ ولكن مجيئها لغاية فما هي ؟

قال الفخر الرازي إما لأنهم عابوه صلى الله عليه وسلم في السورة التي قبلها بقولهم أبتر فجاء قوله: ﴿ قُلْ﴾ إشعارا بأن الله يرد عن رسوله بهذا الخطاب الذي ينادي عليهم في ناديهم بأثقل الأوصاف عليهم فقال له﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ .

أو أنه لما كان هذا الخطاب فيه مغايرة المالوف من تخاطبه معهم من أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة وكان فيه من التقريع لهم ومجابهتهم قال له﴿ قُلْ﴾ إشعارا بأنه مبلغ عن الله ما أمر به وجاءت﴿ يَا﴾ وهي لنداء البعيد لبعدهم في الكفر والعناد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ .

قيل تكرار في العبارات للتوكيد كتكرار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:15] وتكرار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:13].

ونظيره في الشعر أكثر من أن يحصر من ذلك ما أورده القرطبي رحمه الله:

(132/9)

هل لا سألت جموع كندة. . . يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر:

يا علقمة يا علقمة. . . خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر:

يا أقرع بن حابس يا أقرع. . . إنك إن يصرع أخوك تصرع

وقول الآخر:

ألا يا سلمى ثم اسلمي ثمت اسلمي. . . ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقد جاءت في أبيات لبعض تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى ضمن مساجلة له معه قال فيها

تالله إنك قد ملأت مسامعي. . . درا عليه قد انطوت أحشائي

زدني وزدني ثم زدني ولتكن. . . منك الزيادة شافيا للداء

فكرر قوله زدني ثلاث مرات.

وقيل: ليس فيه تكرار على أن الجملة الأولى عن الماضي والثانية عن المستقبل.

وقيل: الأولى عن العبادة والثانية عن المعبود

وقيل غير ذلك على ما سيأتي إن شاء الله

والسورة في الجملة نص على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعبد معبودهم ولا هم عابدون معبوده وقد فسره قوله

تعالى: ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:41] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذا المعنى عند آية يونس تلك وذكر هذه السورة هناك .

وقد ذكر أيضا في دفع إيهام الاضطراب جوابا على إشكال في السورة وهوقوله تعالى: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفي لعبادة كل منهما معبود.

(133/9)

الآخر مطلقا مع أنه قد آمن بعضهم فيما بعد وعبد ما يعبده صلى الله عليه وسلم وأجاب عن ذلك بأحد أمرين موجزهما أنها من جنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم ما داموا كفارا إلى آخره أو أنها من العام المخصوص فتكون في خصوص من حقت عليهم كلمات ربك اه ملخصا

وقد ذكر أبو حيان وجها عن الزمخشري أن ما يتعلق بالكفار خاص بالحاضر لأن ما إذا دخلت على اسم الفاعل تعينه للحاضر.

وناقشه أبو حيان بأن ذلك في م غالب لا على سبيل القطع

والذي يظهر من سياق السورة قد يشهد لما ذهب إليه الزمخشري وهو أن السورة تتكلم عن الجانبين على سبيل المقابلة جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وجهة الكفار في عدم عبادة كل منهما معبود الآخر

ولكنها لم تساو في اللفظ بين الطرفين فمن جهة الرسل صلى الله عليه وسلم جاء في الجملة الأولى﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ عبر عن كل منهما بالفعل المضارع الدال على الحال أي لا أعبد الآن ما تعبدون الآن بالفعل ثم قال ﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فعبر عنهم بالاسمية وعنه هو بالفعلية أي ولا أنتم متصفون بعبادة ما أعبد الآن.

وفي الجملة الثانية قال: ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فعبر عنه بأنه ليس متصفا بعبادة

ما يعبدون ولا هم عابدون ما يعبد فكان وصفه هو صلى الله عليه وسلم في الجملتين بوصفين مختلفين بالجملة الفعلية تارة وبالجملة الاسمية تارة أخرى فكانت إحداهما لنفي الوصف الثابت والأخرى لنفي حدوثه فيما بعد .

أما هم فلم يوصفوا في الجملتين إلا بالجملة الاسمية الدالة على الوصف الثابت أي في الماضي إلى الحاضر ولم يكن فيما وصفوا به جملة فعلية من خصائصها التجدد والحدوث فيكن فيها ما يتعرض للمستقبل فلم يكن إشكال والله تعالى أعلم.

فإن قيل إن الوصف باسم الفاعل يحتمل الحال والاستقبال فيبقى الإشكال محتملا

قيل ما ذكره الزمخشري من أن دخول ﴿ مَا ﴾ عليه تعينه للحال يكفي في نفي هذا الاحتمال فإن قيل قد ناقشه أبو حيان وقال إنها أغلبية وليست قطعية .

(134/9)

قلنا يكفي في ذلك حكم الأغلب وهو ما يصدقه الواقع إذ آمن بعضهم وعبد معبوده صلى الله عليه وسلم وما في قوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ واقعة في الأولى على غير ذي علم وهي أصنامهم وهو استعمالها الأساسي.

وفي الثانية في حق الله تعالى وهو استعمالها في غير استعمالها الأساسي فقيل من أجل المقابلة وقد استعملت فيمن يعلم كقوله تعالى: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ لأنهن في معرض الاستمتاع بهن فللقرينة جاز ذلك.

وقيل إنها مع ما قبلها مصدرية أي ﴿ مَا ﴾ مصدرية بمعنى عبادتكم الباطلة ولا تعبدون عباداتي الصحيحة.

وهذا المعنى قوي وإن تعارض مع ما ذكر من سبب النزول إلا أن له شاهدا من نفس السورة ويتضمن المعنى

الأول ودليله من السورة قوله تعالى في آخر السورة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فأحالهم على عبادتهم ولم يحلهم على معبودهم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هو نظير ما تقدم في سورة يونس ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:41].

وكقوله: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [البقرة:139].

وليس في هذا تقريرهم على دينهم الذي هم عليه ولكن من قبيل التهديد والوعيد كقوله ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:29].

وفي هذه السورة قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وصف يكفي بأن عبادتهم وديانتهم كفر.

وقد قال لهم الحق ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لأنها عبادة باطلة عبادة الكفار وبعد ذلك إن أبيتم إلا هي فلكم دينكم ولي دين.

(135/9)

تنبيه

في هذه السورة منهج إصلاحي، وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول لأن ما عرضوه عليه صلى الله عليه وسلم من المشاركة في العبادة يعتبر في مقياس المنطق حلا وسطا لاحتمال إصابة الحق في أحد الجانبين فجاء الرد حاسما وزاجرا وبشدة لأن فيه أي فيما عرضوه مساواة للباطل بالحق وفيه تعليق المشكلة وفيه تقرير الباطل إن هو وافقهم ولو لحظة

وقد تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين ونهاية المهادنة وبداية المجابهة

وقد قالوا إن ذلك بناء على ما أمره الله به في السورة قبلها ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:1] أي وإن كثت وصحبك قلة فإن معك الخير الكثير ولمجيء قل لما فيها من إشعار بأنك لم تعن الله وهو الذي ينصرك ولذا

جاء بعدها حالا سورة النصر وبعد النصر تب العدو

وهذا في غاية الوضوح ولله الحمد.

(136/9)

سورة النصر

قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ .

فيه ذكر النصر والفتح مع أن كلا منهما مرتبط بالآخر فمع كل نصر فتح ومع كل فتح نصر.

فهل هما متلازمان أم لا ؟

كما جاء النصر مضافا إلى الله تعالى والفتح مطلقا.

أولا اتفقوا على نزول هذه السورة بعد فتح مكة ومعلوم أنه سبق فتح مكة عدة فتوحات

منها فتح خيبر ومنها صلح الحديبية سماه الله تعالى فتحا في قوله ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح:27] .

والنصر يكون في معارك القتال ويكون بالحجة والسلطان ويكون بكف العدو كما في الأحزاب﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب:25] .

وكما في اليهود قوله ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الأحزاب:26-27] .

فالنصر حق من الله ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:126] .

وقد علم المسلمون ذلك كما جاء في قوله تعالى ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة:214] فهم يتطلعون إلى النصر.

ويأتيهم الجواب ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214] .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالرعب مسيرة شهر" .

وقد قال تعالى لموسى وأخيه﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:46] فهو نصر معية وتأييد

فالنصر هنا عام.

وكذلك الفتح في الدين بانتشار الإسلام وأعظم الفتح فتحان فتح الحديبية وفتح مكة

إذ الأول تمهيد للثاني والثاني قضاء على دولة الشرك في الجزيرة ويدل لإرادة العموم في النصر والفتح

قوله تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ .

فكأن الناس يأتون من كل جهة حتى من اليمن وهذا يدل على كمال الدعوة ونجاح الرسالة

ويدل لهذا مجيء آية ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[المائدة:3] وكان نزولها في حج تلك السنة.

ويلاحظ أن النصر هنا جاء بلفظ﴿ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وفي غير هذا جاء ﴿ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة:من الآية214]

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:من الآية10] .

ومعلوم أن هذه الإضافة هنا لها دلالة تمام وكمال كما في بيت الله مع أن المساجد كلها بيوت لله فهو مشعر

بالنصر كل النصر أو بتمام النصر كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَالْفَتْحُ﴾ هنا قيل هو فتح مكة وقيل فتح المدائن وغيرها .

وتقدمت الإشارة إلى فتوحات عديدة قبل مكة

وهناك فتوحات موعود بها بعد فتح مكة نص صلى الله عليه وسلم عليها منها في غزوة الأحزاب وهم يحفرون

الخندق لما اعترضتهم كدية وأعجزتهم ودعى إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ ماء وتمضمض

ودعا ما شاء الله أن يدعو ثم ضرب فكانت كالكثيب

وقد جاء فيها ابن كثير بعدة روايات وطرق مختلفة وكلها تذكر أنه صلى الله عليه وسلم ضرب ثلاث ضربات فأبرقت تحت كل ضربة برقة وكبر صلى الله عليه وسلم عند كل واحدة منها فسألوه فقال في الأولى "أعطيت مفاتيح فارس" وذكر اليمن والشام وكلها روايات لا تخلو من نقاش ولكن لكثرتها يقوي بعضها بعضا وأقواها رواية النسائي بسنده قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر فقام النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال: " ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:115]" فندر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ثم ضرب الثانية وقرأ ما قرأه أولا وبرقت أيضا ثم الثالثة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تكسرت فأخذ رداءه صلى الله عليه وسلم وجلس فسأله سلمان لما رأى من البرقات الثلاث فقال له "أرأيت ذلك ؟" قال أي والذي بعثك بالحق يا رسول الله فأخبرهم أنه رفعت له في الأولى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رآها بعينه فقالوا: ادعوا الله لنا أن يفتح علينا ، فدعا لهم وفي الثانية رفعت له مدائن قيصر وما حولها وفي الثالثة مدائن الحبشة وكلها يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم فتفتح عليهم فدعا لهم إلا في الحبشة فقال صلى الله عليه وسلم: "دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم" انتهى ملخصا .

وقد رواه كل من ابن كثير والنسائي مطولا فهذه الروايات وإن كانت تحتمل مقالا

فقد جاء في الموطإ ما لا يحتمل مقالا ولا شك في صحته ولا في دلالته وهو ما رواه مالك عن هشام عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبي زهير أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "يفتح اليمن فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ويفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون".

فهذا نص صحيح صريح منه صلى الله عليه وسلم في حياته بفتح اليمن والشام والعراق وما فتحت كلها إلا من بعده صلى الله عليه وسلم إلا اليمن.

(139/9)

ويؤيد هذا القول ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قال "الله أكبر الله أكبر جاء نصر الله والفتح جاء أهل اليمن" قيل: يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال "قوم رقيقة قلوبهم لينة طباعهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية" رواه ابن كثير عنه.

وقد كان فتح مكة عام ثمان من الهجرة وجاءت الوفود في دين الله أفواجا عام تسع منها وجاء وفد اليمن وأرسل صلى الله عليه وسلم عماله إلى اليمن بعد فتح مكة وقدم عليه علي رضي الله عنه من اليمن في العام العاشر في موسم الحج ففتحت اليمن بعد فتح مكة في حياته صلى الله عليه وسلم

وعليه تكون فتوحات قد وقعت بعد فتح مكة يمكن أن يشملها هنا قوله تعالى ﴿ وَالْفَتْحُ ﴾ وليس مقصورا على فتح مكة كما قالوا.

وقد يؤخذ بدلالة الإيماء الوعد بفتوحات شاملة لمناطق شاسعة من قوله تعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج:27] لأن الإتيان من كل فج عميق يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام وبالتالي يدل على مجيء المسلمين من بعيد وهو محل الاستدلال والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ .

تقدم الكلام على التسبيح ومتعلقه وتصريفه

وهنا قرن التسبيح بحمد الله وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها إذ هي في الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجيء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه ومجيء الفتح العام على المسلمين لبلاد

الله بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم وهي نعمة تستوجب الشكر ويستحق موليها الحمد

فكان التسبيح مقترنا بالحمد في مقابل ذلك وقوله ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ليشعر أنه سبحانه المولى للنعم كما جاء

في سورة الضحى في قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى:3] .

(140/9)

وقوله في سورة اقرأ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:1] وتكرارها ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق:3] لأن صفة

الربوبية مشعرة بالإنعام.

وقوله: ﴿ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ قال بعضهم إن الاستغفار عن ذنب فما هو وقدم الكلام على عصمة الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام عند قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:2] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبة دعوة الرسل ولو بدأنا مع آدم عليه السلام مع قصته ففيها﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ

كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:37] ومعلوم موجب تلك التوبة.

ثم نوح عليه السلام يقول: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

[نوح:28] .

وإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:128] .

وبناء عليه قال بعض العلماء إن الاستغفار نفسه عبادة كالتسبيح فلا يلزم منه وجود ذنب

وقيل هو تعليم لأمته.

وقيل رفع لدرجاته صلى الله عليه وسلم

وقد جاء في السنة أنه صلى الله عليه وسلم قال: "توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة" فتكون أيضا

من باب الاستكثار من الخير والإنابة إلى الله

تنبيه

جاء في التفسير عند الجميع أنه صلى الله عليه وسلم منذ أن نزلت هذه السورة وهو لم يكن يدع قوله

"سبحانك اللهم وبحمدك" تقول عائشة رضي الله عنها يتأول القرآن أي يفسره ويعمل به

ونقل أبو حيان عن الزمخشري أنه قال والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر

(141/9)

بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراز من المعصية وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفا لأمته ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة في نفسه

وفي هذا لفت نظر لأصحاب الأذكار والأوراد الذين يحرصون على دوام ذكر الله تعالى حيث هذا كان من أكثر ما يداوم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في أذكار الصباح والمساء دون الملازمة على ذكر اسم من أسماء الله تعالى وحده منفردا مما لم يرد به من صحيح ولا صريح.

ولا شك أن الخير كل الخير في الاتباع لا في الابتداع وأي خير أعظم مما اختاره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ويأمره به ويلازم هو عليه

وقلنا في آخر حياته لأنه صلى الله عليه وسلم توفي بعدها بمدة يسيرة

وفي هذه الآية دلالة الإيماء لها قالوا ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس في قصة عمر رضي الله عنه مع كبار المهاجرين والأنصار حينما كان يسمح له بالجلوس معهم ويرى في وجوههم وسألوه وقالوا

إن لنا أولادا في سنه فقال إنه من حيث علمتم

وفي يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر قال ابن عباس فعلمت أنه لم يدعاني إلا لأمر فسألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ السورة.

فقالوا إنها بشرى بالفتح وبالنصر فقال ما تقول أنت يا ابن عباس

قال فقلت لا والله إنها نعت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا

فقال عمر وأنا لا أعرف فيها الأكما قلت أي أنه صلى الله عليه وسلم جاء لمهمة وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجا.

وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة فعليه أن يتأهب لملاقاة ربه ليلقى جزاء عمله وهو ماخذ في غاية الدقة وبيان لقول علي رضي الله عنه أو فهم أعطاه الله من شاء في كتاب الله.

(142/9)

سورة المسد

قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

التب القطع.

ومن المادة بت بتقديم الباء فهي تدور على معنى القطع كما يفيده فقه اللغة في دوران المادة على معنى واحد وقال التب والتبب والتباب والتبيب والتتبيب النقص والخسار إلى أن قال وتبت يداه ضلتا وخسرتا.

وقال الفخر الرازي التبات الهلاك ونظيره قوله تعالى ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:37] أي في هلاك.

وذلك لأن أبا لهب أهلك نفسه بفساد اعتقاده وسوء فعاله كما جاء في السنة قول الأعرابي هلكت وأهلكت أي بوقاعه أه له في رمضان وجاء قوله تعالى: ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:101] . فقالوا غير خسران والخسران يؤدي إلى الهلاك والقطع.

كما جاء في معناه في قصة صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:63] فظهر من هذا كله أن معنى تبت يدا أبي لهب دائر بين معنى القطع والهلاك والخسران.

أما قطعها فلم يقدر عليه قطع يديه قبل موته.

وأما الهلاك والخسران فقد هلك بالغدة

وأما الخسران فما أشد خسرانه بعد هذا الحكم عليه من الله تعالى

(143/9)

وإذا كان المعنى قد تعين بنص القرآن في الهلاك والخسران فما معنى إسناد التب لليدين ؟

الجواب أن ذلك من باب إطلاق البعض وإرادة الكل كمتقدم في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ [العلق:16] مع أن الكاذب هو صاحبها.

وقد قدمنا هناك أن مثل هذا الأسلوب لا بد فيه من زيادة اختصاص للجزء المنطوق في المعنى المراد فلما كان الكذب يسود الوجه ويذل الناصية وعكسه الصدق يبيض الوجه ويعز الناصية أسند هنالك الكلام إلى الناصية لزيادة اختصاصها بالكذب عن اليد مثلا

ولما كان الهلاك والخسران غالبا بما تكسبه الجوارح واليد أشد اختصاصا في ذلك أسند إليها التب

ومما يدل على أن المراد صاحب اليدين ما جاء بعدها قوله تعالى ﴿وَتَبَّ﴾ أي أبو لهب نفسه.

وسواء كان قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ على سبيل الإخبار أو الإنشاء فإنه محتمل من حيث اللفظ ولكن قوله تعالى: بعده ﴿وَتَبَّ﴾ فهو إخبار فيكون الأول للإنشاء كقوله ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:17].

ثم جاء الثاني تصديقا له وجاءت قراءة ابن مسعود ﴿وَقَدْ تَبَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

سواء كانت ﴿مَا﴾ استفهامية فهو استفهام إنكار أو كانت نافية فإنه نص على أن ماله لم يغن عنه شيئا

وقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾.

فقيل أي من المال الأول ما ورثه أو ما كسب من عمل جر عليه هذا الهلاك وهو عداؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونظير هذه الآية المتقدمة ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل:11].

(144/9)

وتقدم الكلام عليه هناك.

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ عند قوله تعالى: ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية:10].

وساق كل النصوص في هذا المعنى بتمامها.

تنبيه

في هذه الآية سؤالان هما.

أولا لقد كان صلى الله عليه وسلم مع قومه في مكة ملاطفا حليما فكيف جابه عمه بهذا الدعاء ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ والجواب أنه كان يلاطفهم ما دام يطمع في إسلامهم فلما يئس من ذلك كان هذا الدعاء في محله كما وقع من إبراهيم عليه السلام كان يلاطف أباه ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ [مريم:44] ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم:43] فلما يئس منه تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:114].

والسؤال الثاني وهو مجيء قوله تعالى ﴿ وَتَبَّ ﴾ بعد قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ مع أنها كافية سواء كانت إنشاء للدعاء عليه أو إخبارا بوقوع ذلك منه

والجواب والله تعالى أعلم أن الأول لما كان محتملا الخبر وقد يمحو الله ما يشاء ويثبت أو إنشاء وقد لا ينفذ

كقوله: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:17] أو يحمل على الذم فقط والتقبيح فجاء ﴿وَتَبَّ﴾ لبيان أنه واقع به لا محالة وأنه ممن حقت عليهم كلمات ربك ليبأس صلى الله عليه وسلم والمسلمون من إسلامه وتنقطع الملاطفة معه والله تعالى أعلم.

وقد وقع ما أخبر الله به فهو من إعجاز القرآن أن وقع ما أخبر به كما أخبر ولم يتخلف ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام:115] وقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ

(145/9)

كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس :33].

نسأل الله العافية إنه سميع مجيب.

(146/9)

سورة الإخلاص

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

الأحد قال القرطبي أي الواحد الوتر الذي لا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة ولا ولد ولا شريك ا.ه

ومعلوم أن كل هذه المعاني صحيحة في حقه تعالى

وأصل أحد: وحد قلبت الواو همزة.

ومنه قول النابغة

كأن رحلي وقد زال النهار بنا . . . بذي الجليل على مستأنس وحد

وقال الفخر الرازي في أحد وجهان

أحدهما: أنه بمعنى واحد.

قال الخليل يجوز أن يقال أحد اثنان ثلاثة، ثم ذكر أصلها وحد وقلبت الواو همزة للتخفيف

والثاني: أن الواحد والأحد لبسا اسمين مترادفين.

قال الأزهري لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال رجل واحد

أي فرد به بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء

ثم قال ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوها

أحدها: أن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه.

وثانيها: أنك لو قلت فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد

(147/9)

فإنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لا يجوز أن يقال لكنه يقاومه اثنان

وثالثها أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد يستعمل في النفي

تقول في الإثبات رأيت رجلا واحدا.

وتقول في النفي ما رأيت أحدا فيفيد العموم

أما ما نقله عن الخليل وقد حكاه صاحب القاموس فقال ورجل واحد وأحد أي خلافا لما قاله الأزهري

وأما قوله إن أحدا تستعمل في النفي فقد جاء استعمالها في الإثبات أيضا

كقوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء:43].

فتكون أغلبية في استعمالها ودلالتها في العموم واضحة

وقال في معجم مقاييس اللغة في باب الهمزة والحاء وما بعدها أحد إنها فرع والأصل الواو وحد

وقد ذكر في الواو وفي مادة وحد قال الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد من ذلك الوحدة بفتح

الواو وهو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله

قال:

يا واحد العرب الذي . . . ما في الأنام له نظير

وقيل إن هذا البيت لبشار يمدح عقبة بن مسلم أو لابن المولى يزيد من حاتم نقلا عن الأغاني

فيكون بهذا ثبت أن الأصل بالواو والهمزة فرع عنه

وتقدم أن دلالتها على العموم أوضح أي أحد.

وقد دلت الآية الكريمة على أن الله سبحانه وتعالى أحد أي في ذاته وصفاته لا شبيه ولا شريك ولا نظير ولا ند له سبحانه وتعالى.

وقد فسره ضمنا قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

(148/9)

وقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:11] أما المعنى العام فإن القرآن كله والرسالة المحمدية كلها بل وجميع الرسالات إنما جاءت لتقرير هذا المعنى بأن الله سبحانه واحد أحد بل كل ما في الوجود شاهد على ذلك.

كما قيل:

وفي كل شيء له آية . . . تدل على أنه الواحد

أما نصوص القرآن على ذلك فهي أكثر من أن تحصى لأنها بمعنى لا إله إلا الله.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إشارة إلى ذلك في أول الصافات وفي غيرها وفي البقر ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:163] .

وفي التوبة ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [التوبة:31] فجاء مقرونا بلا إله إلا الله.

وفي ص قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص:65] .

وكما قدمنا أن الرسالة كلها جاءت لتقرير هذا المعنى كما في قوله ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [ابراهيم:52] سبحانه جل جلاله وتقدست أسماؤه وتنزهت صفاته فهو واحد أحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله

وقد جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلا كما قرره نقلا وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ [الاسراء:42-43] .

وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الانبياء:22] .

فدل على عدم فسادهما بعدم تعددهما وجمع العقل والنقل في قوله ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون :91] .

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ .

قال بعض المفسرين يفسره ما بعده﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ .

وقال ابن كثير وهذا معنى حسن.

وقال بعض العلماء هو المتناهي في السؤدد وفي الكمال من كل شيء

وقيل من يصمد الخلائق إليه في حاجاتهم ولا يحتاج هو إلى أحد .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى﴿ الصَّمَدُ﴾ في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:14] فذكر شواهد هذه الأقوال كلها.

ويإمعان النظر في مبدأ يفسره ما بعده يتضح أن السورة كلها تفسير لأولها﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لأن الأحدية هي تفرده سبحانه بصفات الجلال والكمال كلها ولأن المولود ليس بأحد لأنه جزء من والده

والوالد ليس بأحد لأن جزءا منه في ولده

وكذلك من يكون له كفء فليس بأحد لوجود الكفء وهكذا السورة كلها لتقرير﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شواهده عند قوله تعالى﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان:2] من سورة الفرقان.

تنبيه

ففي اتخاذ الولد لا يستلزم نفي الولادة لأن اتخاذ الولد قد يكون بدون ولادة كالتبني أو غيره كما في قصة يوسف في قوله تعالى:عن عزيز مصر ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ [يوسف:21] .

ففي هذه السورة نفي أخص فلزم التنبيه عليه في هذه السورة الكريمة وهي سورة

(150/9)

الإخلاص والتي تعدل ثلث القرآن لاختصاصها بحق الله تعالى في ذاته وصفاته من الوحدانية والصمدية ونفي الولادة والولد ونفي الكفء وكلها صفات انفراد لله سبحانه

وقد جاء فيها النص الصريح بعدم الولادة وأنه سبحانه وتعالى﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فهي أخص من تلك وهذا من المسلمات عند المسلمين جميعا بدون شك ولا نزاع ولم يؤثر فيها أي خلاف

ولكن غير المسلمين لم يسلموا بذلك فاليهود قالوا﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ والنصارى قالوا: ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ والمشركون قالوا الملائكة بنات الله

فاتفقوا على ادعاء الولد لله ولم يدع أحد أنه سبحانه مولود

وقد جاءت النصوص الصريحة في نفي الولد عن الله سبحانه وتعالى إلا أن مجرد النص الذي لم يؤمن به الخصم لا يكفي لإقناعه وفي هذه السورة وهي المختصة بصفات الله لم يأت التنويه فيها عن المانع من اتخاذ الله للولد فهم

كونه سبحانه لم يولد.

ولما كان بيان المانع أو الموجب من منهج هذا الكتاب إذا كان يوجد للحكم موجب أو مانع ولم تتقدم الإشارة إلى ذلك فيما تقدم من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مع أنه رحمه الله قد تكلم على آيات الأسماء والصفات جملة وتفصيلا بما يكفي ويشفي.

ولكن جاء في القرآن الكريم ذكر ادعاء الولد لله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلا مع الإشعار بالدليل العقلي ولذا لزم التنويه عليه وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة:116–117].

فهذا نص صريح فيما قالوه ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ .

(151/9)

ونص صريح في تنزيه الله سبحانه وتسبيحه عما قالوا.

ثم جاء حرف الإضراب عن قولهم ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:116] ففيه بيان المانع عقلا من اتخاذ الولد بما يلزم الخصم وذلك أن غاية اتخاذ الولد أن يكون بارا بوالده وأن ينتفع الوالد بولده كما في قوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:46] أو يكون الولد وارثا لأبيه كما في قوله تعالى عن نبي الله تعالى زكريا عليه السلام ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:5–6].

والله سبحانه وتعالى حي باق يرث ولا يورث كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:26–27].

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد:10].

فإذا كان لله سبحانه وتعالى كل ما في السماوات والأرض في قنوت وامتثال طوعا أو كرها كما قال تعالى:

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:92-93].

فهو سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى الولد لغناه عنه

ثم بين سبحانه قدرته على الإيجاد والإبداع في قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة:117].

وهذا واضح في نفي الولد عنه سبحانه وتعالى

وقد تمدح سبحانه في قوله: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الاسراء:111].

أما أنه لم يولد فلم يدع أحد عليه ذلك لأنه ممتنع عقلا بدليل المانعة المعروف وهو كالآتي

لو توقف وجوده سبحانه على أن يولد لكان في وجوه محتاجا إلى من يوجده ثم يكون من يلده في حاجة إلى والد وهكذا يأتي الدور والتسلسل وهذا باطل

(152/9)

وكذلك فإن الحاجة إلى الولد بنفيها معنى الصمدية المتقدم ذكره ولو كان له والد لكان الوالد أسبق وأحق تعالى الله عن ذلك.

وقد يقال من جانب المانعة العقلية لوافترض على حد قوله: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:81].

فنقول على هذا الافتراض لو كان له ولد فما مبدأ وجود هذا الولد وما مصيره فإن كان حادثا فمتى حدوثه وإن كان قديما تعدد القدم وهذا ممنوع

ثم إن كان باقيا تعدد البقاء وإن كان منتهيا فمتى انتهاؤه ؟

وإذا كان ماله إلى الانتهاء فما الحاجة إلى إيجاده مع عدم الحاجة إليه فانتفي اتخاذ الولد عقلا ونقلا كما انتفت الولادة كذلك عقلا ونقلا.

وقد أورد بعض المفسرين سؤالا في هذه الآية وهو لماذا قدم نفي الولد على نفي الولادة مع أن الأصل في المشاهد أن يولد ثم يلد ؟

وأجاب بأنه من تقديم الأهم لأنه رد على النصارى في قولهم عيسى ابن الله وعلى اليهود في قولهم عزيز ابن الله وعلى قول المشركين الملائكة بنات الله ولأنه لم يدع أحد أنه سبحانه مولود لأحد فكانت دعواهم الولد لله فرية عظمى اهـ.

كما قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:5] .

وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:89-91] .

فلشفاعة هذه الفرية قدم ذكرها ثم الرد على عدم إمكانها بقوله ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:92-93] .

وقد قدمنا دليل المنع عقلا ونقلا.

(153/9)

وهنا سؤال أيضا وهو إذا كان ادعاء الولد قد وقع وجاء الرد عليه فإن ادعاء الولادة لم يقع فلماذا ذكر نفيه مع عدم ادعائه ؟

والجواب والله تعالى أعلم أن من جوز الولادة له وأن يكون له ولد فقد يجوز الولادة عليه وأن يكون مولودا فجاء نفيها تتمة للنفي والتنزيه كما في حديث البحر كان السؤال عن الوضوء من مائة فقط فجاء الجواب عن مائة

وميتته لأن ما احتمل السؤال في مائة يحتمل الاشتباه في ميتته والله تعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

قالوا الكفؤا وكفوا وكفاء بمعنى واحد وهو المثل

وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى الآية وكلها تدور على معنى نفي المماثلة

فعن كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عديل

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه بمعنى ليس كمثله شيء

وعن مجاهد أي لا صاحبة له.

وقد جاء نفي الكفء والمثل والندوالعدل فالكفء في هذه السورة والمثل في قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

وقوله: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:74] .

والند في قوله: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22] .

والعدل في قوله: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آية الأنعام بيان لذلك أي يساوونه بغيره من العدل بكسر أوله

وهو أحد شقي حمل البعير على أحد التفسيرين والآخر من العدول عنه إلى غيره

وفي هذه السورة مبحثان يوردهما المفسرون لأحدهما أسباب نزولها والآخر ما جاء في فضلها ولم يكن من

موضوع هذا الكتاب تتبع ذلك إلا ما كان له دوافع تتعلق بالمعنى

(154/9)

أما ما جاء في فضلها فقد قال أبو حيان في تفسيره لقد أكثر المفسرون إيراد الآثار في ذلك وليس هذا محلها وهو

كما قال فقد أوردها ابن كثير والفخر الرازي والقرطبي وابن حجر في الإصابة في ترجمة معاذ بن جبل وغيرهم

وليس هذا محل إيرادها اللهم إلا ما جاء في الصحيح أن تلاوتها تعدل ثلث القرآن لتعلق موضوعها بالتوحيد

أما المبحث الآخر وهو سبب نزولها فقيل فيه إن المشركين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه فنزلت.

وقوله فيها ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ رد على إثبات النسب له سبحانه وتعالى

وقد جاء مثل هذا المعنى حينما سأل فرعون موسى عن ربه فقال له ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:23].

فجاء جوابه ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:27].

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أن موجب قول فرعون عن موسى لمجنون لأنه سأله بما في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:23] وما يسأل بها عن شرح الماهية فكان مقتضى السؤال بها أن يبين ماهية الرب سبحانه وتعالى من أي شيء هو كما يقال في جواب ما الإنسان إنه حيوان ناطق.

ولكن موسى عليه السلام أعرض عن سؤال فرعون لجهله عن حقيقة الله تعالى أو لتجاهله كما في قوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل:14] وأجابه عما يخصه ويلزمه الاعتراف به من أنه سبحانه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم:من الآية65] لا ربوبية فرعون الكاذبة.

ومثل ذلك في القرآن لما سألوا عن الأهلة ما بالها تبدو صغيرة ثم تكبر فهو سؤال عن حقيقة تغيرها فترك القرآن جوابهم على سؤالهم وأجابهم بما يلزمهم وينفعهم

وكذلك جواب الخليل عليه السلام للنمروذ حينما حاجه في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:258].

فذكره سبحانه بصفاته وفي هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله ونسبه جاء الجواب بصفاته لأن ما يسألون عنه إنما يكون في المخلوقات لا في الخالق سبحانه وفي الممكن لا في الواجب الوجود لذاته سبحان من لا يدرك كنهه غيره وصدق الله العظيم في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110].

(156/9)

المعوذتان سورة الفلق وسورة الناس

يذكر المفسرون عن ابن مسعود، أنه كان يراهما معوذتين من غير القرآن، ولكن أبي بن كعب قال أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له

"﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقلتها وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقلتها" فنحن نقول ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره ابن كثير عن الأمام أحمد.

وذكر نحوه عن البخاري ثم قال: ثم قد رجع عن قوله إلى قول الجماعة، فإن الصحابة رضي الله عنهم أثبتوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق

وروي عن الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأهما في الصلاة وساق عدة طرق في إثبات أنهما قرآن، مما ينفي أي خلاف بعد ذلك في إثباتهما.

وقد اعتذر القرطبي عن ابن مسعود، بأنه لا يسمعهما من النبي صلى الله عليه وسلم، على أنهما قرآن وسمعهما فظنهما أنهما دعاء من الأدعية، كقوله صلى الله عليه وسلم "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق".

وملا بلغه إثباتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى قول الجمهور

ومن الجدير بالذكر التنويه عن ارتباطهما بسورة الإخلاص قبلهما

وهو أنه سبحانه، لما ذكر أنه سبحانه وتعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصمد من معانيه الذي تصمد الخلائق إليه في حاجاتهم، جاء في هاتين السورتين توجيه العباد إلى من يستعيذون ويلوذون به، وهو الله الصمد سبحانه، فهو وحده الذي يعيذهم ويحفظهم وهو الذي يلجئون إليه سبحانه

و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ : تعادل الاستعاذة بالخالق مما خلق، لأن كل منغلق عن غيره، إلا الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد.

الثانية بعدها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ وسيأتي إن شاء الله تنبيه على ما يعطيه السياق من ختم المصحف الشريف بهاتين السورتين الكريمتين، والمقارنة بينهما لبيان عظم منزلتهما

كما أن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، قد أحال على سورة الناس لإتمام مبحث إفراد الله تعالى بالعبادة، كما سنوضحه كله إن شاء الله في محله، وبالله تعالى التوفيق

(157/9)

سورة الفلق

قيل إنه لما صرح تعالى بخالص التوحيد في سورة الإخلاص وهي معركة الإيمان والشرك ومثار الخلل والخصومة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأعدائه أمر صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من شرور الخلق فلا يضروه إلخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ .

قال أبو حيان وغيره الفلق فعل بمعنى مفعول أي مفلوق واختلف في المراد بذلك

فقيل: إنه الصبح يتفلق عنه الليل.

وقيل الحس والنوى.

وقيل: هو جب في جهنم.

وقال بعض المفسرين: كل ما فلقه الله عن غيره كالليل عن الصبح والحب والنوى عن النبت والأرض عن النبات والجبال عن العون والأرحام عن الأولاد والسحاب عن المطر

وقال ابن جرير: إن الله أطلق ولم يقيد فتطلق كذلك كما أطلق.

والذي يظهر أن كل الأقوال ما عدا القول بأنه جب في جهنم من قبيل اختلاف التنوع وأنها كلها محتملة قال ابن جرير على الإطلاق.

أما القول بأنه جب في جهنم فلم يثبت فيه نص وليست فيه أية مشاهدة يحال عليها للدلالة على قدرة الله تعالى كما في الأشياء الأخرى المشاهدة.

(158/9)

والذي يشهد له القرآن هو الأول كما جاء النص الصريح في الصبح والحب والنوى كقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:95-96].

وكلها آيات دالة على قدرة الله وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي وأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

والفلق بمعنى الصبح معروف في كلام العرب

وعليه قول الشاعر:

يا ليلة لم أنمها بت مرتقبا . . . أرعى النجوم إلى أن قدر الفلق

وقول الآخر مثله وفيه إلى أن نور الفلق بدل قدر والواقع أنه في قوة الإقسام برب الكون كله يتفلق بعضه عن بعض.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .

وهذا عام وهو على عمومه حتى قال الحسن إن إبليس وجهنم مما خلق

وللمعتزلة في هذه الآية كلام حول خلق أفعال العباد وأن الله لا يخلق الشر وقالوا كيف يخلقه ويقدره ثم يأمر بالاستعاذة به سبحانه مما خلقه وقدره ؟

وأجيب من أهل السنة بأنه لا مانع من ذلك كما في قوله صلى الله عليه وسلم "وأعوذ بك منك" .

وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:16] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مناقشة هذه المسألة في مناظرة الأسفرائيني مع الجبائي في القدر ومعلوم أن المخلوق لا يتأتى منه شيء قط إلا بمشيئة الخالق ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الانسان:من الآية30] .

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ .

الغاسق قيل الليل لقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الاسراء:78] .

ووقب أي دخل.

وعليه قول الشاعر:

إن هذا الليل قد غسقا . . . واشتكيت الهم والأرقا

وقول الآخر:

يا طيف هند قد أبقيت لي أرقا . . . إذ جئتنا طارقا والليل قد غسقا

قال القرطبي وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم

وقيل الغاسق القمر إذا كان في آخر الشهر لحديث عائشة عند الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال

لها : "تعوذي من هذا فإنه الغاسق إذا وقب" أي القمر .

وقائل هذا القول يقول إنه أنسب لما يجيء بعده من السحر لأنه أكثر ما يكون عندهم في آخر الشهر

ونقل القرطبي عن ثعلب عن ابن الأعرابي أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر أي سقوطه وغيوبته

وأنشد قول الشاعر:

أراحني الله من أشياء أكرهها . . . منها العجوز ومنها الكلب والقمر

هذا يبوح وهذا يستضاء به. . . وهذه ضمرز قوامة السحر

والضمرز الناقة المسنة والمرأة الغليظة

والصحيح الأول: الذي هو الليل بشهادة القرآن.

والثاني تابع له لأن القمر في ظهوره واختفائه مرتبط بالليل فهو بعض ما يكون في الليل وفي الليل تنتشر الشياطين

وأهل الفساد من الإنسان والحيوان ويقل فيه المغيث إلا الله

(160/9)

وفي الحديث: "أطفئوا السرج فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم ليلا. أي الفأرة.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ .

المراد به السحرة قطعا سواء كان النفث من النساء كما هو ظاهر اللفظ أو من الرجال على معنى الجماعات

أو النفوس الشريرة فتشمل النوعين

وأجمع المفسرون أنها نزلت في لبيد بن الأعصم لما سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل عليه

السلام وأخبره.

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث السحر وأقسامه وأحكامه وكل ما يتعلق به عند الكلام

على قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه:69] من سورة طه ما عدا مسألة واحدة وهي

حكم ما لو قتل أو أتلف شيئا بسحره فما يكون حكمه ونوردها موجزة

مسألة

ذكر ابن قدامة في المغني رحمه الله النوع السادس من أنواع القتل أن يقتله بسحر يقتل غالبا فيلزمه القود وإن كان مما لا يقتل غالبا ففيه الدية ا ه

وذكر النووي في المنهاج شرح مغني المحتاج للشافعية التنبيه على أنه يقتل كذلك

وذكر مثله ابن حجر في الفتح أن الساحر يقتل إذا قتل بسحره

تنبيه

يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان

قال أبو حيان أخبرني من رأى في بعض الصحراء عند بعضهم خيطا أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان أي جمع فصيل فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك فكان إذا حل عقد جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فرضع ا ه

كما يقع الحسد أيضا على الحيوان بل وعلى الجماد أي عين العائن تؤثر في

الحيوان والجماد والنبات كما تؤثر في الإنسان على ما سيأتي إن شاء الله

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

اقتران الحسد بالسحر هنا يشير إلى وجود علاقة بين كل من السحر والحسد وأقل ما يكون هو التأثير الخفي الذي يكون من الساحر بالسحر ومن الحاسد بالحسد مع الاشتراك في عموم الضرر فكلاهما إيقاع ضرر في خفاء وكلاهما منهي عنه.

وقد أوضح فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنواع السحر وأحكامه وأورد فيه كلاما وافيا.

وقد ظهر بما قدمنا أن الحسد له علاقة بالسحر نوعا ما فلزم إيضاحه وبيان أمره بقدر المستطاع إن شاء الله

أولا تعريفه قالوا إن الحسد هو تمني زوال نعمة الغير أو عدم حصول النعمة للغير شحا عليه بها

وقد قيدت الاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد أي عند إيقاعه الحسد بالفعل ولم يقيدها من شر الساحر إذا سحر .

وذلك والله تعالى أعلم أن النفث في العقد هو عين السحر فتكون الاستعاذة واقعة موقعها عند سحره الواقع منه بنفثه الحاصل منه في العقد.

أما الحاسد فلم يستعذ منه إلا عند إيقاعه الحسد بالفعل أي عند وجهه إلى المحسود لأنه قبل توجهه إلى المحسود بالحسد لا يتأتى منه شر فلا محل للاستعاذة منه

أما حقيقة الحسد فيتعذر تعريفه منطقيا.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنه قال في السحر لا يمكن تعريفه لخفائه

ومعلوم أن الحسد أشد خفاء لأنه عمل نفسي وأثر قلبي وقد قيل فيه إنه كإشعاع غير مرئي ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود عند تحرقه بقلبه على المحسود وقد شبه حسد الحاسد بالنار في قولهم

(162/9)

اصبر على مضض الحسود . . . فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها . . . إن لم تجد ما تأكله

وقد أنكر بعض الفلاسفة وقوع الحسد حيث إنه غير مشاهد وهم محجوجون بكل موجود غير مشاهد كالنفس والروح والعقل.

وقد شوهدت اليوم أشعة إكس وهي غير مرئية ولكنها تنفذ إلى داخل الجسم من إنسان وحيوان بل وخشب ونحوه ولا يردها إلا مادة الرصاص لكثافة معدنه فتصور داخل جسم الإنسان من عظام وأمعاء وغيرها فلا معنى لرد شيء لعدم رؤيته.

تنبيه

قد أطلق الحسد هنا ولم يبين المحسود عليه ما هو مع أنه كما تقدم زوال النعمة عن الغير

وقد نبه القرآن الكريم على أعظم النعمة التي حسد عليها المسلمون عامة والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة وهي نعمة الإسلام ونعمة الوحي وتحصيل الغنائم

فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:109] .

والمشركون حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي إليه كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:54] .

والناس هنا عام أريد به الخصوص وهو النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:173] .

فالناس الأولى عام أريد به خصوص رجل واحد وهو نعيم ابن مسعود الأشجعي

ومما جاء فيه الحسد عن نعمة متوقعة قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الفتح:15] .

فتبين بنص القرآن أن الحسد يكون في نعمة موجودة ويكون في نعمة متوقع وجودها.

تنبيه آخر

توجد العين كما يوجد الحسد ولم أجد من فرق بينهما مع وجود الفرق

وقد جاء في الصحيح "إن العين لحق" .

كما جاء في السنن: "لو أن شيئا يسبق القدر لسبقته العين" .

ويقال في الحسد حاسد وفي العين عائن ويشتركان في الأثر ويختلفان في الوسيلة والمنطلق.

فالحاسد قد يحسد ما لم يره ويحسد في الأمر المتوقع قبل وقوعه ومصدره تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود وبتمني زوالها عنه أو عدم حصولها له وهو غاية في حطة النفس

والعائن لا يعين إلا ما يراه والموجود بالفعل ومصدره انقداح نظرة إليه وقد يعين ما يكره أن يصاب بأذى منه كولده وماله.

وقد يطلق عليه أيضا الحسد وقد يطلق الحسد ويراد به الغبطة وهو تمني ما يراه عند الآخرين من غير زواله عنهم.

وعليه الحديث: "لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخير ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها بين الناس" .

وقال القرطبي روي مرفوعا "المؤمن يغبط والمنافق يحسد" .

وقال الحسد أول ذنب عصى الله به في السماء وأول ذنب عصى به في الأرض فحسد إبليس آدم وحسد قابيل هابيل ا ه.

تحذير

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله إن أول معصية وقعت هي الحسد وجر شؤمها إلى غيرها وذلك لما حسد إبليس أبانا آدم على ما آتاه الله من

الكرامات من خلقه بيديه وأمر الملائكة بالسجود له فحمله الحسد على التكبر ومنعه التكبر من امتثال الأمر بالسجود فكانت النتيجة طرده عياذا بالله

أسباب الحسد

وبتأمل القصة يظهر أن الحامل على الحسد أصله أمران

الأول: ازدراء المحسود.

والثاني: إعجاب الحاسد بنفسه كما قال إبليس معللا لامتناعه من السجود ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف:12].

ثم فصل معنى الخيرية المزعومة بقوله ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:12] ويلحق بذلك جميع الأسباب.

وقد ذكروا منها التعزز في نفسه ولا يريد لأحد أن يرتفع عليه والتعجب بأن يعجب بنفسه ولا يرى أحدا أولى منه والخوف من فوات المقاصد عند شخص إذا رآه سيستغني عنه وحب الرئاسة ممن لا يريد لأحد أن يتقدم عليه في أي فن أو مجال.

وذكرها الرازي نقلا عن الغزالي.

ومن هنا لا نرى معجبا بنفسه قط إلا ويزدري الآخرين ويحسدهم على أدنى نعمة أنعمها الله عليهم عافانا الله من ذلك.

تنبيه

إذا كانت أول معصية وقعت هي حسد إبليس لأبينا آدم على ما أنعم الله به عليه وجاء حسد المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي وحسد أهل الكتاب للمسلمين على نعمة الإسلام وجاءت هذه السورة في أواخر القرآن فكأنها جاءت في أعقاب القرآن لتذكر المسلمين بعظم نعمته عليهم وشدة حسدهم عليه ليحذروا أعداءهم الذين يكيدون لهم في دينهم من كل من الجنة والناس على ما سيأتي في السورة بعدها والأخيرة إن شاء الله.

مسألة في حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئا بالعين

تقدم بيان ذلك في حق السحر أما في حق العين فقد قال ابن حجر في فتح الباري في كتاب الطب ما نصه وقد اختلف في جريان القصاص بذلك يعني بالعين

فقال القرطبي لو أتلف العائن شيئا ضمنه لو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه بحيث يصير عادة وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفرا اه

ولم يتعرض الشافعية للقصاص في ذلك بل منعوه وقالوا إنه لا يقتل غالبا ولا يعد مهلكا

وقال النووي في الروضة ولا دية فيه ولا كفارة لأن الحكم إنما يترتب على منضبط لحام دون ما يختص ببعض الناس في بعض الأحوال مما لا انضباط له كيف ولم يقع منه فعل أصلا وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة وأيضا فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصوله مكروه لذلك الشخص ولا يتعين ذلك المكروه في زوال الحياة فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين اه

ولا يعكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر فإنه في معناه والفرق بينهما عسير

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم أنه ينبغي للإمام منع العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس وأنه يلزمه بيته فإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي أمر عمر رضي الله عنه بمنعه من مخالطة الناس وأشد من ضرر الثوم الذي منع الشارع آكله من حضور الجماعة

قال النووي وهذا القول صحيح متعين لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه اه من فتح الباري

وبتأمل قول القرطبي والنووي بدقة لا يوجد بينهما خلاف في الأصل إذ القرطبي يقيد كلامه بما يتكرر منه بحيث يصير عادة له.

والنووي يقول إنه لا يقتل غالبا وعليه فلو ثبت أنه يقتل غالبا وتكرر ذلك منه،

فإنه يتفق مع كلام القرطبي تماما في أن من أتلف بعينه وكان معتادا منه ذلك فهو ضامن وهذا معقول المعنى والله تعالى أعلم.

وعند الحنابلة في كشاف القناع ما نصه والمعيان الذي يقتل بعينه

قال ابن نصر الله في حواشي الفروع ينبغي أن يلحق بالساحر الذي يقتل بسحره غالبا فإذا كانت عينه يستطيع القتل بها ويفعله باختياره وجب به القصاص اه

مسألة بيان ما تعالج به العين

لما كان الحسد أضر ما يكون على الإنسان والإصابة بالعين حق لا شك فيها وجاء فيها "لو أن شيئا يسبق القدر لسبقته العين" .

وحديث "إن العين لحق" فقد فصلت السنة كيفية اتقائها قبل وقوعها والعلاج منها إذا وقعت

وذلك فيما رواه مالك في الموطأ وغيره من الصحاح في حديث سهل بن حنيف وبوب البخاري في صحيحه باب رقية العين وذكر حديث عائشة أنها قالت أمرني النبي صلى الله عليه وسلم أو أمر أن يسترقي من العين وعقد مالك في الموطأ بابا بعنوان الوضوء من العين وباب آخر بعده بعنوان الرقية من العين، وساق حديث سهل بتمامه وفيه بيان كيفية اتقائها وعلاجها ولذا نكتفي بإيراده لشموله

قال: عن محمد بن أبي أسامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخرار فنزع جبة كانت عليه وعامر بن ربيعة ينظر قال وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء قال فوعك سهل مكانه واشتد وعكه فأوتي رسول الله فأخبروه أن سهلا وعك وأنه غير رائح معك يا رسول الله فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره سهل بالذي كان من أمر عامر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت إن العين حق توضأ له فتوضأ له عامر فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس .

وساق مرة أخرى وفيه، فقال صلى الله عليه وسلم "هل تتهمون له أحدا", قالوا: نتهم عامر بن ربيعة قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامرا فتغيظ عليه وقال "علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت اغتسل له" فغسل عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه فراح سهل مع الناس ليس به بأس.

فهذه القصة تثبت قطعا وقوع العين وهذا أمر مجمع عليه من أهل السنة وسلف الأمة كما أنها ترشد إلى أن من برك أي قال: تبارك الله.

وفي بعض الروايات لغير مالك هلا كبرت أي يقول الله أكبر ثلاثا فإن ذلك يرد عين العائن.

كما جاء في السنة أن الدعاء يرد البلاء فإذا لم تدفع عند صدورها وأصابت فإن العلاج منها كما جاء هنا "توضأ له" واللفظ الآخر "اغتسل له".

وقد فصل المراد بالغسل له أنه غسل الوجه واليدين أي الكفين فقط والمرفقين والركبتين والقدمين وطرف الإزار الداخلي ويكون ذلك في إناء لا يسقط الماء على الأرض ويفرغ هذا الماء على المصاب من الخلف ويكفأ الإناء خلفه.

وقد ذكرها مفصلة القاضي الباجي في شرح الموطأ فقال وروي عن يحيى بن يحيى عن ابن نافع في معنى الوضوء الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يغسل الذي يتهم بالرجل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه ورجليه وداخلة إزاره وقال ولا يغسل ما بين اليد والمرفق أي لا يغسل الساعد من اليد

وروي عن الزهري أنه قال الغسل الذي أدركنا علماءنا يصفونه أي يؤتي العائن بقدح فيه ماء فيمسك مرتفعا من الأرض فيدخل فيه كفه فيمضمض ثم يمجه في القدح ثم يغسل وجهه في القدح صبة واحدة ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على كفه اليمنى ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ظهر كفه اليسرى صبة واحدة ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على مرفقه الأيمن ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على قدمه اليمنى ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على قدمه الأيسر ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على ركبته اليمنى ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ركبته اليسرى كل ذلك في قدح ثم يدخل داخلة إزاره في القدح ولا يوضع القدح

في الأرض فيصب على رأس المعين من خلفه صبة واحدة وقيل يغتفل ويصب عليه أي في حالة غفلته ثم يكفأ القدح على ظهر الأرض وراءه.

وأما داخلة إزاره فهو الطرف المتدلي الذي يفضي من مازره إلى جلده مكانه إنما يمر بالطرف الأيمن على الأيسر حتى يشده بذلك الطرف المتدلي الذي يكون من داخل ا ه

ومما يرشد إليه هذا الحديث تغيظه صلى الله عليه وسلم على عامر بن ربيعة

وقوله صلى الله عليه وسلم: "علام يقتل أحدكم أخاه" مما يبين شناعة هذا العمل وأنه قد يقتل.

ومما ينبغي مراعاته من كل من الطرفين من ابتلى بالعين فليبارك عند رؤيته ما يعجبه لئلا يصيب أحدا بعينه ولئلا تسبقه عينه .

وكذلك من اتهم أحدا بالعين فليكبر ثلاثا عند تخوفه منه فإن الله يدفع العين بذلك والحمد لله

وقد ذكروا للحسد دواء كذلك أي يداوي به الحاسد نفسه ليستريح من عناء الحسد المتوقد في قلبه المنغص عليه عيشه الجالب عليه حزنه وهو على سبيل الإجمال في أمرين العلم ثم العمل.

والمراد بالعلم هو أن يعلم يقينا أن النعمة التي يراها على المحسود إنما هي عطاء من الله بقدر سابق وقضاء لازم وأن حسده إياه عليها لا يغير من ذلك شيئا ويعلم أن ضرر الحسد يعود على الحاسد وحده في دينه لعدم رضائه بقدر الله وقسمته لعباده لأنه في حسده كالمعترض على قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف:32] وفي دنياه لأنه يورث السقام والأحزان والكآبة ونفرة الناس منه ومقتهم إياه ومن وراء هذا وذاك العقاب في الآخرة

أما العمل فهو مجاهدة نفسه ضد نوازع الحسد كما تقدمت الإشارة إليه في الأسباب فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه فليحاول أن يقدره ويخدمه.

وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه ردها إلى التواضع وإظهار العجز والافتقار

وإن سولت له نفسه تمني زوال النعمة عن غيره صرف ذلك إلى تمني مثلها لنفسه وفضل الله عظيم

(169/9)

وإن دعاه الحسد إلى الإساءة إلى المحسود سعى إلى الإحسان إليه وهكذا فيسلم من شدة الحسد ويسلم غيره من شره.

وكما في الأثر "المؤمن يغبط والمنافق يحسد" .

نسأل الله العافية والمعافاة

(170/9)

سورة الناس

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الإحالة على هذه السورة عند كلامه على قوله تعالى﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:2] في سورة هود فقال على تلك الآية فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها هي أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به في عبادته شيء

وساق الآيات المماثلة لها ثم قال وقد أشرنا إلى هذا البحث في سورة الفاتحة وسنتقصى الكلام عليه إن شاء الله تعالى في سورة الناس لتكون خاتمة هذا الكتاب المبارك حسنى اه

وإن في هذه الإحالة منه رحمة الله تعالى علينا وعليه لتنبيها على المعاني التي اشتملتها هذه السورة الكريمة وتوجيها لمراعاة تلك الخاتمة.

مكتبة أم محمد

كما أن في تلك الإحالة تحميل مسؤولية الاستقصاء حيث لم يكتف بما قدمه في سورة الفاتحة ولا فيما قدمه في سورة هود وجعل الاستقصاء في هذة لسورة ومعنى الاستقصاء الاستيعاب إلى أقصى حد.

وما أظن أحدا يستطيع استقصاء ما يريده غيره ولا سيما ما كان يريده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وما يستطيعه هو.

ولكن على ما قدمنا في البداية أنه جهد المقل ووسع الطاقة فنستعين الله ونستهديه مسترشدين بما قدمه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورتي "الفاتحة" و"هود" ثم نورد وجهة نظر في السورتين معا "الفلق" و"الناس" ثم منهما وفي نسق المصحف الشريف آمل من الله تعالى وراج توفيقه ومعونته

(171/9)

أما الإحالة فالذي يظهر أن موجبها هو أنه في هذه السورة الكريمة اجتمعت ثلاث صفات لله تعالى من صفات العظمة والكمال ﴿ رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ ولكأنها لأول وهلة تشير إلى الرب الملك هو الإله الحق الذي يستحق أن يعبد وحده.

ولعله ما يرشد إليه مضمون سورة الإخلاص قبلها ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ وه ذا هو منطق العقل والقول الحق لأن مقتضى الملك يستلزم العبودية والعبودية تستلزم التأليه والتوحيد في الألوهية لأن العبد المملوك تجب عليه الطاعة والسمع لمالكه بمجرد الملك وإن كان مالكه عبدا مثله فكيف بالعبد المملوك لربه وإلهه وكيف بالمسالك الإله الواحد الأحد لفرد الصمد ؟

وقد جاءت تلك الصفات الثلاث الرب الملك الإله في أول افتتاحية أول المصحف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:2-4] والقراءة الأخرى ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

وفي أول سورة البقرة أول نداء وجه للناس بعبادة الله تعالى وحده لأنه ربهم مع بيان الموجبات لذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ .

ثم بين الموجب لذلك بقوله ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:21] .

وقوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [البقرة:22] .

وهذا كله من آثار الربوبية واستحقاقه تعالى على خلقه العبادة ثم بين موجب إفراده وحده بذلك بقوله ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22] .

أي كما أنه لا ند له في الخلق ولا في الرزق ولا في شيء مما ذكر ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أيضا في عبادة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك.

وعبادته تعالى وحده ونفي الأنداد هو ما قال عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى لا إله إلا الله نفيا وإثباتا .

فالإثبات في قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء:36] .

(172/9)

والنفي في قوله: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ [البقرة:22] .

وكون الربوبية تستوجب العبادة جاء صريحا في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:3-4] .

فالموصول وصلته في معنى التعليل لموجب العبادة وسيأتي لذلك زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى في نهاية السورة.

وقد جاء هنا لفظ ﴿ رَبِّ النَّاسِ﴾ بإضافة الرب إلى الناس بما يشعر بالاختصاص مع أنه سبحانه رب العالمين ورب كل شيء كما في أول الفاتحة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] .

وفي قوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:164] ء ﴾ .

فالإضافة هنا إلى بعض أفراد العام

وقد أضيف إلى بعض أفراد أخرى كالسماوات والأرض وغيرها من بعض كل شيء كقوله﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد:16] .

وقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:9] .

وإلى البيت ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ [قريش:3] .

وإلى البلد الحرام ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ [النمل:91] .

وإلى العرش ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:116] .

وإلى الرسول ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:106] .

وقوله: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر:3] إلى غير ذلك.

ولكن يلاحظ أنه مع كل إضافة من ذلك ما يفيد العموم وأنه مع إضافته لفرد من أفراد العموم فهو رب العالمين ورب كل شيء ففي إضافته إلى السماوات والأرض جاء معها﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ .

وفي الإضافة إلى المشرق والمغرب جاء﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:9] .

وفي الإضافة إلى البيت جاء ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ .

وفي الإضافة إلى البلدة جاء ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ [النمل:91] وهو الله تعالى.

وفي الإضافة إلى العرش جاء قوله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:116] .

وفي الإضافة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاء قوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى:3] وغير ذلك من الإضافة إلى أي فرد من أفراد العموم يأتي معها ما يفيد العوم وأن الله رب العالمين.

وهنا رب الناس جاء معها ﴿ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ ليفيد العموم أيضا لأن إطلاق الرب قد يشارك فيه السيد المطاع كما في قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:31] .

وقول يوسف لصاحبي في السجن ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:42] أي الملك على أظهر الأقوال وقوله ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ [يوسف:50] .

فجاء بالملك والإله للدلالة على العموم في معنى﴿ رَبِّ النَّاسِ﴾ فهو سبحانه رب العالمين ورب كل شيء ولكن إضافته هنا إلى خصوص الناس إشعار بمزيد اختصاص ورعاية الرب سبحانه لعبده الذي دعاه إليه ليستعيذ به من عدوه كما أن فيه تقوية رجاء العبد في ربه بأنه سبحانه بربوبيته سيحمي عبده لعبوديته ويعيذه مما استعاذ به منه.

ويقوي هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أطواره منذ البدأين بدء الخلقة وبدء الوحي في قوله ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:1-2] ثم في نشأته ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إلى قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى:3-8] .

وجعل الرغبة إليه في السورة بعدها﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:8] تعداد النعم عليه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر ثم في المنتهي قوله ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:8] .

(174/9)

قوله تعالى: ﴿ مَلِكِ النَّاسِ﴾ ، في مجيء ﴿ مَلِكِ النَّاسِ﴾ بعد ﴿ رَبِّ النَّاسِ﴾ تدرج في التنبيه على تلك المعاني العظام وانتقال بالعباد من مبدإ الإيمان بالرب لما شاهدوه من آثار الربوبية في الخلق والرزق وجميع تلك الكائنات كما تقدم في أول نداء وجه إليهم﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة:21-

22] .

كل هذه الآثار التي لمسوها وأقروا بموجبها بأن الذي أوجدها هو ربهم ومن ثم ينتقلون إلى الدرجة الثانية وهي أن ربه الذي هذه أفعاله هو ملكه وهو المتصرف في تلك العوالم وملك لأمره وجميع شؤونه ومالك لأمر الدنيا والآخرة جميعا .

فإذا وصل بإقراره إلى هذا الإدراك أقر له ضرورة بالألوهية وهي المرتبة النهاية.

﴿ إِلَهِ النَّاسِ﴾ أي مالوههم ومعبودهم وهو ما خلقهم إليه﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات:56] .

وفي إضافة الملك إلى الناس من إشعار الاختصاص مع أنه سبحانه ملك كل شيء فيه ما في إضافة الرب للناس المتقدم بحثه فهو سبحانه مالك الملك كما في قوله ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26] .

وقوله تعالى: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن:1] .

وقوله: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج:9] وقوله: ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:23] .

فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالملك لا شريك له في ملكه كما قال تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الاسراء:111] فبدأ بالحمد أولا.

ومثله قوله: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:83] بدأ بتسبيح نفسه وتنزيهه لعموم الملك ومطلق التصرف ونفي الشريك لأن ملكه ملك تصرف وتدبير مع الكمال في الحمد والتقديس

وكقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:1] .

وبهذه النصوص يعلم كمال ملكه تعالى ونقص ملك ما سواه من ملوك الدنيا ونعلم أن ملكهم بتمليك الله تعالى

إياهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:247].

وقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26].

ومن المعلوم أن ملوك الدنيا ملكهم ملك سياسة ورعاية لا ملك تملك وتصرف وكما في قوله تعالى﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:247].

والجدير بالتنبيه عليه بهذه المناسبة أن بريطانيا تحترم نظام الملكية إلى هذا الوقت الحاضر بدافع من هذا المعتقد وأنه لا ملك إلا بتمليك الله إياه وأن ملوك الدنيا باصطفاء من الله

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه من أن ملوك الدنيا لا يملكون أمر الرعية لأن طالوت ملكا وليس مالكا لأموالهم.

بينما ملك الله تعالى ملك خلق وإيجاد وتصرف كما في قوله تعالى ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:49-50].

و ﴿ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هنا من خصائصه سبحانه وتعالى فيتصرف في ملكه بعلم وعن قدرة كاملين سبحانه﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:2].

وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق فيتلاشى كل ملك قل أو كثر ويذل كل ملك كبر أو صغر ولم يبق إلا ملكه تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

وفي سورة الفاتحة ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

والقراءة الأخرى ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

في القراءتين معا إشعار بالفرق بين ملك الله وملك العباد كالفرق بين الملك المطلق والملك النسبي إذ الملك النسبي لا يملك والملك المطلق فهو الملك القدوس والذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجع الخلائق كلهم ومن كانت هذه صفاته فهو المستحق لأن يعبد وحده سبحانه ولا يشرك معه أحد وهذا هو شعار العبد في الركن الخامس من أركان الإسلام حين يهل بالتلبية إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

قوله تعالى: ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

هذه هي المرتبة الثالثة في كمال العبودية وإفراد الله تعالى بالألوهية

وهذا هو محل الإحالة التي عناها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يظهر لأن العبد إذا أقر بأن الله ربه وخالقه ومنعم عليه أوجده من العدم ورباه بالنعم لا رب له سواه ثم تدرج بعلمه ويقينه إلى الإقرار بأن ربه هو مليكه والمتصرف في أمره وحده وأنه لا يملك هو نفسه مع الله شيئًا ولا يملك له أحد من الله شيئًا وأن كل تصرفات العالم كله بأمره فلا يصل إليه خير إلا بإذنه ولا يصرف عنه ضر إلا بأمره.

وعرف في يقين أنه عبد مملوك لمن بيده ملكوت السماوات والأرض توصل بعلمه هذا أن من كانت هذه صفاته كان هو وحده المستحق لإفراده بالعبادة وبالألوهية لا إله إلا هو

فيكون في خاتمة المصحف الشريف انتزاع الإقرار من العبد لله سبحانه بطريق الإلزام بالمعنى الذي أرسل الله به رسله وأنزل من أجله كتبه وهو أن يعبد الله وحده وهو ما صرح الشيخ به في الإحالة السابقة

وإذا كان الشيخ رحمه الله قد نبه على مراعاة خاتمة المصحف فإنا لو رجعنا إلى أول المصحف وآخره لوجدنا ربطا بديعا إذ تلك الصفات الثلاث في سورة الناس

م وجودة في سورة الفاتحة فاتفقت الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم إذ في الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فجاءت صفة الربوبية والملك والألوهية في لفظ الجلالة

وتكون الخاتمة الشريفة من باب عود على بدء وأن القرآن له فيما بين ذلك شرح وبيان لتقدير هذا المعنى الكبير.

وسيأتي لذلك زيادة إيضاح في النهاية إن شاء الله تعالى

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ .

كلاهما صيغة مبالغة من الوسوسة والخنس بسكون النون

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى الوسوسة والوسواس لغة وشرعا أي المراد عند كلامه على قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [طه:120] .

وبين مشتقاتهما وأصل اشتقاقهما وهو يدور على أن الوسوسة الحديث الخفي والخنس التأخر كما تكلم ع ذلك في دفع إيهام الاضطراب حيث اجتمع المعنيان المتنافيان

لأن الوسواس كثير الوسوسة ليضل بها الناس والخناس كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس

وأجاب بأن لكل مقام مقالا وأنه يوسوس عند غفلة العبد عن ذكر ربه خانس عند ذكر العبد ربه تعالى كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:36] إلى آخره ا ه

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ .

اختلف في الظرف هنا هل هو ظرف للوسواس حينما يوسوس فيكون موجودا في الصدور ويوسوس للقلب أو هو ظرف للوسوسة ويكون المراد بالصدور القلوب لكونها حالة في الصدور من باب إطلاق المحل وإرادة الحال على ما هو جار في الأساليب البلاغية

وعلى حد قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق:17] أطلق النادي وأراد من يحل فيه من القوم

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث تعدية الوسوسة تارة بإلى وتارة باللام ففي سورة الأعراف

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف:20] وفي طه ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه:120].

وحاصل ما ذكره في الجمع بينهما أحد أمرين إما أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض وذكر شواهده وإما أن

يكون وسوس أي لأجله ووسوس إليه أي أنهى إليه الوسوسة ولكن هنا قال ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ولم يقل

إلى صدور الناس فهل هو من باب نيابة حروف الجر بعضها عن بعض أيضا أم هي ظرف محض؟

والظاهر أنها ظرف ولكن هل من الظرف للوسواس أو ظرف للوسوسة نفسها؟

وبالنظر إلى كلام المفسرين فإن كلام ابن جرير يحتمل اعتبار المعنيين بدون تعيين

وأما القرطبي والألوسي فصرحا بما ظهر لهما ووصلا إليه

فقال القرطبي قال مقاتل إن الشيطان في صورة خنزير يجري من مجرى الدم في العروق سلطه الله على ذلك وذكر

الحديث "إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه".

وقال إن أبا ثعلبة الخشني قال سألت ربي أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته يداه في يديه ورجلاه في

رجليه ومشاعيه في جسده غير أن له خطما كخطم الكلب فإذا ذكر الله خنس وإذا سكت عن ذكر الله أخذ

بقلبه.

أما الألوسي فقد صرح بالتقسيم الذي أوردناه فقال: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾.

قيل أريد قلوبهم مجازا.

وقال بعضهم إن الشيطان يدخل الصدر الذي هو بمنزلة الدهليز فيلقي منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه

ولا مانع عقلا من دخوله في جوف إنسان وساق الحديث أيضا "إن الشيطان يجري" إلى آخره.

ومراده بالمجاز ما قدمنا من إطلاق المحل وإرادة الحال

وذكر ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الصدر ظرف للوسواس وأنه يوقع الوسوسة في القلب على ما قاله ابن عباس ومجاهد رحمهم الله.

وفي لفظ: ﴿النَّاسِ﴾ هنا المضاف إليه الصدور اختلاف في المراد منه فقيل الإنس الظاهر الاستعمالي وقيل: الثقلان: الإنس والجن.

وإن إطلاق الناس على الجنس مسموع كما حكاه القرطبي قال عن بعض العرب

إنه كان يحدث فجاء قوم من الجن فوقفوا فقيل من أنتم فقالوا ناس من الجن وهذا معنى قول الفراء

واستدل صاحب هذا القول بطريق القياس باستعمال لفظي رجال ونفر في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:6] وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ [الاحقاف:29].

وعليه يكون الوسواس المستعاذ منه يوسوس في صدور الجن والإنس

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الوجه ولكنه رده وضعفه لأن لفظ الناس أظهر وأشهر في الإنس وهو المعروف في استعمال القرآن ولأنه على هذا يكون قسم الشيء قسملنه لأنه يجعل الناس قسيم الجن ويجعل الجن نوعا من الناس ا ه ملخصا.

وعلى كل فإن منهج الأضواء أن ما كان محتملا وكان أكثر استعمالات القرآن لأحد الاحتمالين فإن كثرة استعماله إياه تكون مرجحا وجميع استعمالات القرآن للفظ ﴿النَّاسِ﴾ إنما هو في خصوص الإنس فقط ولم تستعمل ولا مرة واحدة في حق الجن مع مراعاة استعمالها في هذه السورة وحدها خمس مرات حتى سميت سورة الناس.

أما القياس على لفظتي رجل ونفر فقد رده شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا بأنهما وردا مقيدين ﴿ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن:من الآية6]، ﴿ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ﴾ [الاحقاف:من الآية29] .

أما على الإطلاق فلم يردا وهكذا لفظ ﴿ النَّاسِ ﴾ فلا مانع من استعماله مقيدا ناس من الجن أما على الإطلاق فلا.

وعليه فحيث ورد لفظ ﴿ النَّاسِ ﴾ هنا مطلقا فلا يصح حمله على الجن والإنس معا بل يكون خاصا بالإنس فقط ويكون ﴿ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ أي في صدور الإنس.

وقد ذكر أبو السعود معنى آخر في لفظ ﴿ النَّاسِ ﴾ وهو أن الناسي عن النسيان حذفت الياء تخفيفا لأن الوسواس لا يوسوس إلا في حين النسيان والغفلة

وعليه يكون حذف الياء كحذفها من الداع في قوله ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ [القمر:6] ونحوه.

ولكن يبقى على هذا القول بيان من المراد بالناسي أهو من الإنس أم من الجن فلم يخرج عن الاحتمالين السابقين مع أن هذا القول من لوازم معنى الوسواس الخناس

ويرد على هذا القول جمع الصدور وإفراد الناس والجمع لا يضاف إلا إلى جمع أي جمع الصدور لأن الفرد ليس له جمع من الصدور فيقابل الجمع بجمع أو يكتفي بالمفرد بمفرد

وقد جاء في إضافة الجمع إلى المثنى في قوله ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم:4] .

وقال أبو حيان وحسنه أن المثنى جمع في المعنى والجمع في مثل هذا أكثر استعمالا من المثنى والتثنية دون الجمع.

كما قال الشاعر:

فخالسا نفسيهما بنوافذ . . . كنوافذ العيط التي لا ترفع

وهذا كان القياس وذلك أن المعبر عن المثنى بالمثنى لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع بأن التثنية جمع في المعنى والإفراد لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر.

كقوله.

حمامة بطن الواديين ترنمي

يريد بطني وغلط ابن مالك في التسهيل إذ قال ونختار الإفراد على لفظ التثنية فتراه غلط ابن مالك في اختياره جواز إضافة الجمع إلى المفرد كما أنه قال ولا يجوز ذلك إلا في الشعر وأنه مع المثنى لكراهية اجتماع التثنيتين فظهر بطلان قول أبي السعود.

أما الراجح في الوجهين في معنى ﴿ النَّاسِ ﴾ المتقدم ذكرهما فهو الوجه الأول وهو أنهم الإنس وأن قوله تعالى ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ بيان لمن يقوم بالوسوسة أي بيان للوسواس الخناس وأنه من كل من وسواس الجنة ووسواس الناس.

ويظهر ذلك من أمور:

منها أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم لأمته تبعا له فهو في حق الناس أظهر.

ومنها أننا لو جعلنا الناس الأولى عامة لمن يوسوس إليه كان من الجنة والناس مصدر الوسوسة فيكون من وسواس الناس من يوسوس في صدور الجن وهذا بعيد.

ومنها أنه لو كان لفظ الناس يشمل الجن والإنس لما احتيج إلى هذا التقسيم ﴿ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ واكتفي في الثانية بما اكتفي به في الأولى وكان يكون ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ من الناس ولكن جاء بيان محل الوسوسة ﴿ صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ثم جاء مصدر الوسوسة ﴿ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ والله تعالى أعلم.

تنبيه

ذكر أبو حيان في آخر تفسيره مقارنة لطيفة بين سورتي المعوذتين فقال ولما كانت مضرة الدين وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث الرب والملك والإله وإن اتحد المطلوب.

وفي الاستعاذة من ثلاث الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الشر وإن تكثر الذي يستعاذ منه

وهذه الأخرى لفتة كريمة طالما كنت تطلعت إليها في وجهتي نظر إحداهما بين السورتين والأخرى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف سيأتي إيرادهما إن شاء الله

إلا أنه على وجهة نظر أبي حيان وهي أنه تعالى في سورة الفلق جاء في الاستعاذة بصفة واحدة وهي ﴿ رَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .

وفي سورة الناس جاء في الاستعاذة بثلاث صفات مع أن المستعاذ منه في الأولى ثلاثة أمور والمستعاذ منه في الثانية أمر واحد فلخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث

ويقال أيضا من جهة أخرى إن المستعاذ منه في السورة الأولى أمور تأتي من خارج الإنسان وتأتيه اعتداء عليه من غيره وقد تكون شرورا ظاهرة ومثل ذلك قد يمكن التحرز منه أو اتقاؤه قبل وقوعه وتجنبه إذا علم به بينما الشر الواحد في الثانية يأتيه من داخليته وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه إذ الشيطان يرانا ولا نراه كما في قوله: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف:27] .

وقد يثير عليه خلجات نفسه ونوازع فكره فلا يجد له خلاصا إلا بالاستعاذة واللجوء إلى ﴿ رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

أما الوجهتان اللتان نوهنا عنهما فالأولى بين السورتين وهي مما أورده أبو حيان إذ في سورة الفلق قال ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق:1] ورب الفلق تعادل قوله ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة:2] .

لأنه ما من موجود في هذا الكون إلا وهو مفلوق عن غيره

ففي الزرع: ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ [الأنعام:95] .

وفي الزمن: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام:96] .

وفي الحيوانات ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء:1].

وفي الجمادات يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الانبياء:32-31].

فرب الفلق تعادل رب العالمين فقابلها في الاستعاذة بعموم المستعاذ منه ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾.

ثم جاء ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به وهو ﴿ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، ﴿ والنفاثات في العقد ﴾، ﴿ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

فالمستعاذ به صفة واحدة والمستعاذ منه عموم ما خلق جملة وتفصيلا بينما في السورة الثانية جاء بالمستعاذ به ثلاث صفات هي صفات العظمة لله تعالى الرب والملك والإله

فقابل المستعاذ منه وهو شيء واحد فقط وهو ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ وهذا يدل على شدة خطورة المستعاذ منه.

وهو كذلك لأننا لو نظرنا في واقع الأمر لوجدنا مبعث كل فتنة ومنطلق كل شر عاجلا أو آجلا لوجدناه بسبب الوسواس الخناس وهو مرتبط بتاريخ وجود الإنسان

وأول جناية وقعت على الإنسان الأول إنما هي من هذا الوسواس الخناس وذلك أن الله تعالى لما كرم آدم فخلقه بيده وأسجد الملائكة له وأسكنه الجنة هو وزوجه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظما فيها ولا يضحى يأكلان منها رغدا حيث ما شاءا إلا من الشجرة الممنوعة فوسوس إليهما الشيطان حتى أكلا منها ودلاهما بغرور حتى أهبطوا منها جميعا بعضهم لبعض عدو.

وبعد سكناهما الأرض أتى ابنيهما قابيل وهابيل فلاحقهما أيضا بالوسوسة حتى طوعت نفس أحدهما قتل

أخيه فأصبح من النادمين.

وهكذا بسائر الإنسان في حياته بالوسوسة حتى يربكه في الدنيا ويهلكه في

الآخرة ولقد اتخذ من المرأة جسرا لكل ما يريد وها هو يعيد الكرة في نزع اللباس عن أبوينا في الجنة فينتزعه عنهما في ظل بيت الله الحرام في طوافهم قبل البعثة ولا يزال يغويه وعن طيق المرأة في كل زمان ومكان ليخرجه عن الاستقامة كما أخرج أبويه من الجنة

ولا يزال يجلب على الإنسان بخيله ورجله بارا بقسمه بين يدي الله بعزته ليغوينهم أجمعين

وإن أخطر أبواب الفساد في المجتمعات لهي عن المال أو الدم أو العرض كما في الحديث في حجة الوداع ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا إلى آخره.

وهل وجدت جناية على واحد منها إلا من تأثير الوسواس الخناس اللهم لا

وهكذا في الآخرة.

وقد بين تعالى الموقف جليا في مقالة الشيطان البليغة الصريحة ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [ابراهيم:22].

ولقد علم عدو المسلمين أن أخطر سلاح على الإنسان هو الشك ولا طريق إليه إلا بالوسوسة فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين في دينهم وفي دنياهم ويشككهم في قدرتهم على الحياة الكريمة مستقلين عنه ويشككهم في قدرتهم على التقدم والاستقلال الحقيقي بل وفي استطاعتهم على الإبداع والاختراع ليظلوا في فلكه ودائرة نفوذه فيبقى المسلمون يدورن في حلقة مفرغة يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى

والمتشكك في نتيجة عمل لا يقدم عليه أبدا بل ما يبنيه اليوم يهدمه غدا وقد أعلن عن هذه النتيجة الخطيرة

رئيس مؤتمر المستشرقين في الشرق الأوسط منذ أكثر من ثلاثين عاما حينما انعقد المؤتمر في بيروت لعرض نتائج أعمالهم ودراسة أساليب تبشيرهم

(185/9)

فتشكى المؤتمرون من أن لهم زهاء أربعين سنة من عملهم المتواصل لم يستطيعوا أن ينصروا مسلما واحدفالف رئيس المؤتمر إذا لم نستطع أن ننصر مسلما ولكن استطعنا أن نوجد ذبذبة في الرأي فقد نجحنا في عملنا وهكذا منهج العدو تشكيك في قضايا الإسلام ليوجد ذبذبة في عقيدة المسلمين فعن طريق الميراث تارة وعن طريق تعدد الزوجات أخرى وعن دوافع القتال وعن استرقاق الرقيق عن وعن.

حتى وجد من أبناء المسلمين من يتخطى حدود الشك إلى التصديق وأخذ يدعو إلى ما يدعو إليه العدو وما ذاك كله إلا حصاد ونتائج الوسواس الخناس

فلا غرو إذا أن تجمع الصفات الجليلة الثلاث﴿ رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ .

هذه وجهة النظر الأولى بين سورتي الفلق والناس.

أما الوجهة الثانية وهي بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف بقوله تعالى﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:2-7] .

وفي هذه البداية الكريمة بث الطمانينة في القلب المعبر عنها بالحمد عنوان الرضى والسعادة والإقرار لله بالربوبية ثم الإيمان بالبعث والإقرار لله بملك يوم الدين ثم الالتزام بالعبادة لله وحده والالتجاء إليه مستعينا به مستهديا الصراط المستقيم سائلا صحبة الذين أنعم عليهم

ثم يأتي بعدها مباشرة في أول سورة البقرة﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:2] أي إن الهدى الذي تنشده إلى الصراط المستقيم فهو في هذا الكتاب لا ريب فيه ثم بين الفئة الذين أنعم الله عليهم

بقوله: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:3–4] .

ومرة أخرى للتأكيد ﴿ أُولَئِكَ ﴾ لا سواهم ﴿ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

(186/9)

ثم تترسل السورة في تقسيم الناس إلى الأقسام الثلاثة مؤمنين وكافرين ومذبذبين بين بين وهم المنافقون

ثم يأتي النداء الصريح وهو أول نداء في المصحف لعموم الناس ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:21]

ويقيم البراهين على استحقاقه للعبادة وعلى إمكان البعث بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:21–22] .

وبعد تقرير الأصل وهي العقيدة تمضي السورة في ذكر فروع الإسلام تشتمل على أركان الإسلام كلها وعلى كثير من مسائل المعاملات والجهاد وقل باب من أبواب الفقه إلا وله ذكر في هذه السورة ويأتي ما بعدها مبينا لما أجمل فيها أو لما يذكر ضمنها.

وهكذا حتى ينتهي القرآن بكمال الشريعة وتمام الدين

ولما جاء في وصف المتقين المهتدين في أول المصحف أنهم يؤمنون بالغيب ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب أمور الغيب تستلزم اليقين لترتب الجزاء عليه ثوابا أو عقابا

والثواب والعقاب هما نتيجة الفعل والترك

والفعل والترك هما مناط التكليف لأن الإنسان يمتثل الأمر رجاء الثواب ويكف عن متعلق النهي مخافة العقاب.

فلكأن نسق المصحف الشريف يشير إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه من أن القرآن بدأ بالحمد ثناء على الله بما

أنعم على الإنسان بإنزاله وإرسال الرسول صاحبه به ثم نقله من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة وهو الأعظم قدرا وخطرا ثم رسم له الطريق الذي سلكه المهتدون أهل الإنعام والرضى ثم أوقفه عليه ليسلك سبيلهم وهكذا إلى أن جاء به بعد كمال البيان والإرشاد والهداية جاء به إلى نهاية هذا الصراط المستقيم فاستوقفه ليقول له إذا اطمانت لهذا الدين وآمنت بالله رب

(187/9)

العالمين، واعتقدت مجيء يوم الدين وعرفت طريق المهتدين ورأيت أقسام الناس الثلاث مؤمنين وكافرين ومنافقين ونهاية كل منهم فالزم هذا الكتاب وسر على هذا الصراط ورافق أهل الإنعام وجانب المغضوب عليهم والضالين وأحذر من مسلك المنافقين المتشككين وحاذر كل الحذر من موجب ذلك كله وهو الوسواس الخناس أن يشككك في متعلقات الإيمان أو في استواء طريقك واستقامته أو في عصمة كتابك وكماله وكن على يقين مما أنت عليه ولا تنس خطره على أبويك من قبل إذ هما في الجنة دار السلام ولم يسلما منه ودلاهما بغرور فحاذر منه ولذ بي كلما ألم بك أو مسك طائف منه وكن كسلفك الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201].

وقد علمت عداوته لك من بعد وعداوته ناشئة عن الحسد

ولكأن ارتباط السورتين ليشير إلى منشأ تلك العداوة وارتباطها بها التحذير إذ في الأولى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فحسد الشيطان آدم على إكرام الله إياه كما أسلفنا

والعدو الحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن المحسود ولئن كانت توبة آدم هي سبيل نجاته كما في قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:37].

فنجاك أيضا في كلمات تستعيذ بها من عدوك برب الناس ملك الناس إله الناس لأن الرب هو الذي يرحم عباده وملك الناس هو الذي يحميهم ويحفظهم ويحرسهم وإله الناس الذي يتألهون إليه ويتضرعون ويلوذون به

سبحانه.

تنبيه

إذا كان هذا كله خطر الوسواس الخناس من الجنة والناس وهما عدو مشترك ومتربص حاقد حاسد فما طريق النجاة منه.

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن طريق النجاة تعتمد على أمرين

الأول: يؤخذ من عمومات الكتاب والسنة

(188/9)

والثاني سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه

أما الأول فهو إذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضي دون تردد كما في قوله ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:159] وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالاقتداء بهم﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف:35].

وقال صلى الله عليه وسلم: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك".

والقاعدة الفقهية "اليقين لا يرفع بشك".

والحديث "يأتي الشيطان لأحدكم وهو في الصلاة فينفخ في مقعدته فيخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا".

ومن هنا كانت التكاليف كلها على ليقين فالعقائد لا بد فيها من اليقين

والفروع في العبادات لا بد فيها من النية "إنما الأعمال بالنيات".

والشرط في النية الجزم واليقين فلو نوى الصلاة على أنه إن حضر فلان تركها لا تنعقد نيته ولو نوى صوما أنه إن شاء أفطر لا ينعقد صومه.

ونص مالك في الموطإ أنه إن نوى ليوم الشك في ليلته الصوم غدا على أنه إن صح من رمضان فهو لرمضان وإلا فهو نافلة لا ينعقد صومه لا فرضا ولا نفلا حتى لو جاء رمضان لا يعتبر له منه وعليه قضاؤه لعدم الجزم بالنية والحج لو نواه لزمه ولزمه المضي فيه ولا يملك الخروج منه باختياره

وهكذا المعاملات في جميع العقود مبناها على الجزم حتى في المزح واللعب يؤاخذ في البعض كالنكاح والطلاق والعتاق.

فمن هذا كله كانت دوافع العزيمة مستقاة من التكاليف مما يقضي على نوازع الشك والتردد ولم يبق في قلب المؤمن مجال لشك ولا محل لوسوسة.

وقد كان الشيطان يفر من طريق عمر رضي الله عنه.

(189/9)

أما الذي كنت سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فقوله لقد علمنا الله كيفية اتقاء العدو من الإنس ومن الجن.

أما العدو من الإنس ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:34].

فدل على أن مقابلة إساءة العدو بالإحسان إليه تذهب عداوته وتكسب صداقته كما قال تعالى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ السيئة.

وأما عدو الجن ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:36].

وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع ذكر الله

وعلى قوله رحمه الله فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه بالله ويكفيه ذلك لأن ﴿ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

ضَعِيفاً ﴾ .

أما شيطان الإنس فهو في حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه كما يرشد إليه قوله تعالى﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:35] .

رزقنا الله تعالى وجميع المسلمين حظا عظيما في الدنيا والآخرة إنه المسؤول وخير مامول

روى ابن كثير حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من أعين الجن والإنس فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي حسن صحيح.

وروي عن عبد الله الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال "قل" فلم أدر ما أقول ثم قال لي: "قل" فقلت: ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم قال لي: "قل" قلت: ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ حتى فرغت منها ثم قال لي: "قل" قلت: ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ حتى فرغت منها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هكذا فتعوذ وما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط" .

(190/9)

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على أفضل خلقه وأكرمهم عليه، من اصطفاه لرسالته وشرفنا ببعثته، وختم به رسله وكرمنا به وهدانا لاتباعه، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا معهم أجمعين، إنه سميع مجيب

(191/9)